المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة



ميراث الترجمة

يوسف أشباخ

تاريخ الأندلس

فى عهد المرابطين والموحدين

الجزء الثانى

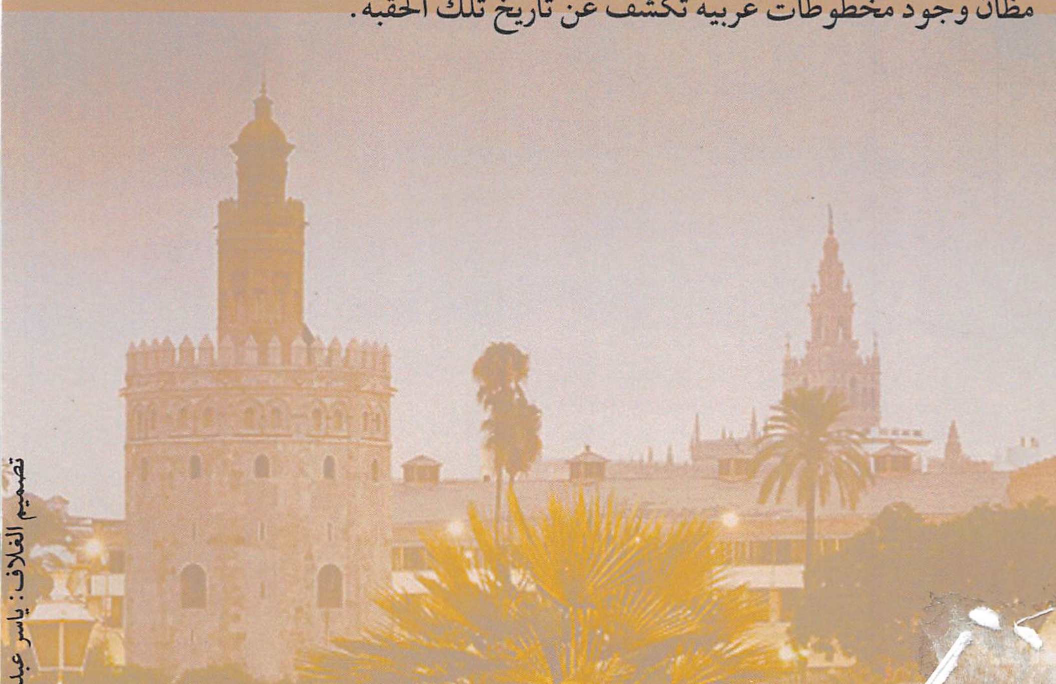
ترجمة وتعليق: محمد عبد الله عنان

تقديم وتنويه: سليمان العطار

1880

كيف حكم البربر الأندلس؟ تلك قصة طويلة لدولتين إمبراطوريتين قامتا فى المغرب هدمت ثانيتهما الأولى. سمت أولى الدولتين نفسها دولة المرابطين، أما الثانية فسمت نفسها دولة الموحدين. هذه القصة الطويلة هى موضوع هذا الكتاب الممتاز الذى ترجمه مؤرخ الأندلس الأكبر دون نظير له على المستوى العربى العلامة محمد عبدالله عنان.

والأهمية البالغة لهذا الكتاب ترجع لكون مؤلفه مطلعا على المصادر الإسبانية وغيرها من المصادر الأوروبية لأحداث الأندلس بأقسامه الثلاثة، وارتباطها الوثيق وتداخلها. والمؤلف أيضا ينتمى لجيل من المستشرقين بدأ يستعين بالمصادر العربية بجانب المصادر الإسبانية والأوروبية، لكن حتى وقت صدور الكتاب (1837) لم تكن معظم تلك المصادر قد خرجت للنور، رغم ما بذله المؤلف من جهد للاطلاع على مخطوطات كلفته أن يجوب مصر وبعض البلاد العربية الأخرى وغيرها من مظان وجود مخطوطات عربية تكشف عن تاريخ تلك الحقبة.



تصميم الغلاف: ياسر عبد القوى

تاريخ الأندلس

فى عهد المرابطين والموحدين

الجزء الثانى

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1880
- تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين: الجزء الثانى
- يوسف أشباخ
- محمد عبد الله عنان
- سليمان العطار
- 2011

هذه ترجمة كتاب:
Geschichte Spaniens und Portugals zur Zeit der Herrschaft der Almorawiden und Almohaden
Von: Joseph Aschbach

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: 27354524- 27354524 فاكس: 27354554
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

تاريخ الأندلس

فى عهد المرابطين والموحدين

الجزء الثانى

تأليف : يوسف أشباخ

ترجمة : محمد عبد الله عنان

تقديم وتنويه : سليمان العطار

2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أشباخ، يوسف.
تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (الجزء الثانى) / تأليف: يوسف أشباخ، ترجمة وتعليق: محمد عبد الله عنان، تقديم وتنويه: سليمان العطار
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١
٢٧٦ص، ٢٤ سم
١- الأندلس – تاريخ – الموحدون.
٢- الأندلس – تاريخ الخلفاء المرابطون.
(أ) عنان، محمد عبد الله (ترجمة وتعليق)
(ب) العطار؛ سليمان (تقديم)
(جـ) العنوان ٩٥٣,٠٧١٣

رقم الإيداع ٢٠١١/٥٠٥٤
الترقيم الدولى : 978-977-704-497-4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

بسم الله الرحمن الرحيم

يشتمل هذا الجزء — وهو القسم الثانى من كتاب تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين — على بقية تاريخ دولة الموحدين منذ افتتاحهم لغرناطة حتى سقوط دولتهم فى المغرب والأندلس . ويعنى المؤلف عناية خاصة بعرض تاريخ عبد المؤمن وفتوحه وتنظيم دولة الموحدين فى عهده ، وتاريخ أبى يعقوب المنصور الظافر فى معركة الأرك ، وهى أعظم المواقع التى نشبت بين الموحدين والأسبان ؛ ثم يقدم إلينا رواية ضافية عن موقعة العقاب التى تليها فى الأهمية ، والتى حُطمت فيها قوى الموحدين فى الأندلس ، وبدأ انهيار دولتهم من بعدها .

ويعرض المؤلف خلال ذلك تاريخ الممالك الأسبانية النصرانية بتفصيل واف ، وهو ما ينقص المصادر العربية ، ويحدثنا عن أحوالها الداخلية ، وعن نظمها وقوانينها ، وعن نموها المطرد عما تفتتحه تباعاً من القواعد والثغور الإسلامية ، وعن الحوادث والظروف التى أدت إلى تضعضع دولة الإسلام بالأندلس ، وسقوط قاعدتيها العظيمتين قرطبة وإشبيلية فى أيدى النصارى .

ويختتم المؤلف كتابه بالتحدث عن نظم دولتى المرابطين والموحدين ، وعن أحوال الحضارة والعلوم فى عهدها ؛ وحديثه فى ذلك موجز ، بيد أنه يتضمن بعض المعلومات والتعليقات المفيدة .

وقد اتبعت فى هذا الجزء نفس الطريقة التى اتبعتها فى الجزء الأول ، من التعليق والشرح فى جميع المواطن التى تقتضى شيئاً من الإيضاح ، أو التصحيح أو التذييل ، وعنيت عناية خاصة بذكر الأصول والمصادر العربية ؛ وتفضل صديق العلامة الأستاذ أحمد أمين بقراءة ترجمة هذا الجزء ، كما قرأ ترجمة الجزء الأول ، فله جزيل الشكر على جميل معاونته ؟

القاهرة فى ١٢ جادى الأولى سنة ١٣٦٠
الموافق ٧ يونية سنة ١٩٤١

محمد عبد الله عنان

الكتاب الرابع

سيادة الموحدين

والحكومة الخماسية النصرانية فى شبه الجزيرة الاسبانية

فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر

الفصل الأول

تاريخ إسبانيا النصرانية

منذ وفاة القيصر ألفونسو ريمونديز

حتى ولاية الملك ألفونسو الثانى الأرجونى الحكم

كان المسلمون والنصارى ، يتناوبون التفوق فى المعارك الطويلة التى تنشب بينهما فى شبه الجزيرة الاسبانية ، تناوب المد والجزر . فقد لاح قبيل عبور المرابطين إلى الأندلس ، أن الإسلام فى اسبانيا قد انتهى أمره . وتسمى الفونسو السادس قيصراً على جميع اسبانيا ؛ ولكن تغير كل شىء بعد موقعة الزلاّقة ، وأضحى يهدد النصرانية فى شبه الجزيرة خطرُ الفناء على يد المسلمين ، شأن الإسلام بها من قبل ؛ بيد أن انهيار سلطان المرابطين بسرعة ، واتحاد القوى النصرانية تحت لواء القيصر الفونسو ريمونديز ، مكّنا النصارى من التفوق مرة أخرى . فلما تمزقت اسبانيا النصرانية عقب وفاة هذا القيصر القوى ، وأدت فتوح الموحدين فى الأندلس ، وفى البسائط المجاورة ، إلى تغيير جديد فى سير الحوادث ، استرد الإسلام تفوقه من جديد ، واضمحلت سيادة النصرانية ، وخيل أنها لن تستطيع النهوض من عثرتها .

ولما توفى القيصر الفونسو ريمونديز ، لاح أن كوكب السعد الذى قاد النصارى الاسبان حتى ذلك الحين إلى النصر ، قد خبا تألقه ؛ وفقدت أوصال الدولة الاسبانية ، الرأس ووحدة العزم ، ونسيت خمس دول تتعادل فى القوة ،

خلال معاركها الداخلية أمر العدو المشترك ، ولم تثب إلى رشادها ، حتى كان هذا العدو يهدد بالفناء كل شيء ؛ وعندئذ فقط اتحد النصارى إزاء الخطر المشترك ، وعاد التوفيق يحالفهم فى كفاحهم ضد الإسلام .

وقسم القيصر مملكته بصورة خطرة على مستقبلها ، فمنح أكبر أولاده سانشو الثالث عرش قشتالة والأراضى التابعة لها فى أعالى التاجه ، وعاصمتها طليطلة ، وجعل له أيضاً حق الجزية على مملكتى نافارا وأراجون ؛ ومنح ولده الأصغر فرديناند الثانى مملكة ليون وجليقية واشتوريش وجزءاً من الفتوح الجديدة فى أراضى استرامادوره ، وكذلك دعوى السيادة على مملكة البرتغال . وإذا كان القيصر الفونسو الثامن (ريمونديز) لم يستطع مع ما اجتمع له من قوى قشتالة المتحدة ، أن يرغم ملك البرتغال على الخضوع لأداء الجزية ، أو أن يفرض على الممالك البرينية (نافارا وأراجون) أى نوع من السيادة الحقيقية ، فقد كان من الواضح بعد تقسيم مملكة قشتالة ، أن الممالك النصرانية الخمس التى قامت فى شبه الجزيرة أضحت كل منها تبحث عن صوالحها الخاصة مستقلة عن الأخرى ، غير مكترثة بما إذا كان الوطن المشترك يغنم بذلك أو لا يغنم . ومن ثم فكثيراً ما كان يحدث أن يقتتل القشتاليون ، والليونيون ، والبرتغاليون ، والنافاريون ، والأرجونيون فيما بينهم بأشد مما يقاتلون أعداءهم المسلمين فى الأندلس أو فى بلنسية . وقد كان لرجال الدين الاسبان الفضل فى أن وحدة اللغة والخلال والدين ، وهى التى كانت فى بعض الأحيان ، قلما تحدث أثرها فى القلوب التى تحجرت بطول الصراع ، لم يخب أثرها ، وعاد السلام بعد الخصام بين الأمراء النصارى ، واجتمعوا فى جبهة موحدة لقتال المسلمين .

ولما قسم القيصر مملكته بين ولديه (وكان ذلك قبل وفاته بنحو عشرة أعوام) لم يكن فى نيته قط أن يشطرها إلى مملكتين مستقلتين ، بل كان يرمى إلى أن تبقى مملكة قشتالة ، وعاصمتها طليطلة ، مركز السيادة النصرانية فى اسبانيا ، وأن تكون ليون مملكة تابعة لها ، مرتبطة بها ، على مثال أراجون

ونافارا . وهكذا كان من برنامج هذا المشروع أن يتخذ الملك سانشو الثالث ملك قشتالة لقب القيصر ؛ ولكن قشتالة لم يكن بوسعها أن تؤيد سلطانها على الدول الاسبانية الأخرى ، إلا إذا كانت متفوقة فى القوى ، ولم يكن يتاح لها هذا التفوق إلا إذا ضمت لها مملكة ليون . وكانت الأسر القوية فى ليون وقشتالة بما تضطرم به من الحسد والبغض ، تعمل على فصم أواصر القربى التى تربط الأسرتين الملكيتين ، وعلى دفع الدولتين المتجاورتين إلى قتال بعضهما . ومن ذلك الحين اضطرت قشتالة أن تنزل عن سيادتها على اسبانيا النصرانية ، وحاولت نافارا وأراجون أن تتحررا من عهد الجزية ، وهى محاولة كللت بالنجاح .

وقد استطاع الملك سانشو الثالث بكثير من القوة والعزم أن يقيم هيبة قشتالة مدى حين ؛ بيد أن حكومته لم تعش طويلاً ، ولم تحظ نظمه وترتيباته بشىء من الدوام . وعمد أخوه فرديناند ملك ليون إلى جميع العظماء الذين يخاصون لقشتالة (وكان من بين هؤلاء القومس الشجاع بونسيوس دى منرقا) فجردهم من ألقابهم ومناصبهم ، وأخرجهم من مملكته ، معتقداً أنه يغدو بذلك أقدر على حفظ استقلال ليون . ولم يلق المبعدون فى قشتالة حفاوة وترحابا فقط ، بل لقوا كذلك عوناً ضد مليكهم . وقاد سانشو ملك قشتالة أشراف ليون الفارين على رأس جيش قوى إلى ليون ، وأرغم أخاه الذى لم يكن قد تأهب للحرب بعد ، على أن يرد المبعدين إلى مناصبهم وأملاكهم ، وأرغمه كذلك فى لقاء خاص بينهما على أن يتعهد بأداء الجزية .

وانتهز سانشو السادس ملك نافارا الملقب بالقوى ، وصهر ولدى القيصر ، فرصة هذه الحرب الأهلية بين الأخوين ، ليرفع نير قشتالة عن مملكته ، وليسترد ولاية ريوجا التى كانت من قبل تابعة لمملكة نافارا ، واستطاع باتفاق عقده مع أراجون بأن ترد كل مملكة إلى الأخرى ما افتتحته منها من الأراضى ، أن يتفرغ لمقارعة قشتالة . بيد أنه لم يتح له بعد افتتاح ولاية ريوجا أن يحتفظ بها ، ذلك أنه كان يعتمد على انشغال قوات قشتالة بمحاربة ليون ، وعلى أن تنهض مملكة

أراجون فى الوقت نفسه فتعمل على التحرر من عهد الجزية لقشتالة ؛ فلما لم يقع هذا الحادث أو ذاك لم يرد أن يمضى وحده فى خوض الحرب ؛ فترك ولاية ريوجا دون أن يشتبك فى أية معركة مع الجيش القشتالى الذى أرسل لقتاله ، متوجساً من زحف القشتاليين على ناقارا ذاتها ؛ ثم عقد بين الفريقين صلح ردت الأمور بمقتضاه إلى ما كانت عليه .

وهكذا أثبت سانشو الثالث أنه ملك ذو بأس ، واستطاع بسرعة أن يرد أخاه الملك ، والملكين التابعين له ، إلى واجب الخضوع والطاعة . وكان قد اتخذ الأهبة لتتويجه ؛ وكان المفروض بلا ريب أنه سيحذو حذو ملوك قشتالة السالفين فى اتخاذ لقب القيصر ، وتقرر بالفعل أن يشهد رعوند برنجار الرابع ملك أراجون وقطالونية احتفال التتويج وأن يحمل الصولجان كتابع للعرش ، وأن يشهده كذلك الملكان الخاضعان للجزية ملكا ليون وناقارا ، وأن تنتهز فرصة اجتماع الملوك الأربعة للتشاور فى تنظيم حملة مشتركة ضد الموحدين ، الذين اتسعت فتوحهم فى جنوبى اسبانيا اتساعا يدعو إلى الجزع .

ولكن هذه الخطط كلها انهارت لوفاة ملك قشتالة على غير انتظار ؛ ذلك أن سانشو الثالث توفى فجأة فى طليطلة ، بعد أن حكم عاما واحداً وشهراً (من أول أغسطس سنة ١١٥٧ إلى ٣١ اغسطس سنة ١١٥٨) . ولم يترك ذلك الملك البارع فى الخلال والفروسة ، الذى سمى « بالمحبوب » ، وأجمعت الروايات المختلفة على مديحه ، سوى طفل فى الثالث من عمره هو الفونسو الملقب « بالنبيل » أو « الصغير » . وحرص سانشو الثالث على أن يبعد ملكى أراجون وناقارا عن كل تدخل فى شؤون الحكم فى قشتالة فلم يختر زوجه الملكة بلانكا أخت ملك ناقارا ، أو أخاه فرديناند ملك ليون للوصاية ونيابة الحكم ، ولكنه اختار فى وصيته ، للولاية على ولده وللنيابة فى الحكم ، مؤدبه الكونت جوتيرو فرنانديز سليل أسرة كاسترو القوية ، وقرر فى وصيته أيضاً أن يحتفظ جميع الأشراف بألقابهم ومناصبهم حتى يبلغ ألفونسو سن الرشد .

ومن ذلك الحين يتخذ تاريخ اسبانيا النصرانية طابعاً جديداً ، فلم يبق الملوك بعدهم محور السلطان والحكم ، ولكن الأسر الاسبانية القوية هي التي تتولى عندئذ هذا الدور ، وهي التي توجه سير النظم والحوادث الداخلية وتسيطر بالأخص على أقدار الحرب ضد العدو الخارجي ؛ أجل لم يقع تغلب الأرستقراطية على سلطة الملك في الدول النصرانية الخمس في نفس الوقت ولا بنفس النسبة ، ولكن عوامل هذا التغلب كانت تجثم منذ بعيد . ذلك أنه حيث يسبغ السيف والشجاعة أعظم التقدير ، وحيث تغدو الحرب الدائمة مهمة الحياة ، فإن النفوس التي تعودت مقارعة الحروب والأخطار ، تأبى — إذا لم يكن خطر العدو الخارجي داهماً — أن تنحني أمام السلطان أو تنزل راضية عند حكم القانون والنظام . ولم تك معظم الممالك النصرانية في شبه الجزيرة الاسبانية ينقصها الملوك الأقوياء ذوو الخلال الحربية البارعة ؛ فإن سانشو الثالث ملك قشتالة ، والفونسو هنريكيز ملك البرتغال ، وفرديناند الثاني ملك ليون ، وسانشو السادس ، الملقب بالقوي ، ملك نافارا ، وريموند برنجار الرابع ملك قطلونية وأراجون ، كانوا جميعاً ملوكا ، يقدمون في كثير من الحروب التي يخوضونها على رأس فرسانهم الشجعان ، القدوة لكل فضيلة حربية ؛ ولكن الأرستقراطية نمت واشتد بأسها ، حتى غدوا ، أو غدا من بعدهم خلفاؤهم القصر ، عاجزين عن التغلب على قواها المتفوقة . وظهر ذلك في البداية حينما توفي سانشو الثالث ملك قشتالة ، وخلفه طفل قاصر ؛ ثم ظهر مثل ذلك سراعا في أراجون وقطلونية حينما توفي الأمير الباسل ريموند برنجار الرابع ، وخلفه أيضاً ولده القاصر ألفونسو الثاني .

وتولى ريموند برنجار الرابع منشئ مملكة أراجون وقطلونية المتحدة حكم أراضيه الأصلية (قطلونية) زهاء إحدى وثلاثين عاما ، وحكم مملكة أراجون مدة تقل عن ذلك ببضعة أعوام ؛ وكان في حكمه أميراً ذكيا مستنيراً ، وحاكما قويا في نفس الوقت . وأوحى إليه حسن فهمه لظروف اسبانيا ، أن ينضوي منذ البداية تحت سلطان قيصر قشتالة القوي ، وأن يرتبط معه بأوثق الصلات ؛ وقد ضحى

فى سبيل هذه الصلة حتى باستقلال مملكته ، موقناً بأن انضواء مملكته المكونة من وحدات متنافرة تحت حماية قشتالة ، هو أسرع السبل لظفرها باستقلال قوى الدعائم .

وأنفق رعوند برنجار كل حياته فى محاربة المسلمين ، ومحاربة ملك نافارا ، والأشراف الفرنسيين فى لانجدوك وبروفانس . وقد تحدثنا فيما سبق عما قام به فى سير الحوادث الاسبانية ، وخصوصاً فى افتتاح المرية ، وعن افتتاحه لطرطوشة ، ومكونيزا ، ولاردة ، وافراغه ؛ وعن حروبه مع نافارا ، وصداقته للقيصر الفونسو ريموندز ؛ وبقى علينا أن نتحدث هنا بإيجاز عن حروبه فى لانجدوك وبروفانس ، وهو حديث فى الواقع أكثر اتصالا بالتاريخ الفرنسى منه بالتاريخ الاسبانى .

منذ اتحاد قطلونية مع أراجون فى مملكة واحدة ، غاض كل أثر كان يربط قطلونية حتى ذلك الوقت ، بعهد تأدية الجزية لفرنسا ؛ ومحيت من الوثائق الرسمية حتى عادة إثبات سنى حكم الملوك الفرنسيين ، وأصبح معظم ولاية لانجدوك كما أسلفنا من قبل ، ملكاً لأمير قطلونية ؛ وكان يحكم ولاية بروفانس الكونت برنجار رعوند ، ولد صاحبتها الكونتة دولشى ، بالوراثة عن أمه ، وهو أيضاً أخ لرعوند برنجار الرابع .

ولكن الكونت رعوند دى بو ، ولد أخت الكونتة دولشى ادعى حقا على نصف ولاية بروفانس ، وحارب صاحبها الكونت برنجار رعوند بمعاونة الكونت الفونس أمير تولوز (تولوشه) ، والجنويين ، وعدة كبيرة من الأنصار من فرسان الولاية ؛ وقبل أن يستطيع الكونت رعوند برنجار الرابع ملك أراجون أن يبادر بإنجاد أخيه الكونت برنجار ، قتل برنجار مدافعاً عن أرضه فى موقعة نشبت بينه وبين سفينة جنوية (سنة ١١٤٤ م) ، فتولى أمير قطلونية الوصاية على ولده الطفل ، ورباه فى قصره ، وحفظ له أراضيه ، بالرغم من أن الكونت دى بو سعى إلى لقاء القيصر الرومانى كونراد الثالث ، وهو صاحب السيادة على مملكة برجونية التى تتبعها ولاية بروفانس ، وذلك فى ڤيرزبورج (فى مارس أو ابريل سنة ١١٤٥) ،

وحصل منه لنفسه ولمقب أخت الكونته دولشى على حق حكم جميع الأراضى المتنازع عليها نظير أداء الجزية ؛ ولكن ريموند برنجار الرابع ، بعد أن افتتح مدينة آرل[١] ، أرغم أشراف الولاية على أن يؤدوا له يمين الطاعة ، وتلقب من ذلك الحين أيضاً بكونت بروفانس ، باعتباره حاكم الولاية بالنيابة عن ابن أخيه ، ورأى ريموند دى بو نفسه فى النهاية مرغماً على التنازل عن كل دعوى على بروفانس . ولكنه بعد أن توفى (سنة ١١٥٠م) ، حاول ولده الكونت هوجو أن يثير هذه الدعوى من جديد ، وحصل لنفسه أيضاً من القيصر فردريك الأول على تأييد حقه فى حكم أراضى جدته (سنة ١١٥٣م) ، وهكذا نشبت الحرب مرة أخرى ، وقدم ريموند برنجار الرابع إلى بروفانس بجيش قوى ، وأرغم أعداءه على طلب الصلح ، والتنازل عن كل حق ودعوى .

وبينما كان ريموند برنجار الرابع ، تارة يقاتل فى جنوبى فرنسا ، وتارة فى مفاوز البرنيه ضد نافارا ، وآناً يحارب المسلمين ، إذا به يعمل فى نفس الوقت باطراد لتوثيق الاتحاد بين أراجون وقطلونية . ولما توفى القيصر ألفونسو ريمونديز ملك قشتالة ، وجاءت وفاته نذيراً باستقلال الدول النصرانية الاسبانية الأخرى ، لقى ريموند برنجار ، سانشو الثالث ملك قشتالة فى أوسمه ، ورغب إليه أن يتحرر من عهد الجزية ؛ ومع أنه لم يوفق إلى تحقيق أمنيتـه كاملة ، فإنه تقرر نظراً لتقدم الموحدين فى جنوبى اسبانيا بصورة مزعجة أن يقتصر عهد الجزية بالنسبة لملوك أراجون فى المستقبل ، على حضور حفلات تتويج ملك قشتاله وغيرها من الحفلات الملوكية المشهودة ، وعلى أن يقدموا أمداد الجند حين الطلب ؛ وأما حق ملوك قشتالة فى احتلال المناطق والمدن الخاضعة للجزية ، فقد ألغى (سنة ١١٥٨ م) .

وفى نفس الوقت الذى تراخت فيـه عرى التحالف بين أراجون وقشتالة ، عقدت أراجون مع هنرى الثانى ملك إنكلترا محالفة ضد الكونت ريموند أمير

(١) كانت مدينة آرل يومئذ عاصمة ولاية بروفانس ، كما كانت من قبل عاصمة مملكة آرل القديمة التى افتتحها العرب سنة ٧٣٠ م (١١٢هـ) ، وفرضوا عليها الجزية .

تولوز ، وصهر لويس السابع ملك فرنسا ؛ وكان هنرى الثانى يدعى على ولاية تولوز حقوقاً باعتبارها ميراثاً لزوجه اليونور دى جويان . وحاصر هنرى ورعوند برنجار مدينة تولوز بقوات مشتركة ، ولكنهما لم يفوزا منها بطائل ، لأن لويس السابع بادر بإنجاد صهره ، وقضى على جهود الهاجين ؛ ولما رأى الحليفان ما تكبدا من خسائر غير قليلة ، قررا وقف الحرب ، وعقد الفريقان هدنة ، تلاها عقد صلح ، يحتفظ فيه رعوند دى تولوز بإمارته (سنة ١١٦٠ م) .

وفى تلك الأثناء توفى سانشو الثالث ملك قشتالة ؛ وترتب على وفاته أن ثارت الخصومة من جديد بين نافارا وأراجون ، وهى خصومة عمل رجال الدين على إخمادها بسرعة ؛ وأثار الكونت هوجو دى بو فى الوقت نفسه اضطراباً فى ولاية بروفانس ، ولكنه لم يفد منه شيئاً ؛ وأخيراً جنح القيصر فردريك الأول ، وهو الذى كان إلى ذلك الحين يحمى الكونت هوجو إلى تأييد أمير قطلونية ، ومنح القيصر أمير قطلونية ، وابن أخيه ، عهد الجزية على بروفانس ، كما كانت لأبيه من قبل ، ومنحه أيضاً مثل هذا العهد على مدينة آرل ، وولاية فوركالكيه ؛ وذلك على أن يقدم الأميران إلى القيصر عهد الطاعة بالنسبة للأراضى المذكورة ، وأن يتعهدا بتقديم أمداد الجند ، وأن يعترفا بالبابا فكتور الثالث الذى اختاره القيصر . ولما سافر الأميران إلى مدينة تورينو حيث كان القيصر يقيم يومئذ ، ليتلقيا منه عهد الجزية ، مرض رعوند برنجار أثناء الطريق وتوفى فى السادس من أغسطس سنة ١١٦٢ ، وهو فى الخمسين من عمره ؛ فتابع ابن أخيه برنجار الثانى رحلته إلى تورينو ، وتلقى العهد المنشود .

وفى وسعنا أن نقول إن رعوند برنجار الرابع ، ولو أنه لم يتسم قط بملك أراجون حتى بعد وفاة راميرو (رذمير) الثانى ، هو مؤسس عظمة أراجون الحقيق . وقد كان بإجماع الرواة أميراً مثاليا تتجلى فى شخصه كل الخلال البارعة ، التى تتطلبها الفروسة الحقة ، والحكم المستنير ، مثل العدالة ، والصدق ، والإنصاف ، والشجاعة ، وغيرها .

ولما وصل نبأ وفاة الكونت إلى اسبانيا ، استدعت أرملته بترونيلا طبقات الأمة الثلاث إلى الاجتماع فى وشقة ؛ ونُص على حضور نواب الطبقة الثالثة بطريقة صريحة ؛ وفتحت فى هذا الاجتماع وصية الأمير التوفى ، وفيها يعهد إلى ولده رعوند برنجار ، الذى اتخذ عندئذ اسم ألفونسو الثانى ، بحكم أراجون وقطلونية ، وأراضى لانجدوك ؛ وأن تمنح ولاية شرطانية [1] ومعها قرقشونة ، وحق الجزية على الفيكونت رعوند ترنكافل ، وكذلك على الجزء الذى يخص رعوند برنجار الرابع من اربونة ، إلى ولده الثانى بيدور ، وذلك على أن يكون خاضعاً لأخيه الأكبر . وإذ كان ألفونسو لم يجاوز العاشرة من عمره ، فقد تولت أمه الحكم على مملكة أراجون ، وتولى عمه الكونت برنجار أمير بروفانس حكم قطلونية ؛ وربى الأمير الفتى ، الذى تلقب عندئذ بألقاب الملك فى برشلونة . على أنه لم يمض عام آخر ، وطدت فيه بترونيلا سلام المملكة ، ووثقت أواصر التحالف بينها وبين قشتالة وإنكلترا ونافارا ، حتى تخلت عن الحكم بموافقة الأشراف لابنها ألفونسو ، على أن تكون ولاية العهد فى عقبه ، فإذا لم يعقب آل الحكم إلى إخوته أو عقبهم ؛ ونص على حرمان عقب الإناث حرماناً مطلقاً ؛ وعاشت بترونيلا بعد تخليها عن الحكم ، عشرة أعوام أخرى ، ثم توفيت فى برشلونة فى سنة ١١٧٣ م .

---

(١) هى بالافرنجية Cerdagne (سردانيا) وهى مقاطعة صغيرة من أعمال البرنيه الشرقية .

الفصل الثانى

قيام جماعات الفرسان الدينية

فى اسبانيا والبرتغال

فى نفس الوقت الذى غاضت فيه وحدة اسبانيا ، وأخذ سلطان الموحدين الناهض وفتوحهم تنذر النصارى كل يوم بالويل المتزايد ، يقع قيام جماعات الفرسان . ولما كان أولئك الملوك الذين يقاتل بعضهم بعضاً ، قد أصبحوا عاجزين عن صد « أعداء الدين » ، فقد برزت إلى الوجود هيئات كتلك التى أدت فى فلسطين للنصارى أجل الخدمات ؛ ولولا قيام هذه الهيئات ، لضاعت جهود قرون عديدة فى أعوام قلائل .

ومع أنه لم تقم فى أراجون وقطلونية جماعات فرسان دينية خاصة بهما ، فإن أمراء هاتين الدولتين كانوا مع ذلك أول من قدر أهمية هـذه الجماعات ، ولفتوا إليها الأنظار . وكان الملك ألفونسو الأول الأرجونى الملقب بالمحارب ، قد اعتزم أن ينشىء جماعة فرسان دينية ، وذلك فى وقت لم تكن قد قامت فيه بالمشرق أية جماعة من هذه الجماعات[1] ؛ وكانت تقوم بين مسلمى الأندلس مثل هذه الجماعة ، ومنها اشتق ملك أراجون مشروعه . والواقع أن مسلمى الأندلس أنشأوا قبل ذلك بعصور نوعاً من الفرسان لحماية الحدود ، يسمون « بالمرابطة » ؛ وكان هؤلاء

---

(١) المفروض أن المؤلف يشير هنا إلى جماعات الفرسان الدينية النصرانية التى قامت فيما بعد بفلسطين والشام ، مثل الداوية والاسبتارية ؛ ذلك أن المشرق قد عرف جماعات المحاربين الدينية المسلمة قبل أن تعرفها الأمم النصرانية بعصور ، ويكفى أن نمثل لذلك بجماعات الفداوية الإسماعيلية الذين أثخنوا فى الفرنج الصليبيين وقتلوا منهم عدة أمراء ، فقد ظهروا فى المشرق منذ أواخر القرن الخامس الهجرى .

يخصصون حياتهم مختارين للقتال ، ويهبون أنفسهم لحماية الحدود (الثغور) من غارات النصارى الفجائية وحملاتهم[١] ؛ وكانوا يعيشون فى تقشف بالغ ، ولا ينتظم فى سلكهم سوى فرسان امتازوا بالشجاعة ونقاء السيرة ؛ وقد مرنوا من حياة القتال الدائمة على الجلد والثبات فى أشد الأزمات ، فكانوا يقاتلون فى الحرب بشجاعة فائقة ، ولا يسمحون لأنفسهم بالفرار قط ، فإذا فاتهم النصر ، فإن الموت يغدو واجبهم ومطلبهم . أجل عرف النصارى الاسبان جماعات من الفرسان تربطها نظم وصفات معينة ، بيد أنها لم تكن جمعيات منظمة وفقاً لقانون معين . وكان الجند الأرجونيون الخفاف ، وهم الذين يسميهم العرب « بالمجاورين » ، يؤلفون فى بداية القرن الثانى عشر جماعات شديدة البأس ، مرنت على احتمال كل ضروب الحرمان والمحن ، ويحسب لها المسلمون أعظم حساب ؛ بيد أنها لم تكن تنتظم فى جمعية حربية منظمة .

ولما أنشأ ألفونسو الأول عقب افتتاحه لسرقسطة سنة ١١١٨ م (٥١٢هـ) قلعة « مونريال » على الحدود لتقوم بمدافعة المسلمين[٢] ، كان يفكر فى إنشاء جماعة من الفرسان برسم القبر المقدس ؛ وليس من المحقق ما إذا كان قد عرف عندئذ بقيام جماعة « الداوية » (فرسان المعبد)[٣] ، وجماعة فرسان القديس يوحنا ؛ وعرض ملك أراجون مشروعه على الأشراف (البارونات) ، وطلب إليهم مبالغ طائلة من المال لإمداد الجماعة والعمل على نشرها . ولكن المشروع بقى بلا تحقيق ، وذلك

(١) سبق أن شرحنا كلمة المرابطة ومصدر اشتقاقها ، ومغزاها التاريخى (راجع الحاشية فى س ٦٩ من الجزء الأول من هذا الكتاب) ونزيد هنا أن أطراف الأندلس الشمالية مما يلى برشلونة وسرقسطة إلى ما وراء جبال البرنيه ، كانت منذ الفتح تعرف بالثغر أو «رباط الثغر» وكانت المدن أو القواعد الأمامية المجاورة لأراضى العدو تعرف بالرباط ؛ فكان ثغر «أربونة» مثلا يعرف قبل سقوطه فى يد الفرنج برباط الثغر ؛ وقد اشتهر المدافعون عن هذه الثغور فى تاريخ الأندلس بالشجاعة الفائقة . وظاهر أن طوائف الفرسان التى يشير إليها المؤلف ، هم حماة الرباط ، أو الثغور ، أعنى أطراف الحدود المجاورة للنصارى ، وقد ورثوا تقاليدهم وخلالهم الحربية الممتازة عن أسلافهم حماة الرباط .

(٢) راجع س ١٥٣ من الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٣) راجع الحاشية الخاصة بالداوية (س ١٧٥ من الجزء الأول) .

فيما يظهر ، لعدم وجود الفرسان الصالحين لتنفيذه .

على أن الفكرة آتت مع ذلك ثمرتها ؛ ذلك أنه لما أخفق مشروع إنشاء جماعة دينية اسبانية من الفرسان ، اتجهت الفكرة إلى إنشاء فرع من فرسان الداوية فى اسبانيا ؛ وانتظم الكونت رعوند برنجار الثالث أمير برشلونة قبيل وفاته بقليل (سنة ١١٣١ م) فى سلك الداوية ، وأنشأ ولده وخلفه أول دير للجماعة فى قطلونية . وذهب ألفونسو المحارب ، حسبما ذكرنا من قبل ، بعيداً فى تأييد الداوية فنزل لهم فى وصيته عن ثلث مملكته ؛ ولكن الجماعة لم تحصل على هذا الثلث ، لأن الشعب الأرجونى أبى تمزيق المملكة ، بيد أنه لما طالب الداوية بعد وفاة ألفونسو بأعوام قلائل بحقوقهم فى المملكة ، عقدت بينهم وبين أراجون فى عهد رعوند برنجار تسوية فى هذا الشأن خلاصتها ، أن يعفى فرسان الداوية من الخضوع لقضاء الملك ، وأن يعطوا نصيباً معيناً فى المدن التى انتزعت من المسلمين مثل وشقة ، وبربشتر ، وقلعة أيوب ، وسرقسطة وغيرها ؛ وفى مقابل ذلك يتعهد الفرسان بأن يخصصوا خدماتهم لحماية النصرانية فى تلك الأنحاء ؛ وتم هذا الاتفاق فى اجتماع عقد فى جيرونة فى سنة ١١٤٣ م ، وشهده المندوب البابوى وكثير من الأساقفة وأشراف أراجون وقطلونية .

وسرعان ما ظهرت أهمية العون الذى يبذله فرسان الداوية فى كل حرب تنشب مع المسلمين ، ولا سيما فى الدفاع عن حدود أراجون الجنوبية وما ترتب على هذا العون من النجاح والظفر ، حتى أنه عهد إليهم ، كما حدث مع فرسان القديس يوحنا ، بحراسة معظم الحصون التى افتتحت فى العهد الأخير ، وكان من الطبيعى أن يقع مثل ذلك فى قشتالة والبرتغال ، فيعهد بالدفاع عن حصون الحدود الهامة المجاورة للمسلمين إلى فرسان الداوية ضد الغزوات الإسلامية ، ويحصل الفرسان غير بعيد جزاء جهودهم على كثير من الأراضى .

ونستطيع أن نقول إن جماعات الفرسان الدينية فى اسبانيا ، وجماعة «آفيس» Avis البرتغالية كانت تقليداً لجماعة فرسان الداوية التى نقلت نظمها من فلسطين

إلى اسبانيا ؛ وقد بدأت هذه الجماعات فى معظم الأحيان صغيرة لا أهمية لها ، وقامت وفقاً لضرورات الحوادث ، وسرعان ما اشتدت وقوى بأسها .

ومن الغريب ، أنه لم تنشأ فى أراجون ، أى فى نفس الأرض التى استقر الداوية فيها قبل غيرها ، وكانوا فيها أكثر عدداً ، أية جماعة محاربة جديدة إذ لم تدع الحاجة إلى قيام مثل هذه الجماعة ؛ أما فى قشتالة الجديدة وفى استرامادوره ، وهما أشد النواحى تعرضاً لغزوات الموحدين وعيثهم ، ولم يحتل الداوية فيهما سوى قلاع قليلة ، فقد حدث بالعكس أن قامت جماعتان محاربتان ، لايفصل بين قيامهما سوى أعوام قلائل . ذلك أن رجال الدين ، وخصوصا فى الأديار ، كانوا يعيشون من أجل الحرب والدعوة إلى الصليب أكثر مما يعيشون للعزلة والعبادة ، وقد رأوا حينما قسمت مملكة قشتالة ، وما ترتب على تقسيمها من تمزيق لاسبانيا ، أنه لابد من قيام جماعة مستقلة من الفرسان تكون بمعزل عن تقلبات السياسة فى الدول الاسبانية النصرانية ، لتذود عن الدين المسيحى ، وقد تجلت قوة الشعور بهذه الحاجة ، بما بذل يومئذ من جهود عديدة فى هذا السبيل .

أما أى الجماعتين القشتاليتين من الفرسان كانت الأولى فأمر يختلف عليه المؤرخون الاسبان ، بيد أنه بعد تمحيص مختلف الروايات يمكن القول بأنه إذا كانت جماعة « فرسان القنطرة » Alcantara التى اتخذت هذا الاسم فيما بعد (فى سنة ١٢١٩) هى أقدم الهيئتين ، فإنها لم تنم وتتقدم بمثل السرعة التى تقدمت بها جماعة « فرسان قلعة رباح » Calatrava . وإليك كيف تقدم إلينا الرواية نشأة « فرسان القنطرة » : فى سنة ١١٥٦م ، فى عصر القيصر الفونسو ريموندز ، وقبل وفاته بقليل ، اتفق فارسان من شلمنقة أحدهما يدعى سوررو والآخر جومز نذرا حياتهما لمحاربة المسلمين ، مع ناسك يعيش بقرب شلمنقة واسمه سانت أماندوس على البحث عن مكان يصلح لإقامة حصن ، تؤسس فيه جماعة من الفرسان لمحاربة أعداء الدين المسيحى ؛ وألفوا طلبتهم فى المكان الذى يقع فيه دير سنت جوليانوس ، فبنوا حول الدير بإذن الأسقف أردونو ، أسقف شلمنقة الذى يقع

المكان تحت رعايته ، حصناً يحيط به ، وسرعان ما اجتمع إلى الفارسين والناسك عدد من الفرسان والزاهدين الذين تحدوهم نفس العواطف ، ونذروا أنفسهم للكفاح من أجل الدين والموت فى سبيله ، وقامت من هؤلاء جماعة محاربة سميت أولا بجماعة « سنت چوليان دل پيريرو » S. Julian del Pereiro ، وانتخب رئيسها الأول الفارس سوررو الذى تقدم ذكره ، وأمده أردونو أسقف شلمنقة بأنظمة جماعة « السسترسيان » إحدى فرق « القديس بندكت »[١] ، ليكون منهاجا للجماعة مع بعض النظم الحربية ، وبعد ذلك بأكثر من خمسين عاماً ، فى أوائل القرن الثالث عشر ، اتخذت هذه الجماعة اسم جماعة فرسان القنطرة .

ولكن صمت المصادر التاريخية الوثيقة المعاصرة عن ذكر هذه الجماعة ، وما ورد عن قيامها فى الروايات المتأخرة ، مما يحمل على الشك فى صدق هذه القصة . أما الروايات التى انتهت إلينا عن قيام جماعة «فرسان قلعة رباح» فهى أصح وأوثق ؛ وقد قص علينا مؤرخ عاش بعد ذلك بقليل ، هو الأسقف رودريك الطليطلى ، عن قيامها ما يأتى : لما انتهى سانشو الثالث ملك قشتالة من الاتفاق مع أخيه فرديناند فى سنة ١١٥٨ م ، وعاد إلى طليطلة ، جاءت الأنباء بأن المسلمين يزحفون على قلعة رباح فى جيش ضخم . وكانت القلعة قد سلمت إلى فرسان الداوية للدفاع عنها ، ولكنهم لما أيقنوا بعجزهم عن الاحتفاظ بها إزاء تفوق الأعداء ، غادروها وردوها إلى ملك قشتالة . وكان يوجد وقتئذ فى طليطلة رجل ورع هو ريموند رئيس دير فتيرو ، ومعه راهب من أسرة نبيلة يدعى دياجو بلاسكيز ، وكان فارسا ظهر فى ميدان الحرب ، وربى فى البلاط . فلما رأى هذان الرجلان جزع الملك لما يتوقعه من سقوط قلعة رباح فى يد الأعداء ، خصوصاً وأنه لم يتقدم للدفاع عنها أحد بعد

---

(١) سبق أن أشرنا إلى جماعة القديس بندكت (الجزء الأول ص ١٢٥) . وأما جماعة السسترسيان Cistercians ، فهم إحدى فرق البندكتيين ، وقد أسست فى مكان يدعى ستو Citeaux بالقرب من مدينة ديجون سنة ١٠٩٨ م على يد راهب بندكتى يدعى سان روبير . وقد امتازت أنظمة هذه الجماعة بالخشونة وتفضيل العمل الشاق فى الحقول وغيرها على الإغراق فى الصلاة والعبادة .

أن غادرها فرسان الداوية ، اعتزما أن يتوليا هذه المهمة ، وسألا الملك أن يعهد بها إليهما ؛ فأجاب الملك سؤلهما ، لما يعلمه من ورع الراهب رعوند ورفيع مكانته لدى الشعب ؛ وأيد يوحنا مطران طليطلة مشروع الرجلين ، وألقى عظات دينية ، وعد فيها بالغفران لكل من يتقدم للدفاع عن قلعة رباح ، ولم يمض سوى قليل حتى استطاع الراهب رعوند أن يجمع حوله فى قلعة رباح عشرين ألف مقاتل ، وأمده كثير من أولئك الذين لم يشتركوا فى الدفاع بأشخاصهم ، بالخيل والدواب والسلاح والمؤن والمال ، حتى فاضت القلعة بكل ما هو ضرورى للدفاع ؛ وألفى المسلمون أنه ليس من الحكمة أن يقدموا على مهاجمة مكان اتخذت للذود عنه مثل تلك الأهبة ، وهكذا أنقذت قلعة رباح .

ثم رأى الراهب رعوند تخليداً لثواب الدفاع عن النصرانية فى اسبانيا ، أن يؤلف من هؤلاء المقاتلين الذين احتشدوا حوله ، ممن يرغبون فى تخصيص حياتهم للدفاع عن النصرانية إزاء الإسلام جمعية من الأخوة ؛ وهكذا قامت جماعة « فرسان قلعة رباح » ، وقوامها الحماسة الدينية والشجاعة ، وتألفت نواة فرسانها الأولى من رهبان دير فتيرو ، الذين بادروا بالرغم من سنهم وضعفهم إلى اللحاق برئيسهم رعوند فى قلعة رباح ، وهم يحملون معهم كل ما كان بالدير من متاع ومؤن وافرة ؛ وطبقت على الفرسان النظم الحربية لطائفة السسترسيان ، وانتخب الراهب رعوند أول « أستاذ أعظم » للجماعة ، ونمت الجماعة باطراد ، وصادق البابا إسكندر الثالث على قيامها ، وتوالت عليها الهبات الضخمة من الملوك والأفراد ، واعتقد الناس أن تعضيد هذه الجماعة المحاربة هو خير ما يعمل لخدمة الدين والوطن .

وهكذا بدت على مر الأيام ، أهمية ما يقوم به الفرسان من الخدمات والحماية ، وحمل تفرق ملوك اسبانيا النصرانية ، وتفاقم خطر الغزوات الإسلامية ، الشعب على أن يبحث لنفسه عن وسائل الدفاع ، وقامت فى جليقية فى سنة ١٢٦١ م ، بعد قيام فرسان قلعة رباح بثلاثة أعوام ، جمعية محاربة جديدة هى جماعة القديس ياقب S. Jacob ، وينسب تأسيس هذه الجماعة إلى عدة فرسان من قطاع الطريق ، كانوا من قبل يخوضون حياة همجية عنيفة ، ويرتكبون كثيراً من الآثام والجرائم ،

فوعظهم رجال الدين ونصحوهم بالاستقامة والتوبة ، فتابوا عما ارتكبوه فى شبابهم من إثم ، ووهبوا بقية حياتهم للدفاع عن دين المسيح ضد أعدائه ، وأن يقوموا بحماية الحاج الذين يقصدون زيارة قبر القديس ياقب فى كومبوستل ، وعين أول رئيس لهذه الجماعة بموافقة فرديناند ملك ليون ، الفارس بيدرو فرناندز ، وهو من أهل فونيتا انكالادا من أعمال استرقة ، فنظمها وفقاً لمناهج القديس أوغسطين (١) وأسبغ عليها الطابع الحربى ، وأبيح الزواج لأعضائها خلافاً لفرسان قلعة رباح ، واتخذ شعارها سيف القديس ياقب الدامى فى صورة الصليب ؛ وتوالت عليها الهبات ولا سيما هبات الملوك ، فنمت بسرعة ، واشتد ساعدها ، وكثرت املاكها .

أما فى البرتغال ، فقد ظهر فيها فرسان الداوية وفرسان القديس يوحنا مذ قامت المملكة ، وكان الملك ألفونسو هنريكز ، تحمله عاطفة المنافسة لقشتالة وليون على أن يحتذى مثلهما فى كل شيء ، فعول بعد الذى رآه من مزايا الفرسان الواضحة أن ينشئ جماعة من هذه الجماعات ؛ وعلى ذلك فإنه من الخطأ أن نرجع قيام جماعة الفرسان فى البرتغال إلى سنة ١١٤٧ م ، فهى لم تقم فى الواقع قبل سنة ١١٥٨ ، وربما كان قيامها سنة ١١٦١ ؛ وترجع وثيقة تأسيس هذه الجماعة التى سميت عند قيامها بالجماعة المحاربة الجديدة Nova Militia ، إلى سنة ١١٦٢ م ؛ وكانت نظمها شبيهة بنظم فرسان قلعة رباح ، ومشتقة مثلها من نظم الآباء السسترسيان . وتتلخص واجبات الأخوة فى أن يجاهدوا من أجل الدين المسيحى ، وأن ينزلوا الميدان دائماً لقتال المسلمين ، وألا يتزوجوا ، وأن يكونوا خاضعين لكبير فرسان قلعة رباح ، بالرغم من أن لهم رئيساً خاصا ؛ وفى ذلك ما يحمل على الاعتقاد بأن هذه الجماعة المحاربة البرتغالية الجديدة لم تكن فى الواقع سوى فرع لجماعة فرسان قلعة رباح ؛ وكان أول أستاذ أعظم لجماعة الفرسان البرتغالية هو بيدرو أخو الملك

---

(١) عاش القديس أوغسطين فى القرن الرابع وأوائل القرن الخامس (٣٥٤ — ٤٣٠ م) وهو من أعظم أركان الكنيسة اللاتينية . وأسست جماعة القديس أوغسطين فى القرن الحادى عشر الميلادى ؛ وشعارها الفقر والطاعة والعفة ؛ ومناهجها فى غاية الاعتدال بالنسبة لمناهج الجماعات الأخرى ؛ وهى منتشرة فى جميع أنحاء العالم .

غير الشرعى ، ولما استولى الفرسان فى سنة ١١٦٦ م على قلعة يابرة من يد المسلمين ، وعهد إليهم بحراسة القلعة ، سُمُّوا «بفرسان يابرة» ؛ ولما وهبهم الملك ألفونسو الثانى بعد ذلك ، فى سنة ١٢١١ م ، محلة «آفيس» Avis ، وأقاموا فى هذه المحلة قلعة جديدة ، سموا عندئذ « بفرسان آفيس » . وكان ثوبهم عندئذ عبارة عن عباءة طويلة ذات برنس أسود ، ولكنه غير فيما بعد ، إذ كان يضايقهم أثناء القتال ؛ كذلك سمح لأبناء هذه الجماعة فيما بعد أن يتزوجوا مثل فرسان شنت ياقب ، ولكن على أن لا يتكرر الزواج .

وفى بعض الروايات أن ألفونسو هنريكيز ، أنشأ بعد قيام الجماعة المحاربة الجديدة بأعوام قلائل ، فى سنة ١١٦٧ م جماعة ثانية سميت « بجماعة القديس مخائيل ذى الجناح» S. Michäel del Ala ؛ ويزعمون فى سبب هذه التسمية ، أنه رؤى أثناء موقعة شنترين ذراع يتقلد سيفاً فظنوه ذراع قديس . ولما كان ألفونسو قد أحرز فى هذه الموقعة ظفراً باهراً ، ولم ينج من الهلاك فيها إلا بمعجزة ، فقد قيل إنه أنشأ لهذا السبب جماعة من الفرسان تنضوى تحت اسم اللاك مخائيل ، وقد ورد فى وثيقة لا شك فى بطلانها ، أن أعضاء هذه الجماعة الذين سمح لهم بالزواج يجب أن يكونوا من الأشراف ، وأن يكونوا فى الحرب حرسا للملك وللأعلام ، وأن يخضعوا لرئيس دير الكوبازا ، وأن يجعلوا شعارهم جناحا أحمر ذهبيا يضمونه على صدورهم .

ولما كانت الروايات قد تضاربت فى أمر هذه الجماعة ، ولم تذكر عنها شيئا من بعد وفاة الفونسو هنريكيز ، وكانت هـذه الوثيقة تتضمن مزاعم تناقض التاريخ الحق ، فانه يسوغ لنا أن نشك فيما إذا كانت هذه الجماعة قد أنشئت وقامت فعلا .

هذا ، وبينما كان الفرسان يذودون عن حدود المملكة النصرانية ضد غزوات المسلمين إذ قل اهتمام النصارى بمحاربة أعدائهم المسلمين ، ومزقت قوى النصرانية على يد صراع داخلى طويل الأمد حتى بدا خطر الموحدين داهما على الجميع ، فاضطر الملوك النصارى عندئذ إلى توثيق اتحادهم من جديد .

الفصل الثالث

صراع أسرتى كاسترو ولارا

فى سبيل السيادة فى قشتالة

لما توفى الملك سانشو الثالث ظهرت فى قشتالة أسرتان قويتان على جميع الأسر الأخرى ؛ وكانت كلتاهما تضارع الأخرى من حيث الثراء والقوة ووفرة الأنصار ، وكلتاهما تحسب فى عداد الأمراء أكثر مما تحسب فى عداد الأتباع ؛ هاتان الأسرتان هما آل لارا ، وآل كاسترو ، كلتاهما عريقة فى الحسب ، وكلتاهما ساهمت فى تشييد قوة الملوكية واستولت على كثير من الأراضى بعهد الجزية وظفرت بأعظم المناصب والألقاب ؛ وكان ملوك قشتالة يعتبرونهما عضد العرش ودعامته . فلما توفى سانشو الثالث ، وآثر فى وصيته آل كاسترو باختيار زعيمها الشيخ جوتيرو فرنانديز مؤدبه القديم ، للوصاية على ابنه أثناء طفولته ، حنق آل لارا من هذا الإيثار لآل كاسترو ، وعملوا على إثارة حرب كانت وبالا على قشتالة ؛ وقد حاول الشيخ جوتيرو ، حينما شعر بنذر هذه الحرب ، اجتنابها بشىء من البذل والتساهل ولكنه لم يفعل سوى أن عجل بوقوعها ؛ وكان تصرفه بمفرده فى تغيير الوصية الملكية دليلا على نياته السلمية ، ولكنه لم يكن دليل الحكمة ؛ وكان يتزعم آل لارا ثلاثة أخوة ، هم أبناء الكونت بيدرو ، وزوجه الدونا آفا ، وهم مانريك ، والفارو ، ونونيو ، وكانت لهم ضياع واسعة على ضفاف دويرة (نهر دورو) ويتصل بهم بطريق القربى والمصلحة أوثق الصلات ، الكونت جارسيا دى آتيا من أسرة الكونت دى كابرا .

وقد عهد جوتيرو إلى جارسيا دى أنياس بتربية الملك ، وكأنه أراد بذلك أن يبقى الملك تحت سلطانه ، وذلك بعد أن استحلف آل لارا على حفظ السلم ؛ وكان جوتيرو يؤمل أن يجتنب بذلك كل خلاف حتى يبلغ الملك أشده ، إذ كان جارسيا فيما يبدو ، يستطيع بميوله السلمية ، وصلته بآل لارا أن يخمد الريب والظنون المضطرمة ، بيد أنه حدث عكس كل ما كان ينتظره الشيخ الضعيف جوتيرو . ذلك أن الكونت جارسيا كان رجلا قليل الذكاء والكفاية ، تثقل كاهله تربية الملك وما يقترن بها من الشؤون ، وكان يخشى بالأخص أن يتكبد فى سبيلها بعض الخسائر ، إذ لم تربط لها مخصصات ثابتة ، ومن ثم فإن الكونت المانريش كبير أسرة لارا لم يجد صعوبة فى إقناعه بأن يسلمه الملك الطفل ؛ وهكذا نقل الملك من يد آل كاسترو إلى يد آل لارا ؛ فلما علم جوتيرو فرنانديز بذلك ، طالب فى الحال بأن يعاد الملك إلى إشرافه ، فسخر آل لارا من طلبه . وهنا فقط أدرك جوتيرو سوء تصرفه ؛ وتفاقم الشر ، حين شهر الكونت الشيخ الحرب ليسترد بالقوة ما لم يك ثمة ضرورة للتسليم فيه ؛ وأنقذه الموت العاجل من لوم أسرته وصحبه ، ولم يخلف ولداً ، ولكن أبناء أخيه رودريك فرنانديز ، وهم فرديناند ، والفارو ، وبيدرو ، وجوتيرو ، وصهرهم الفارو ردريجيز ، تابعوا الكفاح فى سبيل قضية الأسرة ، يتزعمهم فرديناند كبير الإخوة ، مستندين إلى نصوص الوصية الملكية التى تخص أسرتهم بالوصاية ؛ فلما استمر الخصوم فى موقفهم ، ولم يسلموا الملك الطفل ، لجأ آل كاسترو إلى فرديناند ملك ليون ، عم الملك لكى يحمى ابن أخيه ، فقدم ملك ليون فى الحال فى جيش ضخم ، واحتل معظم أراضى قشتالة ، وأعلن توليه لزمام الحكم وللوصاية على ابن أخيه ، واعترف به معظم الشعب ملكا على قشتالة (سنة ١١٥٩ م) ، واشتد فى مطاردة آل لارا حتى أرغمهم أخيراً على تسليم الملك الطفل فى مدينة « سوريا » (Soria) . ومن الصعب أن ندلل على أن فرديناند كان ينوى انتزاع الحكم من ابن أخيه ، على أنه بسط حكمه على المملكة كلها تقريباً ، على نحو ما كان يحكم والده القيصر ، وتسمى بملك اسبانيا ، واتخذ من

آل كاسترو الذين دعوه إلى المملكة ، أخلص أنصاره ، وأغدق عليهم كل المناصب والألقاب ، واعتبر آل لارا عصاة خارجين ؛ وإذ كان الملك سانشو الثالث قد نص فى وصيته على أن يبقى الجميع محتفظين بأراضيهم ومناصبهم وألقابهم حتى يبلغ الملك الطفل الخامسة عشرة من عمره ، فقد طالب آل لارا بأراضيهم وحقوقهم ، وفقا لهذا النص . فلما رفضت مطالبهم ، عمدوا إلى جثة جوتيرو فرنانديز فأخرجوها من القبر ، وأقسموا أنهم لن يردوها إلى القبر قبل أن يرد المغتصبون إليهم حقوقهم ؛ فعندئذ دعيت محكمة للفصل فى النزاع ، فقضت ضد آل لارا ؛ وفسرت نصوص الوصية بصورة أخرى ؛ وهنا ثارت بين الفريقين حرب دموية عنيفة دامت بضعة أعوام ، ولم يتمكن آل كاسترو من إحراز النصر فيها إلا بمعاونة ملك ليون ؛ وخربت أراضى قشتالة وأجدبت ، واقتحمت القلاع ، وأحرقت المدن والقرى ، وعومل المواطنون معاملة الأعداء ، فنهبوا ، وأسروا ، وقتلوا . ولما نفدت قوى آل لارا فى النهاية ، طلب إليهم الملك فرديناند تسليم الأراضى الباقية تحت أيديهم من مملكة قشتالة ، ومنها العاصمة طليطلة ، وأن تؤدى جميع الضرائب إلى ملك ليون ؛ وقدر آل لارا حرج موقفهم ، فأعلنوا أنهم على استعداد لتقديم الطاعة إلى الملك فرديناند ، إذا سلم إليهم الطفل الملكى قبل ذلك ، وأنهم يريدون أن يقسموا يمين الخضوع والإخلاص للملك فرديناند باعتبارهم حماة وحراسا لملكهم المستقبل .

واتفق الفريقان على أن يجتمع لذلك الغرض مجلس شورى فى « سوريا » يشهده آل لارا ، والملك فرديناند مع ابن أخيه الطفل ، وهنالك سلم الطفل الملكى إلى الكونت المانريش دى لارا ، وقرن تسليمه بهذه الكلمات : « إننا نسلمه إليك مختارين ، فقم على حراسته مختاراً » ؛ وهنا بدأ الطفل يصيح بين يدى حامله متألماً من ألم أصابه بطريقة خفية ؛ فحملوه بعيداً بحجة إعطائه بعض الطعام وتهدئة روعه ، على أن يعاد إلى عمه فى المجلس ، بعد أن يكف عن البكاء . وفى الوقت الذى شغل فيه الملك فرديناند بالتشاور مع الكبراء ، فى انتظار يقظة

الطفل من نومه المزعوم ، وثب فارس جرىء من المخلصين لآل لارا ، واسمه بيدرو نونيز ، وحمل الطفل فوق أسرع جواد ، واستطاع أن يصل به فى نفس اليوم إلى قلعة استبان دى جورماز ، التى كانت باقية بأيدى آل لارا ؛ وعمد زعماء آل لارا فى الوقت نفسه إلى الفرار من المجلس ، قبل أن يقسموا يمين الطاعة للملك ؛ ولم يقف فرديناند على هذه الخديعة إلا بعد فوات الوقت ، ولما أرسل إلى الكونت المانريش فارساً ينعى عليه نكثه وغدره ، ويتهمه بالخيانة العليا ، استقبله آل لارا بالتهديد والوعيد ؛ وأعلن المانريش أنه لا يريد أن يناقشه أحد فيما إذا كان قد أخلص أو نكث ، وأن كل ما هنالك ، أنه لجأ الى جميع الوسائل الممكنة لينقذ سيده الشرعى ، الذى ما زال طفلا ضعيفاً ، من براثن العبودية ، وأن القوانين وأصوات الشعب كفيلة بتبرئته من كل إثم وعيب .

ومن ذلك الحين ، أعنى منذ سنة ١١٦١ م تسترد أسرة لارا قوتها وبأسها ، إذ كان الشعب يرى دائماً أن الحكومة توجد حيث يوجد الملك ؛ كذلك كافحت المدن الواقعة على ضفة دويرة ، والتى كانت تابعة لآل لارا ، كفاحاً شديداً ، ومع ذلك فقد بقى التفوق فى جانب فرديناند وحلفائه آل كاسترو ، وكان يؤيدهم أكابر رجال الدين ومنهم مطران طليطلة . وإذا كانت أسرة لارا قد استطاعت بالرغم من هزائمها فى ميدان الحرب أن تحتفظ بسلطانها ، فإن فى ذلك ما يدل على أنها كانت تعتمد على معاونات هامة ؛ ويرجع ذلك أيضاً إلى أسباب عديدة أخرى .

وقد حدث أنه بينما كانت أسرة لارا تكافح ملك ليون وآل كاسترو بكل ما وسعت ، أن قام فى وجهها عدو جديد ، هو سانشو السادس ملك نافارا ، وانتزع ولاية ريوجا من قشتالة وضمها إلى مملكته ، وبلغ من ثقته بثبات هذا الفتح ، أن ترك ريوجا دون حرس ، وأرسل قوة من النافاريين لمعاونة حليفه أمير بلنسية[1] ؛ فانتهز آل لارا فرصة هذا التهاون ، واستردوا ريوجا دون كبير جهد .

---

(١) كان أمير بلنسية وشرق الأندلس يومئذ عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش ؛ وكان قد قوى أمره واشتد بأسه وأرسل جيوشه إلى غرناطة وقرطبة لمحاربة الموحدين ، وأوقع =

وبينما كان يبدو آل لارا فى صورة المدافعين عن استقلال قشتالة والقومية القشتالية ، ويغنمون بذلك عطف فريق كبير من الشعب ، كان آل كاسترو ، الذين كتبت على يدهم هزيمة النصارى إزاء المسلمين ، يفقدون سلطانهم شيئاً فشيئاً . بيد أنهم بادروا قبل أن يفقدوا كل سلطانهم إلى التفاهم مع خصومهم ، وعقدوا معهم فى « سوريا » فى سنة ١١٦٣ م ، اتفاقاً على وقف القتال ، حتى يستطيع النصارى رد غزوات المسلمين بصورة أقوى وأنجع . ومع ذلك فقد اقتصر الفريقان فى الاشتراك فى محاربة الموحدين على إرسال فرسان قلعة رباح والداوية ومعاونتهم ، للدفاع عن الحدود . وما كاد ينقضى خطر المسلمين الداهم ، حتى نشبت الحرب الأهلية فى قشتالة من جديد ، ذلك أن أسرة لارا لم تعقد الهدنة إلا لكى تخدر أعصاب خصومها ، ثم لتضربهم الضربة القاضية ، بمباغتة طليطلة عاصمة قشتالة . ولكن فرديناند روبز عميد آل كاسترو كان على قدم الحذر من غدر آل لارا .

ومن ثم فقد حطم الهجوم على طليطلة ، وفقد المانريش دى لارا الشجاع حياته فى المعركة (سنة ١١٦٤ م) ، فأعلن أخوه نوينو نفسه وصيا لقشتالة ومضى فى متابعة الحرب بعنف وشدة ، وعاد آل لارا فجمعوا قواتهم بسرعة ، واستطاعوا أن يستثمروا بذكاء كون الملك الطفل فى يدهم ، وأن يغتنموا بذلك تأييد كثير من القشتاليين ، الذين دفعهم ظفر الليونيين من قبل إلى معاونة آل كاسترو ؛ وتقدم نوينو فى غزو أراضى طليطلة بسرعة ، حتى أن الملك فرديناند اضطر أن يحالف أعدى أعداء عرش قشتالة ، أعنى سانشو ملك نافارا ، وألفونسو الأول ملك البرتغال ، على محاربة ابن أخيه وحماته آل لارا ؛ ذلك أنه كان يرى أسفاً كيف تنمو هيبة الملك الطفل فى نفوس القشتاليين يوماً عن يوم ؛ وكان كثير من القشتاليين الذين يخشون من تسلط الأجانب على حقوق البلاد ، يزداد

= بهم عدة هزائم ، وتحالف مع النصارى ، واستعان بهم فى محاربة الموحدين ؛ وكانت وفاته فى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٢٠ ، والاستقصاء ص ١٥٧)

سخطهم تباعاً على آل كاسترو الذين يسندهم الليونيون ؛ ولم تأت محالفة فرديناند للبرتغال بالنتائج المنشودة ؛ فقد اضطر أن يخوض الحرب فى ولاية استرامادوره ، حيث ثارت مدينتا شلمنقة ، وآبلة[1] ضد سلطانه ، إما بتحريض البرتغال أو أسرة لارا ، ونادتا بشخص اسمه نونيو سيرانيز ملكا عليهما ؛ ولم يستطع إخماد الثورة إلا بعد كبير جهد ، بل لقد كان انتصاره على الثوار محض مصادفة سعيدة ؛ وأسر الزعيم الثائر ، وقتل .

وفى تلك الأثناء كان آل كاسترو قد أساءوا استعمال سلطانهم ، وأسرفوا فى التعسف ، وشددوا فى اضطهاد كل من كان فى قشتالة وطليطلة ، يميل فى نظرهم إلى خصومهم ، حتى ضاق القشتاليون ذرعاً بحكمهم وعسفهم ؛ وعملت أسرة لارا على استثمار هذه الحالة بذكاء ، وعقدت مع سكان طليطلة أواصر التفاهم ، وحققت عندئذ مالم تستطع تحقيقه من قبل ، فاستولت عنوة على عاصمة قشتالة ، ولم تلبث أن نادت بالملك الطفل ألفونسو ، الذى لم يجاوز عندئذ الحادية عشرة من عمره ، والذى اتخذته عضداً لدعواها ، ملكا على قشتالة ، وذلك فى سنة ١١٦٦ م ، ودعت جميع القشتاليين إلى الالتفاف حول الملك الشرعى ، ومقاومة الليونيين ، وآل كاسترو الظالمين .

وأبدت قشتالة كلها من ذلك الحين ولاءها للملك ألفونسو ، الذى يلقب بالنبيل ، ويلقبه البعض بالصغير ؛ واستأثر آل لارا بجميع السلطة ، وحتى رجال الدين ، بعد أن لبثوا إلى ذلك الحين يعضدون ملك ليون ، أعلنوا ولاءهم عندئذ لألفونسو ؛ وعمل المطران سررون أسقف سجونزا الذى عينه كبيراً للكنيسة الاسبانية بعد وفاة المطران يوحنا مطران طليطلة ، كل ما فى وسعه لتدعيم عرش الملك الطفل . وعقدت قشتالة مع ملك نافارا هدنة مدتها عشرة أعوام ؛ ثم عقدت بعد ذلك ببضعة أعوام (فى سنة ١١٧٠ م) مع أراجون معاهدة حماية وتحالف ؛

(١) شلمنقة هى (Salamanca) ، وآبلة (Avila) ، (راجع جدول الأعلام الجغرافية فى نهاية الجزء الأول) .

وهنا ألفى فرديناند ملك ليون أن الأمور قد ساءت ، ولم يبق فى وسعه أن يعاون أصدقاءه آل كاسترو ، فتركهم لمصيرهم ، حتى لا يخاطر بالدخول فى حرب مع قشتالة ؛ ولم يجد آل كاسترو ، الذين أخرجوا من قشتالة أمام سخط الشعب وتفوق آل لارا عليهم فى القوى ، ملجأً يلوذون به سوى أراضى المسلمين ، وهنالك أخذوا يدبرون وسائل الانتقام من أعدائهم .

ولم تهدأ الحرب الأهلية فى قشتالة ، سوى بضعة أعوام . ذلك أن الفارين من آل كاسترو وعلى رأسهم فرديناند رويز ، عكفوا على تحريض الموحدين على غزو قشتالة . ثم نجحوا أخيراً فى إقناع فرديناند ملك ليون أن يؤويهم إلى مملكته وعول فرديناند أن يشغل ابن أخيه ألفونسو ، الذى أسلم قياده إلى آل لارا ، وكان يضطرم نحوه بغضاً ، فعضد الزعماء الفارين ، وأمدهم بجيش غزوا به قشتالة وخربوا أراضى أسرة لارا . وهكذا أسفر الخلاف الحزبى عن ضحايا جديدة ؛ ونشبت فى « لوركالى » على مقربة من استبان دى جورماز معركة دموية (سنة ١١٧٤ م) ، وكان يحارب إلى جانب آل لارا الكونت أزوريوس صهر فرديناند روبز دى كاسترو ، فسقط فى الميدان قتيلاً وسقط معه عدة كبيرة من القوامس والفرسان القشتاليين ، وأسر من الفريق الآخر الكونت نونيو والكونت رودريجو ولدا جوتيرو ، ولم يطلق سراحهما إلا بعد أن أقسما بالعودة إلى التسليم ، ووعد رودريجو أن يعود إلى الأسر بعد أن يشهد دفن أخيه الفارو الذى سقط فى الموقعة ، ولكن جثة الميت بقيت فى تابوتها ولم يتم الدفن ، ولم يعد رودريجو . أما الكونت نونيو فقد عاد إلى خصومه فى اليوم المحدد ، ولكنه لم يعد وحده ، وإنما عاد فى ستمائة فارس ، ولم يجرؤ بذلك إنسان أن يقوده إلى الأسر ؛ وهكذا أصلح آل كاسترو بالنكث والغدر ما أفسدته الهزيمة .

وقد وصل آل كاسترو يومئذ إلى ذروة الحظوة لدى فرديناند ملك ليون . يدل على ذلك أنه قدم أخته غير الشرعية الدونا ستفانيا زوجاً لفرديناند روبز ، بعد أن طلق زوجته الأولى ابنة الكونت أزوريوس ؛ وكان الكونت الشهير

بيدرو فرنانديز من عقب هذا الزواج . بيد أنه ممـا يدعو إلى التأمل أيضاً ، أن الملك فرديناند طلق زوجه الأميرة البرتغالية أورا كا بسبب القرابة المباشرة ، وتزوج من الدونا تيريزا ابنة الـكونت نونيو دى لارا . وفى ذلك ما يدل على أن أسرة لارا كانت تعتبر فى عداد الأمراء ، وقد كان هذا الزواج أكبر عامل فى تهدئة النضال بين أسرتى لارا وكاسترو . أما كيف انتهى النزاع بينهما فلم تشر إليه الرواية ، وتوفى فرديناند رويز عميد آل كاسترو فى سنة ١١٨٥ م .

الفصل الرابع

تاريخ مملكتي البرتغال وليون

منذ وفاة القيصر ألفونسو إلى وفاة ألفونسو هنريكيز وفرديناند الثاني

تلقى فرديناند ملك ليون ، وجليقية ، واشتوريش عن أبيه القيصر ألفونسو ، إلى جانب هذه الأقاليم الثلاثة ، دعوى السيادة على البرتغال . على أن مملكة البرتغال كانت تعمل لتوطيد استقلالها يوما عن يوم بما تحرز من نصر على المسلمين ، وما يتخذه ملكها من التدابير الحازمة ؛ وكان الشعب البرتغالى بأسره يعارض كل المعارضة فى الاعتراف بأى نوع من التبعية لاسبانيا . وكان ملك ليون من جهة أخرى ؛ قد شغلت قواه فى البداية بموقف قشتالة الخطر ، ثم بعد وفاة سانشو الثالث بما تلا من ظروفها وحوادثها المزعجة ، فلم يستطع أن يزاول حق السيادة على البرتغال . ولكنه ما كاد يبسط سلطانه على قشتالة واسترمادوره بمعاونة آل كاسترو ، حتى بدأ يشهر عدوانه على جارته البرتغال ، مع أنه لاح قبل ذلك بقليل أن ليون والبرتغال كانتا على وشك عقد محالفة وثيقة بينهما ضد قشتالة وضد المسلمين ؛ وكان فرديناند قد تزوج بالفعل ابنة ملك البرتغال الأميرة أوراكا (سنة ١١٦٥ م) ، ولكن أواصر المعاهدة والقربى لم تستطع أن تحد من أطماع الأمير وشهوته فى الفتح ؛ ذلك أنه — نزولا على نصح زعيم برتغالى ألفى ملاذاً فى بلاط ليون — عمد إلى تحصين مدينة ردريجو (Ciudad Rodrigo) الواقعة على حدود البرتغال (سنة ١١٦٥) واتخذها قاعدة للقيام بعدة غارات مخربة على الأراضى البرتغالية المجاورة ، وأقام فى الوقت نفسه عدة قلاع وحصون على حدود البرتغال

وأخذ يهدد المملكة الناشئة تهديداً قويا .

وإذ كان الملك ألفونسو هنريكيز [١] يقوم فى ذلك الحين بغزوات هامة فى أراضى المسلمين وقد انتزع بالفعل منهم عدة مواقع بينها قلعة يابرة (سنة ١١٦٦م — ٥٦١ هـ) ، وكان فرديناند من جانبه مشغولا بمحاربة سكان شلمنقة وآبله ، الذين ثاروا بتحريض البرتغال وأسرة لارا ، فيما يظهر ؛ ومشغولا فى الوقت نفسه بمحاربة المسلمين حيث انتزع منهم القنطرة والبوكرك والفاس [٢] ، فإن الحرب بين ليون والبرتغال هدأت مدى حين ، وذلك بالرغم من توفر جميع العوامل لإضرامها .

وما كاد ملك البرتغال ، يقف على تطور الحوادث فى قشتالة ، وما وقع فيها من نفى آل كاسترو ، وتحطيم سلطان فرديناند على يد آل لارا ، حتى بادر إلى حدود مملكته الجنوبية فحصنها ضد المسلمين ، وعهد بحمايتها إلى فرسان يابره ، وأرسل جيشاً بقيادة ولده وولى عهده سانشو لمحاصرة مدينة ردريجو ؛ ثم سار بنفسه فى سنة ١١٦٧ م فى جيش قوى إلى ولاية جليقية ، واستولى على مدينة ليميا والأنحاء المجاورة لها بحجة أن هذه الأراضى تتبع مملكة البرتغال ، باعتبار أنها أعطيت لأمه الملكة تيرزا ، من أبيها ألفونسو السادس مهراً لزواجها ، بيد أن الجيش الذى سار بقيادة ولده إلى مدينة ردريجو هزم أثناء ذلك على يد الجند الليونيين .

وفى العام التالى (سنة ١١٦٨ م — ٥٦٤ هـ) سار ألفونسو هنريكيز إلى افتتاح مدينة بطليوس من يد المسلمين ، وبدأ بالفعل محاصرة هذه القلعة الهامة ،

(١) سبق أن أوضحنا أن الرواية العربية تسمى الملك ألفونسو هنريكيز « ابن الريق » صاحب قالمرية (تراجع الحاشية فى ص ٢٥٨ من الجزء الأول) ، ولكنها تسميه أحيانا «بابن الرنك» (وربما كان صوابه ابن الريك) (يراجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ ، وكتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٢٧) .

(٢) تشير الرواية العربية إلى هذه الغزوة وإغارة الفرنج على ما وراء حدود البرتغال ، على مقربة من بطليوس ، ولكن بصورة غير واضحة ، ومع أنه يمكن القول بمطابقة الزمن والحوادث ، فإنه يتعذر التحقق من مطابقة الأماكن (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٦١) .

ولكن وصلته الأنباء عندئذ بأن ملك ليون قد سار إلى قتاله فى جيش ضخم ، وكان فرديناند قد حظر على البرتغاليين قبل ذلك أن يقوموا بفتح مكان معين من يد المسلمين مدعياً أن هذا المكان يدخل فى منطقة أراضيه ، ولا يسوغ افتتاحه إلا لملك ليون لجد ألفونسو هنريكيز فى التعجيل بافتتاح بطليوس قبل مقدم فرديناند معتقداً أن الكلمة ستكون لأقوى الفريقين ، واستطاع بالفعل أن ينتزع معظم أنحاء المدينة ، ولم يبق فى يد المسلمين سوى قلعتها ؛ وهنا قدم ملك ليون فى جيشه ، وأتيح عندئذ للمسلمين المنهزمين أن يشهدوا منظراً غريباً ، هو منظر القتال بين جيشين نصرانيين وملكين نصرانيين ، من أجل الاستيلاء على المدينة ؛ ولما رأى ألفونسو هنريكيز ، بعد هزيمة قسم من جيشه على يد الليونيين أنه غدا أضعف من أن يستطيع الاحتفاظ بمدينة لم يستول على قلعتها بعد ، وأنه أصبح مهدداً بالحصار من عدو يفوقه فى الكثرة ، رد المدينة إلى المسلمين الذين غدوا عندئذ أصدقاءه ، واعتزم المبادرة بالفرار مع بقية جيشه ، ولكن حدث عند ما هم المسلمون باغلاق الأبواب بسرعة ، أن علقت ساق الملك الفار برتاج الباب وسقط من فرسه ، فكسرت ساقه ، ووقع أسيراً فى يد الليونيين .

وأبدى فرديناند شهامة وكرما إزاء محنة عدوه ، فأمر أطباءه بأن يعالجوه بمنتهى العناية وعامله بكل ما يعامل به الملوك من صنوف التكريم والرعاية ، وكان يجلسه إلى جانبه ، ومع أن ملك البرتغال كان على أهبة لأن يعترف بالخضوع وأداء الجزية افتداء لحريته ، فإن فرديناند اكتفى بأن يتعهد ألفونسو هنريكيز برد الأماكن والأراضى التى انتزعها من جليقية والتنازل عن كل دعوى بشأنها ؛ ولما تم نفاذ هذا العهد عاد ألفونسو هنريكيز إلى مملكته دون عائق ودون تضحيات أخرى ، بيد أنه استبقى ساقه العرجاء أثراً مؤلماً لسقطته وأسره ، يحول دون ركوبه الجواد ، والسير إلى ميدان الحرب ؛ أما فرديناند فقد حاصر بطليوس ، وآثر المسلمون — حين أيقنوا أنهم لا يستطيعون الدفاع عنها طويلا — أن يهادنوا ذلك الملك الظافر المعتدل ، وأن يقطعوا له عهد الخضوع ؛ فلما قدموا إليه طاعتهم

وخضوعهم ، أقر حاكم المدينة المسلم « ابن حابل » (كذا) على حكمها ، وارتد عائداً إلى مملكته ، بيد أنه سرعان ما ندم على تساهله مع مسلمي بطليوس ، ذلك أنه لم يمض طويل حتى ثارت المدينة ، وعادت إلى الانضواء تحت سيادة الموحدين ، وغدت بقلعتها المنيعة قاعدة لما يقوم به الموحدون من غارات مخربة في أراضي استرامادورة (١) .

وقد وقعت أمور كثيرة تدل على مبلغ ما كان يسود الملكين النصرانيين في شبه الجزيرة ويفرق بينهما من عوامل الحسد وسوء الظن ؛ فإذا أتيح لأحدهما مثلا أن يحرز على المسلمين الظفر في إحدى الواقع ، فإن الآخر يخشى أن يغدو ذلك النصر خطراً على مملكته ؛ وكانت كل غزوة يقوم بها النصارى في الأراضي الإسلامية المجاورة تثير الانزعاج بين ملكي البرتغال وليون ، كأنما هذا الغزو كان يقع في أراضيهما ؛ والواقع أنه لم يكن ثمة بين الملكين أى سلام حقيقي ؛ وكان الخوارج المبعدون من أتباعهما ، يلقون كل فريق لدى بلاط الآخر حسن الوفادة ، ويعملون بكل ما وسعوا لإذكاء الخصومة وسوء الظن بين الملكين ؛ ولما استطاع الموحدون أن يقفوا تقدم البرتغاليين في أراضيهم ، وأخذوا يحاولون استرداد المدن المفقودة ، وحاصروا مدينة شنترين بجيش ضخم (١١٧١ م — ٥٦٧ هـ) (٢) ، لاح

(١) يبدو من مراجعة الرواية العربية أنها تتفق مع الرواية النصرانية في كون النصارى قد حاصروا بطليوس في تلك الفترة مرتين — الأولى سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨م) ، وهذا الحصار هو الذى قام به الفونسو هنريكيز حسبما تقدم ، والثانية في سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩م) وهو الحصار الذى قام به فرديناند ملك ليون . وفي الرواية العربية مايدل على أن الموحدين اشتركوا في الحصار الأول مع أهل بطليوس في الدفاع عنها . وفي الحصار الثانى ، بعث الشيخ أبو حفص المنتانى كبير قادة الموحدين بالأندلس ، أخاه أبا سعيد إلى بطليوس لإنجادها ، وآثر أبو سعيد أن يعقد الصلح مع النصارى . أما ابن حابل ، أو ابن هابل الذى تشير الرواية النصرانية إلى أنه حاكم بطليوس وقت الحصار فهو تحريف ظاهر لاسم عربي لم تتضح لنا حقيقته . ولعل الاسم الحقيق هو « ابن الحاج » (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٦٠) .

(٢) تشير الرواية العربية هنا إلى خروج النصارى إلى أرض المسلمين بقيادة « القومس الأحدب » ، ويلوح لنا أنها تقصد هنا الفونسو هنريكيز ملك البرتغال ، لأن كلمة قومس هى تحريف كلمة Comes اللاتينية ومعناها الكونت ، وقد كانت تطلق يومئذ على أمراء اسبانيا =

لملك ليون أن الفرصة قد تسنح ، إذا ما هزم الجيش البرتغالى للقيام بفتوحات جديدة ، فحشد فى الحال جيشاً قويا ، وبادر بالسير إلى مقربة من ميدان الحرب وأخذ يرقب الظروف والحوادث ؛ ولكن حدث قبل مقدمه ، أن نجح ملك البرتغال فى إرغام المسلمين على رفع الحصار عن شنترين ، وهزمهم هزيمة فادحة ، وألجأهم إلى الفرار . ولما علم الفونسو هنريكيز بمقدم اللاونيين على هذا النحو المفاجئ ساوره القلق ، لأنه قياساً على ما سبق ، لم يكن يؤمل خيراً من مقدم جيرانه حينما يحرز النصر على المسلمين . على أنه آنس من نفسه استعداداً ومقدرة لملاقاة هؤلاء الأعداء الجدد . ولكن فرديناند لم ير من الحكمة أن يخوض المعركة مع البرتغاليين وهم فى نشوة ظفرهم على المسلمين ، بل آثر أن يتظاهر بأنه لم يقدم بغية القتال ؛ وأرسل إلى ملك البرتغال رسولا يهنئه بالنصر ، ويعرب له عن أسفه لوصوله متأخراً ، وعدم تمكنه بذلك من معاونته ؛ فشكره ملك البرتغال على جميل عواطفه ، وانتهز فرصة هذا المظهر الودى ليعمل على إلقاء الرعب فى قلوب المسلمين ، وليشتد فى مطاردتهم .

وعاد فرديناند إلى ليون . وقلبه يفيض أسفاً لفشل خطته التى دبرها باحكام . وكان قد طلق زوجه الأميرة البرتغالية أوراكا بحجة القرابة ، بالرغم من أنه أنجب منها ولداً ، هو ولى العهد (الانفانت) الفونسو ، ولم يكن متأثراً فى ذلك بالقرار البابوى فقط ، ولكنه كان متأثراً بالأخص بخصومته للبلاط البرتغالى .

وحكم الفونسو هنريكيز مملكته من ذلك الحين آمناً لا يزعجه أحد من جيرانه النصارى ، منتصراً فى محاربة المسلمين كما سنذكر بعد . وأخيراً صدر القرار البابوى المتعلق باستقلال مملكة البرتغال عن قشتالة وليون ، بعد أن طال عليه الأمد ، وأصدره البابا اسكندر الثالث بمقتضى مرسوم بابوى فى سنة ١١٧٩ م ، وفيه يمنح الفونسو هنريكيز لقب الملك ، وتوضع مملكة البرتغال الحرة من كل

= والأحدب وصف لالفونسو هنريكيز ، يطلق عليه منذ إصابته فى ساقه بعاهة مستديمة حسبما تقدم (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠) .

عهود الجزية تحت حماية الكرسي الرسولي ، وفى مقابل ذلك تدفع البرتغال وفقاً لما تعهد به الفونسو الأول من قبل ، إلى الكرسي الرسولي قطمتين من الذهب كل عام جزية رمزية . وقد كان هذا القرار البابوى ضماناً حقيقيا لاستقلال البرتغال عن الدول النصرانية المجاورة ، وذلك نظراً لما كان يتمتع به الكرسي الرسولي يومئذ من الهيبة والنفوذ فى اسبانيا ، وهذا القرار نفسه يعتبر دليلا على ضعف الملوك الاسبان فى هذا العهد ، وهو ضعف كان يستغله الكرسي الرسولي لتوطيد سلطانه ونفوذه . ولم تكن البابوية تجرأ على اتخاذ مثل هذا القرار من قبل ، وعلى الأقل فى عصر القيصر الفونسو ريموندىز ، وذلك خوفا من معارضة قشتالة الشديدة ، ولم يكن فى وسع القرارات البابوية أن تمحى دعاوى قشتاله على ولاياتها . ولكن قشتاله وليون كانتا عندئذ تمانيان من خلاف الأشراف وغطرستهم ، ولم يجرؤ يومئذ أحد أن يثير أى اعتراض على القرار البابوى .

وأن الفونسو هنريكيز ليستحق من جميع الوجوه أن يلقب بمؤسس المملكة البرتغالية ، فقد حقق سلطانه بالسيف ، وكانت تحاول انتزاعه منه أمه سيئة الأخلاق وزوج أمه الحاقد ، وافتتح معظم أراضى مملكته بالسيف من يد المسلمين ، وانتزع بالسيف أيضاً من قيصر قشتاله استقلاله ولقبه الملوكى ، وقد اتبع إلى جانب شجاعته وصفاته الحربية الممتازة ، سياسة ملؤها الذكاء والفطنة ، ووطد بذلك العمل الذى بدأه بالعنف توطيداً أبديا ؛ واستمال إلى جانبه رجال الدين وعلى رأسهم البابا — وهم يومئذ فى ذروة القوة والسلطان — بما بذله من العطايا السخية ، وما منحه من الامتيازات الخاصة ، وعرف كيف يذكى الحماسة الدينية فى نفوس الشعب البرتغالى ، وأن يغنم تأييده باصدار دستور يحقق الحرية والعدالة لكل الطبقات ، ويحيط وراثة العرش بضمانات تحول دون نشوب الحرب الأهلية ، ويوطد دعائم القومية البرتغالية . وشغل أشراف المملكة بأن دفعهم لمحاربة المسلمين على الحدود ، واستطاع بتأسيس جماعة فرسان يابرة الذين خصصوا حياتهم لمكافحة المسلمين ، أن يحول شغف الأشراف بالحرب — وهو شغف كان فى دول شبه

الجزيرة الأخرى يتفجر فى حروب داخلية مخربة — إلى وجهة قومية صالحة . وحكم الفونسو هنريكيز الذى لقب بالفاتح بحق ، على هذا المنوال البديع ، مملكة البرتغال ، ردحا طويلا من الزمن ، مرهوب الجانب من النصارى والمسلمين على السواء ، وتوفى بعد حكم طال نصف قرن ، فى السادس من ديسمبر سنة ١١٨٥م فى السادسة والسبعين من عمره .

وقد أشاد البرتغاليون دائما ولا سيما رجال الدين بذكرى هذا الملك المظيم ، وكان رهبان دير الكوبازه ، الذى يرجع فضل تأسيسه إليه ، يحتفلون حتى العصر الحديث بعيده برسوم خاصة ، احتفالهم بعيد قديس ، ولكن البابوية لم تصدر مع ذلك قرارها بتقديسه بالرغم مما بذله الملك يوحنا الثالث فى هذا السبيل .

ولم تمض بضعة أعوام على وفاة الفونسو هنريكيز ، حتى توفى خصمه فرديناند الثانى ملك ليون فى ٢٨ يناير سنة ١١٨٨ أثناء حجه إلى قبر القديس ياقب ، وذلك بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة . وقد اشتهر فرديناند بخلال الفروسية والشجاعة والجود والتقوى ، أكثر مما اشتهر بالفطنة وبعد النظر . وكانت هباته للكنائس والأديار لا حد لها ، حتى أنه وهبها جميع أملاكه تقريباً ؛ وكان يعامل جميع الناس بمنتهى التواضع والرقة ، ويحبه الشعب أكثر مما يرهبه كملك ؛ ولم يكن حكمه سوى معترك من المنازعات والمعارضات ، التى لم يوفق حتى الكتاب المعاصرون إلى استجلاء ظروفها ؛ ذلك أنه حينما يتصرف الأمير وفقا لعاطفة مؤقتة أو هوى طارئ ، ولا تقوم السياسة عنده على مبادئ ثابتة ، فانه يتعذر على المؤرخ أن يظفر بالبواعث الحقيقية التى أملت هذه التصرفات . أما حروبه ضد البرتغال ، فقد كان يرجو أن يظفر بالغنم فيها بالاستغلال والخديعة أكثر مما يرجو الظفر فى ميدان الحرب ، وسرعان ما نراه يتقرب إلى خصمه بعرض الصداقة والتحالف ، ثم يعود فيعمل على تمزيقهما متى زهد فيهما . كذلك لم تكن سياسته نحو قشتالة قائمة على مبادئ معينة ، فقد بدأ حامياً لآل كاسترو ، ولبث يدين لهم حيناً بسيادته على قشتالة ثم ترك سير الحوادث بعد ذلك ، حتى أخرج آل كاسترو من قشتاله ، وتركهم

للقَـدَر مدى حين ، حتى أن كبيرهم فرديناند روير لم يلجأ إلى مملـكة ليون ، بل لجأ إلى الموحدين ، ثم إن هذا الزعيم الفار لم يوجه أعداء دينه ضد قشتالة بادئ ذى بدء بل وجههم ضد الملك فرديناند حاميه السابق ؛ وأغار فى قوة من الموحدين على مدينة ردريجو التى لم يكمل بناؤها بعد ، وكاد يظفر بافتتاحها ، لو لم يبادر فرديناند حينما علم بالخطر المحدق بها إلى إنجادها و إنقاذها فيما يشبه المعجزة . وقد عاد فرديناند بالرغم من خصومة آل كاسترو لمملـكة ليون ، إلى استدعائهم إلى بلاطه ، وعهد إليهم بقيادة الجيش مرة أخرى . فلما أحرز على أيديهم فى قشتالة ظفراً يذكر على أسرة لارا ، انقلب غير بعيد إلى مصادقة آل لارا . ثم تزوج إحدى بناتهم ، وهى الدونا تيريزا ابنة فرديناند دى لارا ، وأرملة الـكونت نونيو دى لارا (سنة ١١٧٦ م) ومزق بذلك أواصر حلفه مع آل كاسترو . وفقد فرديناند من ذلك الحين هيبته فى قشتالة ، ثم انقلبت قشتالة بعد ذلك إلى محاربته غير مرة ؛ ولم تعقد الهدنة بين قشتاله وليون إلا فى سنة ١١٨٠ م ، بوساطة أراجون ، التى وثق فرديناند أواصر تحالفه بها منذ سنة ١١٦٢ م ، ولـكنه لم يلبث أن أهمل هذا التحالف ؛ ومن ذلك الحين ، تبدو مملـكة ليون ، إزاء الأعمال العظيمة التى قام بها الملك الفونسو النبيل فى قشتالة ، فى مؤخرة دول اسبانيا النصرانية . ويقص علينا التاريخ بعد ذلك من سيرة فرديناند ، أنه تزوج للمرة الثالثة ، بعد وفاة زوجه الملـكة تيريزا ، بالدونا أوراكا ابنة أمير بسكونيه الـكونت لوبوس . ثم توفى بعد أن أعقب منها ولدين هما سانشو وجارسيا . وخلفه فى الحـكم ولده الفونسو الثامن ، أو التاسع إذا احتسبنا الملك الفونسو الأول الأرجونى بين ملوك ليون ، وهو ولده وولى عهده الذى رزق به من زواجه الأول بالأميرة أوراكا البرتغالية ؛ ومع أن هذا الزواج قد ألغى لشدة القرابة بين الزوجين ، فان حق الفونسو فى ولاية العرش لم يستند إلا إلى كونه ولد أبيه البكر ، ولم يحصل الولدان اللذان أعقبا من الزواج الثالث على شىء ، حتى ولا على حكم بعض الولايات ، مع أنه كان من المتبع — فى مملـكة ليون — أن تقسم المملـكة إذا تعدد الأبناء .

الفصل الخامس

تاريخ اسبانيا النصرانية

فى عهد ألفونسو الثانى ملك أراجوان

حينما تولى الملك الفتى الفونسو الثالث — ولد سانشو الثالث — عرش قشتالة وهو فى الحادية عشرة بمعاونة آل لارا ، عقب انتزاع طليطلة فى سنة ١١٦٦ م ، لم يكن حكمه فى البداية سوى إقرار لتصرفات أتباعه وحكومتهم . بيد أنه لم تمض سوى أعوام قلائل ، حتى استطاع الملك الفتى أن يقبض على زمام الحكم بنفسه بقوة وعزم ؛ وحدث ذلك حينما أعلن نواب الأمة فى المجلس الذى عقد فى برغش سنة ١١٦٩ ، بلوغ الملك سن الرشد ، وذلك وفقاً لما نص عليه فى وصية أبيه من إعلان رشده حينما يبلغ الخامسة عشرة من عمره . واعتزم الفونسو ، أن يعمل لإصلاح شؤون مملكته المختلة بعض الشيء وأن يقيها خطر الغزو الدائم من جانب آل كاسترو وملك ليون والمسلمين ، فعقد السلم مع جاره من الشمال الشرقى ، سانشو ملك نافارا ، ومع الفونسو ملك أراجون ؛ واتفق على أن يكون التهادن مع نافارا بشأن ولاية ريوجا لمدة عشرة أعوام وهو اتفاق لم يحترم ؛ وحارب ملك قشتالة فى البداية ملك أراجون ، وهزمه على مقربة من قلعة رباح (سنة ١١٧٠) ، وحمله بذلك على عقد الصلح والتهادن وعاون فى عقد هذا التحالف بين الملكين ، هنرى الثانى ملك إنكلترا ، الذى تقرر أن تتزوج ابنته اليونور من ملك قشتالة ، وكان دائماً حليفاً مخلصاً لملك أراجون فى حروبه فى جنوبى فرنسا ؛ وتم زواج ملك قشتالة

بالأميرة الإنكليزية فى نفس العام ؛ واستقبل سربرون مطران طليطلة ، والكونت نونيو دى لارا أعظم أتباع الملك ، العروس فى ولاية جويان ، وصحباها إلى قشتالة عن طريق أراجون ، ولم يخترقا أراضى نافارا نظراً لعدم التثبت من ولائها وصداقتها ؛ وكان ملك قشتالة ينتظر عروسه فى ثغر طركونه ومعه حليفه ملك أراجون ، وتم زفاف العروسين فى حفلات باذخة نظمها ملك أراجون .

وسرعان ما أثار تقدم الوحدين فى جنوبى اسبانيا جل عناية ملك قشتالة ونشاطه . وكانت قشتالة أشد الدول تعرضاً لخطر الوحدين ، وإن لم تكن الدول النصرانية الأخرى — خلا نافارا — بمنجاة من هذا الخطر ؛ ومع ذلك فإنه تعذر على الملوك النصارى أن يضموا فيما بينهم خطة موحدة لمحاربة المسلمين ، وكان كل منهم بالعكس يرمق نجاح الآخر بعين الريب والحسد ؛ ولم يغيروا من مسلكهم ، حينما طلب إليهم الأمير ابن سعد بن مردنيش (وتسميه الرواية الاسبانية « ابن لوبى » Abenlope) ، الذى استقل بحكم بلنسية ومرسية عن الوحدين ، وغدا منذ سنة ١١٦٧ م تابعاً لملك قشتالة — عونهم المشترك . ولما لم يظفر هذا الأمير منهم بالمعاونة المنظمة القوية ، اضطر أن يخضع أمام تفوق أعدائه (سنة ١١٧٢ م)[١] وبذا انهار هذا الحاجز الأخير الذى كان بوسع النصارى أن يصمدوا فيه أمام الوحدين من هذه الناحية ، وأصبح العدو القوى ، بعد استيلائه على ولايتى بلنسية ومرسية ، يثخن هنا وهنالك فى أراضى الدول النصرانية ويزعجها بغزواته المخربة ، ويرغمها على القيام باستمدادات حربية عظيمة ؛ وبينما كان ملك ليون يحاول ، فى جنوب غربى الجزيرة ، أن يحول دون فتوح ملك البرتغال فى أراضى المسلمين ،

---

(١) كان محمد بن أحمد بن سعد بن مردنيش أعظم الزعماء الثائرين الذين ظهروا بالأندلس عقب انهيار سيادة المرابطين ؛ وقد استولى أولا على مرسية منذ سنة ٥٤٢ هـ ، ثم اتسع ملكه تباعا حتى شمل شرق الأندلس كله ؛ واستعان بالنصارى فى محاربة الموحدين مراراً ؛ (راجع الجزء الأول ص ٢٣٣ و ٢٤٠) ؛ واستمر فى نضاله ضد الموحدين ، حتى غلبته بعوثهم وجيوشهم المتوالية ، وحاصرته فى مرسية سنة ٥٦٧ هـ ، ثم توفى أثناء الحصار فى العام التالى (سنة ٥٦٨ هـ — ١١٧٣ م) ، (راجع فى سيرته وتفاصيل ثورته وحروبه ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦ و ج ٦ ص ٢٤٠ و ٢٤١ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٠ — ٢٣٢) .

وتفت الغيرة وسوء الظن فى قواتهما ، كانت الدول النصرانيـة الثلاث فى شمال شرق الجزيرة ، أعنى قشتالة وأراجون وناڤارا ، تتنازع فيما بينها على حقوق الفتح فى أراضى المسلمين ، وتفاقم النزاع ، حتى كادت تغدو هى فريسة المسلمين . وسرعان ما عقدت أواصر التحالف بين هذه الدول ، كما انفصمت من قبل ؛ وكانت المصالح المشتركة تحمل أراجون وقشتالة ، بالرغم مما كان ينشب بينهما من الخلاف فى أحيان كثيرة ، على توثيق حلفهما ، ولو لم تكن مملكة أراجون مفككة مترامية الأطراف على هذا النحو ، لما بلغ ملك فى شبه الجزيرة مبلغ ملك أراجون من القوة والسلطان ؛ كذلك لم تكن أراجون أقل معاناة من قشتالة من جراء غطرسة الأمراء التابعين الذين يسيطرون على الجيش . أجـل لم يكن الفونسو الثانى ملك أراجون عاطلا من صفات الملك العظيم ، فقد كان يتمتع بقسط وافر من الكفاية والشجاعة وحب العدل ، وقد دلل منذ حداثته على أهليته لتولى العرش ؛ وولى الحـكم فى سنة ١١٦٢ م ، وهو فى الحادية عشرة من عمره ، تحت وصاية أمه بترونيلا ، واتخذت فى ذلك الحين ، فى مجلس سرقسطة النيابى ، قرارات هامة للمحافظة على سلام البلاد ، والحد بقدر المستطاع من عسف الأشراف وعنتهم ، ورؤى لتوطيد دعائم السلم مع الدول المجاورة ، أن يُعاقب الذين يعملون لتعكير السلم معاقبة المعتدين على العرش .

ولما بلغ الفونسو الثانى الخامسة عشرة من عمره ، وانتظم فى سلك الفروسية وأعلن رشده ، لم يلبث أن اجتذب إلى ميدان الحرب ، واستغرقت المحافظة على أملاك أراجون الواقعة فى جنوبى فرنسا ، كل جهوده وقواه ؛ ذلك أن الأمراء التابعين ، وجيرانهم من الزعماء الطامعين ، كانوا يثيرون ضرام الحرب فى هـذه الأنحاء بلا انقطاع ؛ وفى سنة ١١٦٦ م ، قتل الكونت برنجار أمير بروڤانس وعم الفونسو الثانى فى حصار « نيزا » ، فبادر الكونت ريموند دى تولوز ، الذى كان ابنه متزوجا بابنة برنجار الوحيدة ، باحتلال الولاية ، وتزوج من الكونتة ريشيلدا أرملة الأمير القتيل ، لكى يوطد حقوقه فى امتلاكها . ولكن ملك أراجون ،

الذى أعلن أبوه أميراً لبروڤانس فى نفس الوقت مع الكونت برنجار ، على يد القيصر فردريك برباروسا (ذو اللحية الحمراء) ، كان يدعى على الولاية حقوقا أمتن وأوثق ، ولذا بادر إلى تأييد حقوقه بالسيف ؛ وحارب أشراف الولاية والجنويون فى هذه المعركة إلى جانب ملك أراجون ، حتى ظفر بالنصر على خصمه الكونت دى تولوز ، خصوصاً وقد كان الكونت يشغل فى الوقت نفسه بمحاربة هنرى الثانى ملك إنكلترا ؛ ولما كان حكم بروڤانس أمراً صعباً نظراً لبعدها عن أراجون وكانت أحوالها المضطربة تستدعى أن يقوم على إدارتها حاكم مقيم ، فقد رأى ملك أراجون أن يعقد مع أخيه الأصغر بيدرو اتفاقا بتبادل الأراضى ، وأعطاه ولاية بروڤانس ليحكمها بعهد الجزية من قبل العرش الأرجونى ، نظير استيلائه على ولاية شرطانية ، وقرقشونة وجزء من أربونه (سنة ١١٦٨ م) . وتوطد سلطان الأمير الجديد فى الولاية ، باتفاق عقد فيما بعد ، فى سنة ١١٧٦ م ، مع الكونت دى تولوز ، والتزمت مدينة نيزا مع ذلك أن تدفع تعويضاً ماليا كبيراً إلى ملك أراجون نظير مقتل الكونت برنجار .

أما فى اسبانيا ، فكان ملك أراجون يسير من حرب إلى حرب ، ولم تكن العلائق بين أراجون وقشتالة طيبة فى البداية . ومع ذلك فقد رأى الفونسو الثانى أن صالحه يقضى بعقد السلم مع قشتالة والتحالف معها ، وذلك لكى يستطيع محاربة المسلمين والناڤاريين بنجاح وظفر ؛ ثم قام بعدة غزوات مخربة فى أراضى بلنسية ، وأرغم عدة من صغار الأمراء المسلمين على دفع الجزية ، وحصن مدينة ترويل ، ليتخذ منها فيما بعد قاعدة للغزو فى تلك الأنحاء .

وأثارت هذه الانتصارات غيرة سانشو السادس ملك ناڤارا ؛ فما كاد ملك أراجون يسير إلى محاربة المسلمين ، حتى انقض سانشو بقواته على أراجون ، واضطر الفونسو الثانى أن يرتد إلى محاربته وأن يترك غزواته فى الجنوب ؛ ورأى الفونسو أن يستعين بقشتالة على محاربة خصمه فوثق أواصر حلفه معها ، وتزوج من أخت الفونسو النبيل ملكها ، الأميرة سانشا فى سنة ١١٧٤ م ، وذلك بالرغم

من أن عروسه الأولى الأميرة يودشيا ابنة قيصر قسطنطينية ، كانت فى طريقها يومئـذ إلى اسبانيا . وهكذا خاضت قشتالة وأراجون الحرب معاً ضد نافارا مدى أعوام ، ومع ذلك فانهما لم تحققا من ورائها سوى نتائج يسيرة ، إذ كان من الصعب القيام بفتوح ثابتة فى أرض تغص بالجبال والقلاع المنيعة ، ولذا رحبتا بما عرضه هنرى الثانى ملك إنكلترا من التوسط بعقد الصلح بين الفريقين . ومع أنهما لم تغتبطا بنتائج هذا المسعى ، فانه أسفر مع ذلك عن وقف الحرب بين الدول الثلاث .

وتبدو أهمية هذا التحالف بين قشتالة وأراجون بالنسبة لملك قشتالة متى استعرضنا حال مملكته فى ذلك الحين . فقد كان ملك قشتالة فى حاجة دائمة إلى المال ؛ وحينما طالب الملك الأشراف فى مجلس برغش بمبالغ طائلة اعترض بيدرو دى لارا على هذه المطالب الفادحة بشدة ، بحجة أنها تناقض حقوق الأشراف وانسحب من الاجتماع مع معظم أشراف قشتالة . ولم تكن السكينة قد سادت بعد أرجاء المملكة ، فقد كان القتال مستمرا بين آل لارا وآل كاسترو ، وكان فرديناند ملك ليون يعمل على إذكاء الاضطراب بكل الوسائل الممكنة ، وكان سانشو ملك نافارا يتحفز دائمـا للزحف على برغش لانتزاع ولاية ريوجا ، وكان المسلمون يهددون كل آن بأن يجتاحوا المملكة كلها بجيوش ساحقة ، وكانت استرامادوره ، وهى ولاية قشتالة ، كلها فى قبضة ملك ليون ؛ وكان ملك البرتغال خارجا على سلطان قشتالة ؛ فلم يبق إلى جانب قشتالة إزاء هذه الجمهرة من أعدائها وخصومها سوى أراجون ؛ واضطرت قشتالة أن تشترى صداقة حليفتها بثمن يدنو إلى التضحية ؛ فقد دفع الفونسو النبيل ثمن معاونة أراجون فى حملته ضد الموحدين ، تنازله عن حق الجزية على سرقسطة وغيرها من الأراضى التى منحها إياها القيصر الفونسو ؛ وأسفرت هذه الحملة المشتركة عن افتتاح قونقه (أوكونكه) فى سنة ١١٧٧ م — ٥٧٢ ﻫ وهزم الموحدون بعـد أن تقدموا حتى ظاهر طليطلة هزيمة فادحة بيد أن ملك قشتالة لم يستطع أن يجتنى ثمرات ظفره إذ دبت الغيرة إلى ملك أراجون ، وغدا

يخشى أن تصبح قشتالة من القوة بحيث تنتهى بافتتاح أراضى بلنسية ومرسية ، وهى أراض كان ملك أراجون يرى أنها تدخل فى منطقة الفتح الخاصة بمملكته . ومن جهة أخرى فقد أخذ فرديناند ملك ليون يتحرك من جديد ، ولم يكتف بغزو أراضى قشتالة وانتزاع بعض الأماكن منها ، بل أخذ يستعد لاستئناف الحرب معها ؛ وترتب على ذلك أن تحالفت قشتالة وأراجون والبرتغال على محاربة ليون ونافارا (سنة ١١٧٨ م) ، ولكن ملك أراجون اضطر أن يسير إلى جنوبى فرنسا لكى يوطد وسائل المحافظة على أملاكه الفرنسية ومنها ولاية روسيون ، ومدينة نربيه وما إليها من الأراضى التى آلت إليه بالميراث ، ولم يجد النصارى إزاء غارات الموحدين المستمرة بدا من المضى فى مراقبتهم والتأهب لردهم ، وهكذا تطور الموقف بين الدول النصرانية ، وعملت أراجون ، وربما أيضاً هنرى الثانى ملك إنكلترا ، على إزالة الجفاء فيما بينها ، وأسفرت الوساطة عن عقد الصلح مرة أخرى بين قشتالة وليون ، وذلك فى مدينة توردسيلاس فى سنة ١١٨٠ م وسوى النزاع القديم بين أسرتى لارا وكاسترو ، وكذلك أزيلت أسباب سوء التفاهم بين قشتالة وأراجون وعقدت بينهما فى كازولا (سنة ١١٧٩ م) معاهدة نص فيها على أن شاطبة وبلنسية ومرسية وما إليها من الأراضى ، تقع فى منطقة الفتح الخاصة بأراجون ، وأن الأراضى الواقعة غرب ذلك ومنها غرناطة تقع فى منطقة الفتح الخاصة بقشتالة .

وليس فى تاريخ الممالك النصرانية الاسبانية فى عشرة الأعوام التالية ما يستحق التفصيل والإفاضة ؛ وقد رأينا ، لكى لا نرهق القارىء بسرد حوادث وظروف متماثلة ، أن نقتصر على وصف حالة اسبانيا بصفة عامة متخذين قشتالة دائماً محور الحوادث والتطورات..

أفضت المعارك والمنازعات المستمرة بين ملوك اسبانيا إلى أن اجتاحت اسبانيا النصرانية موجة هائلة من القسوة والتوحش ، ووصل حكم العنف وعدوان الأقوياء فى شبه الجزيرة إلى ذروة الاضطرام ؛ واندفع الأشراف والفرسان جميعاً إلى خوض الحرب ، يكافح بعضهم بعضاً فى معارك ومبارزات لا نهاية لها ، ومزقت الأهواء

الحزبية كل الأسر وروابط القربى ، وساد القتل والمطاردة ، حيث ضعفت السلطة العامة . وهكذا لاح أن نظم الدولة والحكومة قد غدت على وشك الانهيار ، وحتى الكنائس ورجال الدين ، بعد أن كان الدين يسبغ عليهم لونا من القدس ، لم تبق لهم حرمة ، ووطئت بالأقدام كل الوصاية البشرية والسماوية ، واضطرت جماعات الفرسان الدينية التي قامت لتكافح من أجل الدين ، أن تبذل فى قمع أعمال العنف التى يقوم بها الناهبون من الفرسان النصارى ، مثل الجهد الذى تبذل فى محاربة المسلمين ؛ ومع أن الأمير الشجاع الفونسو الثانى ملك أراجون ، استطاع أن يدافع عن مملكته ضد جميع أعدائها الخارجين ، وأن يضم إليها ولاية بروڤانس عقب وفاة أخيه بيدرو الذى قتل فى سنة ١١٨١ ، وذلك بالرغم من معارضة الكونت دى تولوز ، فانه لم يستطع مع ما اتخذ من الإجراءات الحازمة ضد آثام الأشراف وضد مزاولة حق القوة ، أن يحول دون وقوع أفظع الشناعات فى بلاده ؛ ففى عهده مثلا وقعت حادثتا قتل فى طركونة قتل فى كل منهما مطران . وتفصيل ذلك أنه فى بداية حكمه حدث نزاع بين المطران هوجودى سرڤيلوس ، وبين حاكم طركونة روبير بورديه ، وقام جيوم ولد الحاكم بتخريب جميع الأراضى الواقعة حول طركونة . ولما أراد الملك أن يعاقب المعتدين بشدة ، قتل المطران بتحريض روبير ، فأمر الملك باخراج روبير وأسرته من المملكة ؛ ففر إلى ميورقة ولجأ إلى حماية المسلمين ؛ فخشى الملك أن يغدو المجرم الفار على هذا النحو خطراً على قطلونية ، فسمح بعوده وأسرته إلى المملكة بالرغم من جريمته ؛ وكان لهذا التهاون أثره السيء ، فانه لم يمض سوى قليل ، حتى ارتكبت فى طركونة ذاتها نفس الجريمة على يد جيوم رعوندز دى مونكادا ، الذى اشتهر من قبل بمعارضته للملك ومنازعته له فى حقوق الملك ، فقد اغتال هذا الرجل الذى ينتمى إلى أكبر أسر قطلونية ، بنفسه ، حياة برنجار مطران طركونة ، وذلك فى سنة ١١٩٤ م ، ولم تعن الرواية بأن تقدم إلينا حتى سبب هذه الجريمة .

ولم يقتصر الأمر على أن كانت أسرتا لارا وكاسترو تنتهزان فى قشتالة فرص

المنازعات والحروب التى تضطرم بين ملوك اسبانيا النصرانية ، لتفوز كل منهما بسلطة الحكم ، بل كان مثل ذلك يحدث فى الممالك النصرانية الأخرى ؛ ففى أراجون كان بطل هذه الحركة بيدرو روز دى أزاجرا ، وهو نافارى استقر فى الأراضى الأرجونية ، وكان مثل البطل القديم ، السيد الكنبيطور ، فارساً شجاعا وقائداً عظيما ، يحارب طوراً إلى جانب المسلمين ، وطوراً إلى جانب النصارى ، ويبيع معاونته أحيانا إلى ملك أراجون ، وأحياناً إلى ملك قشتالة ، وآونة إلى ملك نافارا ، ويستغل منازعاتهم ، لتوطيد سلطانه ، واستقلاله عنهم جميعا ؛ وقد استطاع بمحالفة أمير بلنسية أن يستولى على مدينة شَنْتَمَرية الشرق (شنتمرية ابن رزين) (١) ، وهى موضع أسبغت عليه الطبيعة والفن حصانة خارقة ، واستطاع باعادة مركز الأسقفية القديم فى سيجوربجا ، بتعضيد البابا إسكندر الثالث ويوحنا مطران طليطلة أن يغنم عطف رجال الدين والأتقياء . ولما أدرك ملكا قشتالة وأراجون ما تنطوى عليه محاولته وخديعته ، وشهرا عليه الحرب ، ألفى بيدرو دى أزاجرا ، فى تحاسد الملكين خير حليف ، إذ كان كلاهما يؤثر أن يرى بيدرو ، وهو زعيم محلى ، على أن يرى زميله ، مالكا لهذه القلعة الهامة الواقعة فى شعب الجبال عند الحدود ؛ وهكذا استطاع بيدرو حتى وفاته أن يحتفظ بسيادته على شنتمرية الشرق ، بل لقد توارثها عقبه مدى حين .

وكأنه لم يكف اسبانيا النصرانية ما كانت تعانى من عوامل الاضطراب والتفرق ، فكان مما أذكى الفتنة إلى الذروة أن اختلف الملوك الأسبان مع الكرسى الرسولى ، وأدت منازعاتهم معه إلى أن تحرم البلاد حتى من عزاء الدين .

وقد كان الفونسو هنريكيز ملك البرتغال وفرديناند ملك ليون يجلان الكنيسة ورجال الدين أيما إجلال ، ولكن ولديهما وخلفيهما ، الملك سانشو الأول الذى

(١) هى حسبما تقدم فى حواشى الجزء الأول مدينة Albarracin الحديثة وهو تحريف لاسم بنى رزين حكامها المسلمين أيام الطوائف . وتنوه الرواية الإسلامية بما كانت عليه كنيستها الشهيرة من الفخامة وما كانت تحتويه من نفائس التحف (راجع معجم ياقوت تحت كلمة شنت مرية)

تولى عرش البرتغال فى سنة ١١٨٥ م ، والملك الفونسو التاسع الذى تولى عرش ليون فى سنة ١١٨٨ م ، لم يشاطرا الوالدين هذه العاطفة ، وقد لاح فى بداية عهد الملكين ، أن الخصومة القديمة بين ليون والبرتغال من ناحية ، وبينها وبين قشتالة من ناحية أخرى ، قد خمدت جذوتها ، والتقى ملك ليون الفتى فى مدينة كاريون فى سنة ١١٨٨ ، بالفونسو النبيل ملك قشتالة ، وتلقى منه عهد الفروسة ، ولكنه حينما قبل يد ملك قشتالة إعرابا عن المحبة والعرفان ، عد ذلك منه رمز الخضوع والطاعة . ولم تقع النفرة بين الملكين بسرعة ، ولكنهما بالعكس قاما فى العام التالى بحملة مشتركة لمحاربة المسلمين فى أراضى إشبيلية ، بيد أنه ما كادت هذه الحملة تنتهى حتى دب النزاع بينهما من أجل الأراضى المفتوحة ؛ فملك قشتالة يدعيها لنفسه باعتباره صاحب السيادة ، ويدعيها ملك ليون باعتبارها جزءاً من ولايته استرامادوره . ولما رأى ملك ليون الفتى أنه محصور بين جارين قويين يهددانه بالحرب دائما بالرغم مما يربطه بهما من أواصر القربى ، اضطر لكى يستطيع مدافعة ملك قشتالة الذى غزا أرضه بالفعل ، أن يعقد مع الملك الآخر حلفاً وثيقاً ؛ ومع أنه كانت تجمعه بابنة سانشو ملك البرتغال : الدونا تيريزا ، رابطة قرابة مباشرة — (إذ كانت أمه خالة الأميرة) — تعتبرها الكنيسة مانعاً من الزواج ، فإنه اقترن بها (سنة ١١٨٩ م) ، إذ رأى فى هذا الزواج وسيلة لتوطيد عرش ليون .

وما كاد البابا كلنضوس الثالث يقف على هذا الزواج ، حتى أرسل إلى اسبانيا مندوبا نادى بإلغائه ؛ ولكن سانشو ملك البرتغال ، الذى لم يكن يبدى فى مملكته كبير حساب للكنيسة ورجال الدين ، لم يعبأ بأمر البابا ؛ وكذلك لم يعبأ به صهره ملك ليون ، إذ كانا يريان فى هذا الزواج عاملا فى توثيق الاتحاد بين مملكتيهما ، ويريان أن ما علكه البابا من حق التشريع بالنسبة لطوائف الشعب ، لا يسرى على الرؤوس المتوجة .

وفى تلك الأثناء اعتلى سلستان الثالث كرسى البابوية ، وأصر على وجهة نظر سلفه ، وتحدث مندوبه فى المجتمع الكنسى الذى عقد فى شلمنقة فى سنة ١١٩٢م

لبحث الموضوع طالبا إلغاء الزواج فى الحال ، ولـكن أساقفة ليون واسترقة وشلمنقة وسمورة عارضوه وصرحوا بأن الزواج صحيح لم تخرق بعقده أية نصوص سماوية أو كنسية ، وأن مايعتبر من الموانع بالنسبة للقوانين الشعبية أو نظام الدولة لايطبق على الملوك ؛ إذ أنه فى وسعهم إلغاء ماشرعوا ، وفى وسع الملوك أن يقروا عقد زواج شعبى أو يلغوه ، ولـكن ذلك لايمكن أن يطبق عليهم بواسطة سلطة أسمى إذ أن ذلك يتعارض مع سيادتهم المستقلة . ولـكن المندوب البابوى أصر على رأيه وقرر « حرمان » الأساقفة المخالفين ، وهدد الملكين « بالحرمان » أيضاً إذا استمرا على معارضتهما للقرار البابوى . فلما أبى الملكان الخضوع صدر فى العام التالى (١١٩٣ م) قرار بابوى يحرم كل المراسيم والطقوس الدينية فى مملـكتى البرتغال وليون . فعندئذ بلغ الاضطراب والمنف فى المملكتين الذروة ، ولا سيما بعد أن بث فيهما حكم القوة ومحاربة المسلمين روح النضال والجرءة ، ولم يكن يحول دون انحلالها النهائى سوى الدين وأعوانه ؛ ولما لم يذعن الملكان ، واشتد هياج الشعب لحرمانه من الطقوس الدينية ، وأبدى رجال الدين امتعاضهم من القرار البابوى ، عاد البابا وأذن نزولا على ضراعة أسقف سمورة الذى زاره فى رومة برفع قرار الحرمان الدينى من المملكتين ، على أن يبقى البطلان ساريا على كل حفل دينى يقام بحضرة ملك ليون أو ملكتها ، وأخيراً بعد نضال دام بضعة أعوام نزل الزوجان الملكيان على إرادة البابا ، وقررا الانفصال بعد أن أعقبا من الزواج ثلاثة أولاد ؛ وهكذا انتصر الـكرسى الرسولى ، وليس بعيداً أن يكون خطر الموحدين الداهم من بواعث هذا الخضوع لإرادة البابا . ذلك أن الشعب كان يرى فى انتصار المسلمين على النصارى عقابا من الله من جراء زلات ملوكه ، وكان معظم رجال الدين يروجون هذه الفكرة ، ولم يكن من الميسور ضمان خضوع الشعب إلا بإذعان ملوكه للـكرسى الرسولى.

ولم يكن لملك قشتالة يومئذ عقب من الذكور ، ولـكن كانت له عدة بنات أكبرهن برنجاريا ؛ وكان لابد من اعتبارها وارثة العرش وفقا لقانون الوراثة

القشتالى حتى يرزق الملك بولى للعهد ؛ وكان الفونسو يعتقد أنه يستطيع بمصاهرة آل هوهنشتاوفن قياصرة ألمانيا أن يسبغ على مملكته قوة جديدة ؛ وكان سيد ألمانيا يومئذ القيصر فريدريك بارباروسا (ذو اللحية الحمراء) يميل إلى هذا المشروع، مؤملا أن يغنم بتحقيقه عرش قشتالة لولده الأصغر كونراد ؛ وعلى ذلك فقد عقد الزواج، وجاء ولد القيصر إلى اسبانيا فى سنة ١١٨٨ وتلقى من ملك قشتالة عهد الفروسة فى كاريون، وأقيم الحفل الدينى بقرانه بولية العهد فى طليطلة فى حفلات باذخة، ولم يتم الزواج يومئذ نظراً لحداثة ولية العهد. بيد أنه لما رزق ملك قشتالة بعد ذلك بولده وولى عهده فرديناند، وقضى بذلك على آمال كونراد فى ولاية العرش ألغى الزواج ؛ وتزوجت برنجاريا فيما بعد بالفونسو التاسع ملك ليون.

وفى تلك الأثناء كانت الحرب تهدد بالاضطرام من آن لآخر بين الملوك الثلاثة الذين تلتقى أملاكهم عند منابع نهر دويرة، ولكن النار كانت تطفأ فى كل مرة بسرعة قبل أن يمتد لهيبها بصورة مخربة ؛ ولم تك ثمة سياسة مقررة، ولكن المحالفات كانت تعقد وتفصم وفقا للأهواء والظروف ؛ فقد عمد الفونسو الثانى ملك أراجون مثلا بالرغم مما اتصف به من الحزم وحسن التقدير لظروف عصره إلى مصادقة ألد أعدائه سانشو السادس ملك نافارا، وعقد معه فى سنة ١١٩٠ م حلفا ضد ملك قشتالة أخلص حلفائه، ولم يفد من ذلك سوى صاحب شنتمرية الشرق (البراسين)، ولا توضح الرواية لنا بواعث هذا الحلف المدهش الذى مالبث أن غدا بانضمام ملكى ليون والبرتغال إليه فى العام التالى خطراً حقيقيا على قشتالة. بيد أن هذا الحلف بالرغم من خطره الظاهر لم يحدث أثراً يذكر. ذلك أن الخلاف والتحاسد حالا دون نجاحه، ومالبث أن انتهى بالحل، وأثار انفصامه بين الحلفاء منازعات جديدة. هذا إلى أن أراجون رأس التحالف لم يكن بوسعها يومئذ أن تشدد الضغط على قشتالة نظراً لأن تحرك الكونت دى تولوز، وغزوات الموحدين على حدودها الجنوبية كانت تستغرق كل اهتمامها.

فهل نعجب بعد ذلك إذا كان الفونسو ملك قشتالة قد هزم حينما لقى وحده

قوى الموحدين الغالبة فى ميدان الحرب فى موقعة الأرك[1] الدموية فى سنة ١١٩٥م (٥٩١ هـ) . وقد خاضها دون أن يعاونه أحد من باقى الملوك النصارى ؛ بل كان منهم من يعاون الموحدين جهراً مثل ملك نافارا ، ومن يعاونهم سرا مثل ملك ليون ، وكلاهما كان يتظاهر بصداقته ويعده بالعون .

وأخيراً اضطر ملك قشتالة لكى يستطيع الاحتفاظ بملكه أن يرتمى فى أحضان الموحدين ، وأن يتبع سياسة المصلحة الشخصية التى سار عليها باقى ملوك اسبانيا النصرانية . وهنا فقط أدرك البابا سلستان الثالث ، والفونسو الثانى ملك أراجون فداحة الخطر الذى يهدد النصرانية فى شبه الجزيرة ، وحاول ملك أراجون بكل ماوسع من غيرة وعزم أن يعمل على اجتماع القوى النصرانية ، فسافر إلى شنت ياقب وتفاوض مع ملك ليون ، ثم سار إلى قُلُمرية حيث التقى بسانشو ملك البرتغال ؛ واجتمع مع ملك قشتالة وملك نافارا فى مدينة ترازونا الواقعة على حدود مملكتيهما ؛ ولكن جهوده ذهبت عبثا ولم يوفق إلى تهدئة الخصومات المضطرمة ، ولاسيما بين ملكى ليون وقشتالة بالرغم مما كان يجمعهما من أواصر القربى .

فعاد الفونسو الثانى إلى مملكته وهو يفيض أسفا لفشل مسعاه ، واستدعى مجلساً فى ربنيان يمثل الطبقات فى لانجدوك وبروفانس ، وهناك أصابه المرض وتوفى فى ٢٥ أبريل سنة ١١٩٦ فى الرابعة والخمسين من عمره بعد أن حكم أربعة وثلاثين عاما . وقد اشتهر الفونسو بفروسته وحزمه وحبه للعدالة ، واعتمد بالأخص على جهود الداوية (فرسان المعبد) ، وفرسان القديس يوحنا فى حماية الحدود من غزوات المسلمين ، وعمل باتخاذ الإجراءات الصارمة على تأييد السكينة والنظام ، وقد كان يهددها يومئذ حكم القوة بلا انقطاع ؛ وكان يضع المسافرين الذين يجوبون البلاد تحت رعايته الملكية لحمايتهم من كل اعتداء ، وعمل على تعضيد الزراعة وتحسين مستوى العيش فى المملكة باتخاذ الإجراءات الحكيمة وتوفير أسباب العيش للفلاحين وأبناء الطبقة الوسطى ، وأبدى نحو الكنائس والأديار

---

(١) هى المعروفة فى الرواية النصرانية بمعركة « الأركوس » Alarcos .

منتهى الجود ، وكان قوى النفس والخلق يسبغ على العرش بجلاله وهيبته روعة ووقاراً ؛ وقد نعى عليه بعض خصومه نكثه وإخلاله بالعهد ، ولكن هذا الاتهام يرجع إلى الحفيظة أكثر مما يرجع إلى الواقع ، ولم يقصد به إلا النيل من سمعته وهو بذلك غير جدير بثقة المؤرخ .

وكان ألفونسو الثانى مثل أبيه ريموند برنجار الرابع نصيراً عظيما للشعر وأرباب القريض الغنائى (طائفة التروبادور[١]) ؛ وكانت أملاكه فى جنوبى فرنسا مهداً لازدهار الشعر البروفنسالى (نسبة إلى بروفانس) ؛ وكان يتنافس مع صديقه رتشارد « قلب الأسد » ملك إنكلترا فى خلال الفروسية وفى بذخ الحفلات الملوكية التى لم تكن تخلو من المغنين قط ، وكان يجمع حوله أشهر أقطاب الشعر الغنائى فى هذا العصر مثل بيير ريموند دى تولوز ، وهوجو برونيه ، وبيير فيدال وغيرهم .

وكان معظم أولئك الشعراء (التروبادوريين) يتمتعون بعطف هذا الملك الرفيع الخلال وجوده ، ويكثرون من الإشادة بذكره فى قصائدهم وأناشيدهم ، ولم يهجه منهم سوى برتران دى بورن الذى سماه دانتى « مغنى الحرب » ، والذى لم يسلم من هجائه أحد من الأكابر ؛ فقد غمر هذا الشاعر ملك أراجون فى قصائده بمطاعنه ورماه بكل نقيصة ، لأنه تشاجر معه ذات مرة فى بعض حروبه فى جنوبى فرنسا ، ولكن هذه المطاعن لم تنل من سمعة الملك الفارس المجيد .

ولم يكن ألفونسو صديقاً ونصيراً فقط للشعراء المنشدين ، ولكنه كان مثل

---

(١) التروبادور Troubadours ، أو باللغة البروفنسالية Trobador هم طائفة من شعراء العصور الوسطى ظهروا فى ولاية بروفانس فى جنوبى فرنسا منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، واشتهروا بنظم الشعر الغنائى وشعر الفروسية ، ثم انتشروا فى باقى إمارات فرنسا الجنوبية مثل أكوتين ولانجدوك وكذلك ظهروا فى قطلونية وأراجون وشمالى إيطاليا ، وملأوا هذه الأنحاء زهاء قرنين بقصائدهم وأناشيدهم ؛ وكان أشهرهم طائفة من الفرسان برعت فى الشعر والموسيقى ؛ وكانوا يتنقلون من بلاط إلى بلاط ومن قصر إلى قصر ؛ ويتبوأون مقاما ذا شأن فى المجتمع الرفيع فى ذلك العصر ؛ وشعرهم يمتاز بالرقة والظرف وحب الملق ، ومصادر إلهامه الحرب والدين والحب . ويرى بعض النقدة أن طائفة « التروبادور » قد تأثرت فى وحيها وفى طرائق نظمها بالشعر الغنائى الأندلسى وقريض الفروسية الأندلسية .

رتشارد « قلب الأسد » ملك إنكلترا شاعراً غنائيا (تروبادور) ، وقد ضاعت جميع قصائده الغنائية ولم يصلنا منها سوى قصيدة واحدة ، وهى تمتاز بالأخص بجمال أسلوبها وظرف معانيها .

وأورث ألفونسو ابنه الأكبر حب الشعر ، كما أورثه مملكته ؛ وكان قد اختاره فى وصيته خلفا له على عرش أراجون وأملاكه فى جنوبى فرنسا ماعدا ولاية بروفانس وأراضى كافيدون وميلهو ، ودعوى الولاية على مونبلييه ؛ فقد أعطيت إلى ولده الثانى ألفونسو . أما ولده الثالث فرناندو فقد التحق بالرهبانية فى إحدى الأديار .

وتوفى قبل ألفونسو بعامين (سنة ١١٩٤) خصيمه الألد وحليفه أحيانا فى أواخر عهده الملك سانشو السادس الملقب بالقوى ، بعد أن حكم نافارا أربعة وأربعين عاما ؛ ومع أنه كان يهدد بالحرب أحيانا من قشتالة وأراجون متحدتين ، وأحيانا من هذه المملكة أو تلك ، فقد استطاع أن يمتنع فى مملكته الصغيرة المحاطة بجيران أقوياء ، وأن يرد كل الهجمات التى وجهت إليه ، وأن يغزو أراضى العدو بنجاح كلما لاحت له فرصة حسنة ؛ وأنه لمن الشائق بلا ريب أن نعرف الوسائل والطرق التى كان الملك سانشو يلجأ إليها لحماية استقلاله ؛ بيد أننا لم نتلق عن نافارا فى ذلك العصر تاريخا مفصلا ولو بعض التفصيل ، ولذا فإنه ليس لدينا ما نقوله عن حكمه سوى ما قدمنا من سيرته ؛ واتخذ ولده وخلفه سانشو السابع الملقب «بالحكيم» حكم أبيه قدوة له ؛ بيد أنه كان يعانى مثل ماعانى أبوه من الصعاب والخطوب .

الفصل السادس

تاريخ الموحدين فى الأندلس منذ افتتاح غرناطة

حتى وفاة يعقوب المنصور الظافر فى معركة الأرك

١ — تنظيم حكم الموحدين فى عهد عبد المؤمن

سبق أن فصلنا فيما تقدم كيف انهارت دولة المرابطين فى المغرب والأندلس على يد عبد المؤمن زعيم الموحدين ، وكيف استطاع عبد المؤمن أن يوطد عرشه بالمغرب بسحق الخارجين عليه ، وأن يفتتح الأندلس كلها من يد خصومه المسلمين والنصارى . ولما كان عبد المؤمن ، قد استطاع بظفره على آل حماد فى المغرب الأوسط[1] ، وعلى الفرنج النورمانيين الذين كانوا قد افتتحوا شاطئ إفريقية الشمالى ، واستولوا على تونس والمهدية ، أن يدفع حدود دولته من الشرق إلى ما وراء القيروان ، فقد غدا بذلك متاخماً للفاطميين أصحاب مصر[2] ، وغدت دولة الموحدين بذلك أعظم مدى مما كانت عليه دولة المرابطين ؛ وكانت تحد عندئذ من الجنوب

(١) دولة آل حماد ، هى فرع من دولة آل زيرى بن مناد الصنهاجى ، وتنسب إلى مؤسسها الأمير حماد الصنهاجى ، وقد قامت بالزاب والمغرب الأوسط فى أواخر المائة الرابعة ، وخرج صاحبها عن دعوة العبيديين أصحاب مصر ، واستمر الملك فى أسرته زهاء قرن ونصف . وفى سنة ٥٤٧ هـ ، أخذ الموحدون القلعة وهى مركز دولتهم بالجزائر ، من يد صاحبها يحيى ابن عبد العزيز الصنهاجى آخر ملوك بنى حماد ، وانتهت بذلك دولتهم (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٧١ وما بعدها والمراكشى ص ١١٣ و ١١٤ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٤٨) .

(٢) كان الفرنج النورمانيون أصحاب صقلية ، قد أغاروا على تونس وثغورها فى أوائل القرن السادس الهجرى ، واستولوا على عدة ثغور منها مثل صفاقس وتونس وسوسه ، ثم =

بالصحراء الكبرى ، ومن الغرب بالمحيط الاطلانطى ، ومن المشرق بصحراء لوبية التى تفصلها عن مصر ؛ وأما من الشمال فكان يحدها البحر الأبيض المتوسط ، وفيما وراء المضيق — فى شبه الجزيرة الاسبانية التى كانت يومئذ قبلة الفتح — كان الموحدون يملكون جميع الأراضى التى يطلق عليها اسم الأندلس ، وقواعدها الآهلة المنيعة ، إشبيلية ، وقرطبة ، وغرناطة ، ومالقة ، والمرية ، وهكذا كانت منطقة الوادى الكبير كلها فى أيديهم ؛ وكانت تفصل بينهم من الشمال الشرقى ، وبين مملكة قشتالة ، وأملاك ابن سعد (ابن مردنيش) صاحب مرسية وبلنسية وحليف النصارى ، سلسلة من الجبال الشاهقة تتخللها قلاع منيعة ، وممرات تحرسها حاميات قوية ؛ وأما فى الشمال الغربى فكان نهر وادى آنه الذى ملك الموحدون ضفته اليسرى كلها ، وملكوا من ضفته اليمنى عدة مناطق مثل ولاية الغرب وعدة مدن تمتد إلى مقربة من نهر التاجة (تاجو) ، أقل مناعة وأيسر اقتحاما ، وكان الموحدون أكثر عرضة لهجوم أعدائهم من هذه الناحية .

وقد رأى عبد المؤمن قبل أن يتابع الفتح فى الأندلس بكل قواه ، من الحزم والفطنة ، أن يضع للدولة الجديدة نظما موطدة الدعائم ؛ فألغى معظم النظم الرابطية العسكرية ، وهى التى أدت فى النهاية بقسوتها وما اقترن بها من صرامة الزعماء والقادة إلى سخط الشعب وثورته على الرابطين ، وأطلقت حرية العلوم والمعارف ، بعد أن كانت الأسرة الذاهبة تشتد فى مطاردتها ، وسارت جنبا إلى جنب مع الدين ، ومع الدولة الناشئة ونظمها العسكرية الجديدة ، وأقيمت فى مراكش عاصمة المملكة — بما تحصل من أموال الرابطين — طائفة من المساجد والمدارس الفخمة ، غدت

= استولوا على المهدية سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ؛ من صاحبها الحسن بن على الصنهاجى آخر ملوك دولة آل زيرى الصنهاجيين ؛ فلجأ الحسن إلى الموحدين واستغاث بهم ، واعتزم عبد المؤمن أن يستعيد هذه الثغور الاسلامية من يد النصارى ؛ فسار إلى تونس سنة ٥٥٤ هـ ، وهاجمها من البر والبحر بأسطول ضخم ؛ وحاول الفرنج إغاثة إخوانهم فبعثوا الأساطيل إلى مياه تونس ووقعت بين المسلمين والنصارى معارك بحرية هائلة انتهت بفوز المسلمين واستيلاء عبد المؤمن على المهدية فى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) بعد أن بقيت فى يد النصارى اثنى عشرة عاما (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٧ وروض القرطاس ص ١٢٩ والحلل الوشية ص ١١٦ و ١١٧)

مراكز للعلوم والآداب ؛ على أنه لم يسمح لهذه الحركة العلمية بأن تنمو وتتسع إلا بالقدر الذى يفيد الدولة والحكومة ، هذا فضلا عن وضعها تحت إشراف الدولة ، واقترانها دائما بالخدمة العسكرية والتمرن فى فنون الحرب . ذلك أن عبد المؤمن كان يخشى أن يؤدى الانقطاع إلى العلم والدرس ، إلى إضعاف الهمم ، وفتور الحماسة الحربية لدى الموحدين .

وأنشأ عبد المؤمن فى مراكش مدرسة لتخريج رجال السياسة وموظفى الحكومة ، وقادة الجيش ؛ وكانت تضم زهاء ثلاثة آلاف طالب من أبناء الأكابر فى وقت واحد ؛ وكانوا يسمون طلبة العلم أو الحفاظ ، نظرا لأنهم فضلا عن حفظ القرآن ، كانوا يدرسون رسائل المهدى ويحفظونها عن ظهر قلب ؛ كذلك كانوا يدرسون عدة كتب فى إدارة الولايات ومزاولة شؤون الدولة دراسة حسنة ؛ وكان عبد المؤمن يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة فى قصره ، ويمتحنهم فيما درسوا ، ويوجه إليهم الأسئلة بنفسه ، تشجيعا لهم على الاجتهاد ، ولكى يجعل منهم رجالا أكفاء قادرين ، يستطيعون بفطنتهم وذكائهم أن ينفعوا البلاد سواء فى السلم أو الحرب ؛ ثم يعمد فى أيام أخرى إلى معرفة مدى تقدمهم فى فنون الحرب ، فيختبرهم فى الطعن بالحراب والرمى بالقوس والسهام ، والمبارزة وركوب الخيل ، والركض ، وفن القتال ، ثم فى السباحة والمعارك البحرية ، وذلك فى بحيرة خاصة أنشأها لذلك الغرض على مقربة من قصره ، وأعد فيها طائفة من السفن الكبيرة والصغيرة من كل ضرب ، ليتمرن الشباب فيها على القتال فى البحر ، والتجذيف وقيادة السفن ، والوثب إلى سفن العدو ، ومزاولة جميع التمارين البدنية التى تقتضيها الخدمة البحرية . وكان يخص أولئك الذين يمتازون بالمهارة والشجاعة بعبارات المديح والثناء ، ويقدم إليهم بنفسه نفيس الهدايا ، ليحفز بذلك هممهم ، ويستزيد من غيرتهم واجتهادهم ، وكان تعليمهم جميعاً على نفقة الدولة ، ويصرف إليهم سائر مايحتاجون إليه ، ومن ذلك الخيل والسلاح وغيرها [1].

---

(١) يقدم إلينا ابن الخطيب فى الحلل الموشية تفاصيل شائقة عن هذه الحركة الثقافية =

وكان لعبد المؤمن بين هؤلاء الحفاظ ثلاثة عشر ولداً ، تقفوا على هذا النحو . وتؤكد الرواية أنهم كانوا يبدون فى هذه الامتحانات براعة فى الفنون الحربية والمعارف الرفيعة [1] . وقد اختار عبد المؤمن من هؤلاء الحفاظ جميع القضاة والفقهاء والولاة والعلماء ، وكل من أولاهم مناصب النفوذ والثقة ، واستطاع بذلك أن ينشئ فى نحو عشرين عاما نظاما جديداً للدولة ؛ إذ لم يبق من قدماء الموظفين المعارضين من يعمل على مناوأته ، وبذلك اطمأن عبد المؤمن على توطيد سلطان الموحدين . على أنه كان يعمل من جهة أخرى على جعل هذا السلطان وراثيا فى أسرته ؛ إذ كان ثمة على قيد الحياة من أصحاب المهدى العشرة اثنان هما فى مرتبة عبد المؤمن ، وفى وسعهما بعد موته أن ينازعا أسرته الملك ، وعلى ذلك فقد دعا عبد المؤمن جميع الولاة وأشياخ القبائل من جميع أنحاء مملكته الشاسعة إلى اجتماع عقد فى سنة ٥٤٩ ﻫ (١١٥١ م) ، وأعلن فيه محمداً أكبر أولاده وليا لعهده ، وأضاف اسمه فى خطبة يوم الجمعة إلى جانب اسمه ، وبذلك أشركه معه فى الحكم فى معنى من المعانى .

وفى هذا الاجتماع أيضاً أقر عبد المؤمن رغبة أشياخ القبائل فى أن يتولى أولاده — وقد كانوا يسمون بالسادة — حكم الولايات ، وأن تكون ولايتها وراثية فى عقبهم ، وعين لهم من الوزراء والحجاب والقواد أكفأ الأشياخ ، وأبرع الحفاظ ، على أن يؤخذ رأيهم فى جميع الشؤون الهامة ؛ واختار السيد أبا حفص لولاية سبتة وطنجة ، وبعض ثغور الأندلس ، والسيد أبا محمد عبد الله لولاية بجاية ، والسيد أبا الحسن لولاية فاس ، والسيد أبا يعقوب يوسف لولاية الأندلس أو إشبيلية وما إليها من المناطق [2] . ومع أن عبد المؤمن عين إلى جانب أولاده فى كل ولاية

= والرياضية التى نظمها عبد المؤمن ؛ وهى تطابق فى مجموعها ماينقله المؤلف عنها (ص ١١٤) .

(١) راجع الحلل الموشية ص ١١٤ .

(٢) هذه الرواية تطابق ما أوردها بن خلدون (ج ٦ ص ٢٣٦) ؛ ولكن يوجد خلاف يسير بينها وبين بعض الروايات الأخرى (راجع الحلل الموشية ص ١١٥) وكتاب أخبار المهدى ابن تومرت (ص ١١٦) .

من الأشياخ الأكفاء حاكما واثنين من خاصة الكتاب ؛ فقد لوحظ أنه لم يفعل مثل ذلك مع ولده السيد أبي يعقوب يوسف ؛ بل اكتفى بأن أقر إلى جانبه أبا زيد ابن بكيت والى قرطبة ، واعتبر ذلك دلالة على قصد عبد المؤمن فى أن يمنحه من الاستقلال قسطا أوسع مما منح لإخوته .

ومع أن عبد المؤمن كان يستأثر بالسلطة العليا ، ويحاول بالأخص أن يحول دون طغيان الولاة المستبدين وظلمهم وقسوتهم ، فإنه لم يوفق دائماً إلى تحقيق هذه الغاية فى أنحاء مملكته الشاسعة ، وكثيراً ما كان يقف على أمر المظالم بعد وقوعها . وإذ كانت الثورة كثيرة الوقوع فى المغرب ، وقد حدث ذات مرة أثناء غيبة زعيم الموحدين أن سقطت العاصمة مراكش فى أيدى الثوار ، فقد أمر عبد المؤمن باتباع سياسة الشدة فى الولايات والمدن الثائرة على ألا يذهب الولاة مع ذلك فى القسوة إلى حد إثارة بغضاء لا تخمد ، وبث مرارة تتحجر لها النفوس . ومن ثم فإنه لما استولى أبو زكريا بن يومر على مدينة لبلة وقتل من أهلها اثنى عشر ألفا دون فارق فى السن أو الجنس ، سخط عليه عبد المؤمن لهذه القسوة ، ولم يكتف بتأنيبه وعزله بل أمر باعتقاله ، بالرغم من أنه كان من خيرة القواد وأقدرهم ، وكان أشد ما أثار حنقه عليه أنه عقب المذبحة ، استاق جميع الأسرى من نساء وبنات وأطفال مع متاعهم ومالهم إلى البيع العلنى ، وعقد لهم سوقا فى معسكر الجند وزعم أن الأمر بعقدها صدر عن الخليفة ذاته[1] . كذلك سخط عبد المؤمن على الوزير أبي جعفر بن عطية — وهو أندلسى الأصل وشاعر مبرز — وعزله ، وصادر أملاكه لما ارتكبه من المظالم فى حق الشعب . وعمد خلفه الوزير عبد السلام الكومى إلى إهلاكه بالسم خشية انتقامه ، وذلك بأن أرسل إليه رقعة مسمومة

(١) كان أبو زكريا بن يومر (أو يغمور) واليا لأشبيلية من قبل عبد المؤمن . وقد استولى على لبلة سنة ٥٤٩ هـ (١١٥١ م) فى مناظر مروعة من السفك ؛ إذ جمع أهلها فى صعيد واحد وقتل منهم ألوفا عديدة ، وبيعت نساؤهم وأبناؤهم وأسلابهم . والمؤلف لا يورد أيضا سوى ما ذكرته الرواية العربية ، راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٦ وروض القرطاس ص ١٢٧ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٠ .

ضمنها أبياتا من الشعر . ولـكن القاتل لقى فيما بعد مثل هذا المصير ، حينما سخط عليه سيده ونكبه[١].

وقد فقد زعماء المرابطين حب الشعب عما ارتكبوا من صنوف القسوة والمظالم وأضرموا بذلك نار الثورة على حكومتهم ؛ وهذا ما أدركه عبد المؤمن حق الإدراك وحمله على أن يبذل كل ما فى وسعه لـكى تبدو الحـكومة الجديدة فى ألوان مقبولة ، ومن ذلك ما عمد إليه من رفع الحظر عن طائفة من الـكتب التى حظر المرابطون قراءتها أو استنساخها وتشجيع نشر الـكتب التى تتحدث عن الفروسية أو سيرها ، أو كتب المغامرات والقصص فى جميع أنحاء المملـكة سواء فى المغرب أو الأندلس ؛ بل لقد سمح بقراءة هـذه الـكتب من فوق منابر المساجد ، وهو نقيض ما كانت تجرى عليه حكومة المرابطين ، إذ كانت تعتبر أمثال هذه الـكتب كتب كفر ضارة وتأمر باحراقها أينما وجدت . أما المؤلفات التى تطعن فى حكومة الموحدين ، وفى المبادىء التى تقوم عليها ، فـكان عبد المؤمن يأمر العلماء والـكتاب الذين امتازوا بقوة الحجة بكتابة الردود عليها . مثال ذلك ما أمر بكتابته ضد الـكاتب القرطبى أبى الحسن عبد الملك بن إياس .

وكان أشد مايعنى به عبد المؤمن — وهو من أعظم قواد العصور الوسطى — تنظيم شؤون الحرب والجهاد . وقد بث إليها بجهوده نهضة إحياء شاملة . وإليك وصفا شائقا تركه لنا مؤرخ عربى عن نظام سير جيش الموحدين وتقسيمه ، لمناسبة

---

(١) استورد عبـد المؤمن الوزير أبا جعفر أحمد بن عطية ، وهو من أسرة أندلسية هاجرت الى مراكش ؛ وكان أبوه من قبل وزيراً لأمير المسلمين على بن يوسف اللمتونى ، فقتل بأمر عبد المؤمن فى حصار فاس ؛ أما ولده أبو جعفر فـكان وزيراً لإسحاق بن على اللمتونى ؛ ولما سقطت مراكش فى أيدى الموحدين عفا عنه عبد المؤمن واستوزره فيما بعد ، ولم يلبث أن سما شأنه ؛ ثم بعثه عبد المؤمن مع ولده السيد أبى يعقوب على إشبيلية ليعاونه فى حكمها ، وفى أثناء غيبته دبر خصومه وفى مقدمتهم خلفه الوزير عبد السلام الـكومى هلاكه ؛ فلما عاد إلى مراكش قبض عليه ، وأمر عبد المؤمن بقتله فقتل فى سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٥ م) . أما رواية مصرعه بالسم فلم نجد ما يؤيدها (راجع روض القرطاس ص ١٢٨ والمراكشى ص ١١٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٧ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٥٢ و ١٥٣) .

حديثه عن الحرب التى شهرها عبد المؤمن على النورمان الصقليين ، حينما استولى على تونس والمهدية .

كان مسير الجيش بعد صلاة الصبح قبيل شروق الشمس ؛ وكانت علامة السير ثلاث قرعات من طبل ضخم دوره خمسة عشر ذراعاً مدهون بلون الموحدين الأخضر ، ومحلى بالذهب ، وقد صنع من خشب رنان ، فكان يسمع على مسيرة نصف يوم إذا ضرب فى مكان مرتفع ، فى يوم ساكن لا ريح فيه ؛ وكانت كل قبيلة تتبع علمها الخاص ، وهو يحمل مطويا أثناء السير ؛ ولا ينشر عندئذ سوى علم الطلائع ، وقد كان مكوناً من اللونين الأبيض والأزرق ، وعليه هلال مذهب ؛ وتحمل الخيام والعتاد والمؤن على ظهور الجمال والدواب ، هذا غير ما يتبع الجيش من قطعان عديدة من الثيران والأغنام ، تسير تحت إشراف الرعاة ، وتخصص لغذاء الجند ؛ وكان جيش عبد المؤمن النظامى يتألف — فضلاً عن الفرسان — من سبعين ألفا من المشاة ؛ وكان ينقسم إلى أربعة جيوش ، يفصل بعضها عن بعض أثناء السير ، مسيرة يوم ، وذلك حتى لا يقع نقص فى الماء ، أو ضيق فى المكان . وإذ كان معظم الجند مثقل السلاح ، فقد كانت مسيرة اليوم قصيرة المدى ، وكان يقطع خلالها عادة عدة أميال فقط ، وكان يُقتصر على السير منذ شروق الشمس إلى وقت الظهر ، حتى يتسنى للجند أن يبدأوا السير فى اليوم التالى بقوى مجددة ؛ وترتب على هذا التمهل فى سير الجيش ، أن اقتضى عبد المؤمن ستة أشهر ليقطع المسافة بين سلا وتونس ، وهى مسافة كانت تقطعها فرق الفرسان الخفيفة فى نحو شهرين فقط . وكان عبد المؤمن إذا ركب احتاط به الأشياخ والقادة ، وأدوا معه الصلاة ، ثم ينصرف بعد ذلك كل إلى مكانه ، وإلى قيادة الجند التابعين له ؛ وكان يتقدمه فى السير مائة شيخ وقائد ، يمتطون جياداً مطهمة ويتقلدون أسلحة فاخرة ، ويرتدون ثياباً فخمة . وكان يُحمل أمامه مصحف الخليفة عثمان بن عفان الذى غنمه الموحدون من قرطبة ، تبركا وتيمناً ، وقد وُضع فى تابوت بديع الصنع ، محلى بصفائح الذهب ، مرصع بأروع اللآلئ ، والأحجار

الكريمة ، حتى أنه قيل بحق بأن كنوز الأمويين ، وبنى عباد ملوك إشبيلية ، وبنى هود ملوك سرقسطة ، والمرابطين ، قد اجتمعت فيه جميعاً ، وتكدست ؛ وهذا التابوت يحمل فى هودج ثمين ، وعلى جوانبه الأربع أربعة أعلام ؛ ويتبعه مباشرة أمير المؤمنين عبد المؤمن ، وإلى جانبه ولده وكاتب سره السيد أبو حفص والى تلمسان ، وهو شقيق السيد أبى يعقوب يوسف ؛ ويتبعه على قيد مسافة قصيرة ، الأمراء ، وأبناؤه الآخرون الذين يرافقون الجيش . ثم يتبعهم بنود القبائل وفق ترتيبها ، وعدد من قارعى الطبول على خيول عالية ، والنافخون فى الأبواق ، والقرون ، وغيرهم من رجال الموسيقى العسكرية ؛ ثم الولاة والقضاة ، والوزراء والكتاب ؛ وبعد ذلك يأتى الجند متعاقبين فى نظام محكم . فإذا حل الوقت الذى ينتظم فيه المعسكر ، أفرد لكل قسم مكانه المعين ، ولا يسمح لإنسان أن يترك المعسكر دون إذن القائد المختص ؛ ثم توزع الأقوات التى يحمل الجيش منها مقادير وافرة ، على الجند بأنصبة متساوية ، فلا يقتر على أحد منهم(١) .

ويبدو من تأمل هذه النظم الصارمة ، ومن المثابرة على التمارين الحربية ، أن عبد المؤمن كان فى جميع مشاريعه العسكرية يعنى عناية خاصة باختيار موقع القتال ، وتولى القيادة بنفسه ، وأنه لم يكن ثمة فى إفريقية أو الأندلس أمير يضارعه فى فنون الحرب . وقد استطاع بذكائه أن ينشئ نظماً جديدة فى منتهى البساطة ، ولكنها جمة الفوائد ، وأن يوجه فن الحرب ، بما وضعه من ترتيبات صارمة للجيش ، وجهة جديدة ؛ وكان من رأيه دائماً أن قيمة الجيش ليست فى عدده ، وإنما هى قبل كل شىء فى مقدرته وفائدته ، كما أنه كان ، خلافاً لأسلافه المرابطين ، ومعظم ملوك المغرب ، يرى أن قوة الجيش الرئيسية ، يجب أن تؤلف من جند من المشاة حسنة التدريب والتسليح ، وأن قوى المشاة هى العامل الحاسم فى مصير

(١) فى الحلل الموشية تفصيل حسن لنظام جيش عبد المؤمن ، وخطط سيره ، وذلك بمناسبة كلامه عن توجه عبد المؤمن إلى المهدية لإنقاذها من النصارى : ومن الواضح أن ما أورده المؤلف هنا (نقلا عن كوندى) ، قد نقل فى الأصل عن الحلل الموشية مع تغيير يسير (راجع ص ١١٥ — ١١٦) .

المواقع وفى اقتحام المدن . أجل كان لديه جيش أكبر من الفرسـان ، ولـكنه لم يكن يعلق عليه نفس الأهمية التى يعلقها على جيش المشاة ؛ ذلك لأن الفرسان المغاربة ، كانوا أثناء المواقع أقل خضوعاً للأوامر والنظم .

ولما عمل عبد المؤمن على تخطيط حدود مملـكته ، ومسح جميع أراضيها ، وحصل من الولاة على بيانات دقيقة عن سكان كل ولاية ، وعن خواصها وثروتها وغلاتها(١) ، كان يرمى بذلك من جهة إلى تقرير الضرائب الواجب تأديتها على كل ولاية ، ومن جهة أخرى إلى أن تتخذ هذه البيانات أساساً لتقرير عدد الجند وأنواعه ، فكان على الثغور فى المغرب والأندلس مثلا أن تقدم البحارة والسفن ؛ وعلى المناطق الصحراوية والغنية بالخيل ، أن تقدم الفرسان ، والخيل ، ودواب الحمل ، والجمال ؛ وعلى الولايات الأخرى ، أن تقدم الجند المشاة والسلاح من كل ضرب ، كل بنسبة سكانها ، ولـكن المناطق أو الزعماء الذين حقت عليهم العقوبة بسبب الثورة ، كان يفرض عليهم أن يقدموا من الجند ضعف الصفوف العادية أو أكثر ؛ فمثلا فرض على قبيلة « كومية » وهى من بطون زناته ، كعقاب لها أن تؤدى عشرين ألف مقاتل ، وهو ما لا يتناسب مع سكانها ؛ ولـكن أشياخها سعوا إلى استرضاء الخليفة بمضاعفة هذا العدد ، فساروا إلى العاصمة فى أربعين ألف فارس حسنى الثياب والعـدة ، حتى أن عبد المؤمن توجس من مقدمهم فى البداية ، وخشى أن يكون العدوان مقصدهم ، فى حين أنهم قدموا تطوعاً للخدمة ، واستخدم عبد المؤمن عدداً كبيراً منهم فى حرسه الخاص ، إظهاراً لثقته بهم ؛ وأذن لهم عند وصولهم إلى مراكش ، بعرض فنون الفروسية ، وألعاب الخيل ، فكانت الخيل تحيى الأمير برأسها أو تركع أمامه بمنتهى الرشاقة(٢) .

أما السلاح ، فـكان عبد المؤمن يحتفظ منه دائماً بمقادير وافرة ، يخزنها

(١) راجع روض القرطاس ص ١٢٩ .

(٢) يلاحظ أن قبيلة « كومية » هذه هى القبيلة التى ينتمى إليها الخليفة عبد المؤمن ؛ راجع فى ذلك وفى مقدم فرسان كومية على مراكش (روض القرطاس ص ١٣١ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ ، والمراكشى ص ١٠٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٥٧) .

فى المخازن المعدة لذلك ؛ وقد أنشأ مصانع للسلاح فى كثير من قواعد مملكته ، فصنع فيها القسى والنُشاب ، والخوذات والدروع والسهام ، وغيرها من الأسلحة اللازمة للهجوم والدفاع . وفى بعض الروايات أنه كان يصنع فى مملكة الموحدين فى عهد عبد المؤمن كل يوم عشرة قناطير من السهام ، وهذه فيما يبدو مبالغة من بعض المؤرخين المسلمين ، أو هى خطأ فى التقدير[1] ؛ وقد كان عبد المؤمن فيما يظهر أيضاً ، على علم راسخ بفنون الحصار ، وكان يستولى على أشد المدن حصانة بما يبنى وفق رأيه من آلات الرمى وخرق الأسوار (المنجنيقات) . أما هل عرف عبد المؤمن استعمال البارود — وقد كان من قبل أشد ذيوعاً فى المغرب والأندلس منه فى أى بلد أوربى — فأمر يُشك فى صحته ؛ بيد أن خلفاءه من الموحدين هم الذين نقلوا استعمال البارود فى القرن الثالث عشر ، من إفريقية إلى اسبانيا .

وقد قسم عبد المؤمن مملكته بعد أن مسحها طولاً وعرضاً على يد أمراء المغرب المسلمين ، إلى ولايات ومناطق ومقاطعات ومدن وقرى ، وقرر عليها الضرائب وفقاً لنسبة السكان فى البسائط المأهولة وحالة الأرض وخواصها ومقدار غلتها ، وكذلك وفقاً لأحوالها الزراعية وحالة مراعيها وماشيتها .

وفى الوقت الذى كان عبد المؤمن يشغل فيه فى المغرب بإخماد الثورات والفتن ، وافتتاح أطراف مملكته الشرقية ، وانتزاع المهدية وتونس من يد الفرنج النورمانيين ، كان يعهد بمتابعة الحرب فى الأندلس إلى ولده السيد أبى يعقوب يوسف — والى الأندلس — وإلى نفر من القادة البارعين الذين يعملون تحت إمرته . فلما انتهى عبد المؤمن من التغلب على النورمانيين فى البر والبحر ، وأجلاهم عن جميع الأراضى التى استولوا عليها فى إفريقية سنة ١١٦٠ م (٥٥٥ هـ) ، أخذ يتأهب لمتابعة الغزو بنفسه فى شبه الجزيرة الاسبانية .

فسار من أجل ذلك فى جيشه صوب طنجة ليبحر منها إلى الأندلس ، ولما وصل إلى وهران نظم استعراضاً عسكرياً للقوات التى اختارها لمحاربة النصارى

(١) راجع الاستقصاء ج ١ ص ١٥٨ .

الأسبان ؛ وهنا كاد عبد المؤمن يذهب ضحية مؤامرة دبرها جيشه . ذلك أن طائفة من جند الموحدين سئموا طول القتال — ولم يكن قد مضى سوى القليل على عودهم من مقاتلة الفرنج فى تونس والمهدية — وتاقت أنفسهم إلى رؤية الوطن بعد طول البعاد ، ورأوا أملهم فى رؤية أهلهم وذويهم ينهار بسبب الغزوة الجديدة ، واعتقدوا أن خير وسيلة لتحقيق أمنيتهم هو موت عاهلهم الذى لا ينى عن السير من فتح إلى فتح ؛ فاعتزموا قتله فى الليلة التالية وهو نائم فى خيمته ، فوقف على هذه المؤامرة شيخ من أشياخ القبائل ، ومع أنه وقف عليها فى وقت متأخر ؛ فإنه استطاع أن يحذر عبد المؤمن فى الوقت المناسب ؛ بيد أنه لم يكن ثمة متسع من الوقت لمعاقبة الجناة على يد الجند المخلصين ، ولم يجد الشيخ الأمين وسيلة لتلافى الشر سوى أن يموت من أجل سيده ، ونزل عبد المؤمن على نصحه ، فغادر خيمته ، ونام الشيخ مكانه فى سريره ، وقتله المتآمرون طعنا بالخناجر ظنا منهم أنه عبد المؤمن ، ولكن عبد المؤمن كان قد التجأ إلى خيمة الشيخ الذى افتداه بنفسه ، ونجا بذلك من الهلاك . وفى الحال اتخذت الاجراءات لمعاقبة المتآمرين ؛ بيد أنه لما كان مدبرو المؤامرة من أقرب حاشية الخليفة ، وكان من المتعذر إثبات الجرم على الزعماء المارقين ، وقد أريد من جهة أخرى أن يُجتنب الجهر بالعقاب ، فقد أمر عبد المؤمن بإهلاك زعماء المؤامرة بوضع السم لهم فى الرسائل أو الشراب . أما الشيخ الأمين الذى لم يعرف حتى اسمه ، فقد رأى أن يخلد تضحيته بابتناء مزار فخم لرفاته ، وإنشاء مدينة حديثة سميت بالبطحاء(١) .

٢ — باقى غزوات الموحدين فى الأندلس بقيادة عبد المؤمن

ولم تكن قد وقعت فى ذلك الحين بالأندلس أية فتوح هامة منذ افتتاح غرناطة فى سنة ١١٥٧ م (٥٥٢ هـ) ، وكل ماحدث أن أغار الموحدون مراراً على أراضى النصارى ، وأراضى مملكة مرسية التى كان يحكمها ابن سعد (ابن مردنيش) ،

(١) راجع روض القرطاس ص ١٣٠ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٦ و ١٥٧ .

ولكنهم لم يستطيعوا القيام بأية غزوة كبيرة ؛ إذ لم يتلقوا من عبد المؤمن سوى إمدادات قليلة نظراً لانشغاله بالحرب فى شرق مملكته ؛ وكان ذلك أيضاً من الأسباب التى مكنت سانشو الثالث ملك قشتالة من أن يحرز النصر على الموحدين ، ومكنت الفونسو هنريكيز ملك البرتغال من أن ينتزع منهم بعض الغنائم ؛ إذ استولى فى الغرب عنوة على حصن القصر ، أو قصر أبى دنيس ، وقتل جميع حاميته وذلك فى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) .

وفى العام التالى (سنة ١١٦١ م) عبر عبد المؤمن بنفسه إلى الأندلس ونزل بجبل طارق ، وأنشأ به حصنا عظيما فى منتهى المناعة ، وسماه بجبل الفتح ، ولما تمت التحصينات وفق رغباته أقام هنالك شهرين ، ووفد عليه فى تلك الأثناء ولاة الأندلس وقضاتها ، وأطلعوه على أحوال الناس ، ووفدت عليه أيضاً جمهرة كبيرة من العلماء والشعراء ، وأشاروا بتحيته ومديحه فى خطبهم وقصائدهم[١] .

وفى أثناء مقام عبد المؤمن بالأندلس ، قام الموحدون بغزوة فى أراضى النصارى ، وأمدهم عبد المؤمن عندئذ بقوة من الفرسان تبلغ ثمانية عشر ألفاً ؛ وسار الموحدون على ضفاف وادى آنه فى ولاية الغرب (غربى الأندلس) ، وكان النصارى يكثرون مهاجمة المسلمين من هذه الناحية . وتقول الرواية العربية إن المسلمين افتتحوا فى تلك الغزوة حصناً من أحواز بطليوس ، وقتلوا حاميته ؛ ثم اشتبكوا مع الفونسو ملك طليطلة فى موقعة دموية ، فقد النصارى فيها ستة آلاف قتيل ، غير الأسرى ؛ وافتتح المسلمون على أثرها بطليوس ، وباجه ، ويابره ، وحصن القصر ؛ وعين محمد بن على بن الحاج والياً لهذه الولاية الجديدة ، وعاد عبد المؤمن بعد ذلك إلى عاصمة مراكش[٢] .

---

(١) راجع الحلل الموشية ص ١١٨ والمراكشى ص ١١٧ والاستقصا ج ١ ص ١٦٣ .

(٢) هذا ما تردده الرواية الإسلامية فى الواقع ، وتزيد على ذلك أن الحصن الذى افتتحه الموحدون فى تلك الغزوة بجوار بطليوس هو حصن « المرنكش » وأن الذى قاد الموحدين فيها هو الشيخ أبو حفص الهنتاتى . وتضع تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) ؛ وفى العام التالى استولى الموحدون على بطليوس وباجه ويابره وحصن القصر (راجع روض القرطاس ص ١٣٠ و١٣١ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٧) .

على أن الروايات النصرانية لا تذكر شيئاً عن غزوة الموحدين هذه . ومن الواضح أن المؤرخين المسلمين يخلطون هنا بين فرديناند ملك ليون والفونسو الثالث ملك قشتالة ، الذى كان وقتئذ طفلا لا شأن له بالحكم ، ولكن الروايات تقص من جهة أخرى أن جيشاً ضخماً من الموحدين سار فى نفس هذه السنة لمحاربة ابن سعد (ابن مردنيش) أمير بلنسية ومرسية ، وأنه لم ينقذ ابن سعد من الهزيمة سوى المعاونة القوية التى تلقاها من حليفه سانشو ملك نافارا ، بقيادة الفارس الشجاع بيدرو روز دى ازاجرا ؛ وقد أعطى بيدرو روز عندئذ مدينة شنتمرية الشرق[1] ليستقل بحكمها ، مكافأة له على معاونته .

وفى العام التالى ، أعنى فى سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) ، استأنف ابن سعد الحرب ، وسار إلى غرناطة ليحاول استردادها ، وقد كانت فى قبضته من قبل ؛ وهنا تتفق الروايات العربية والنصرانية ، ولكن النصرانية أكثر إفاضة وتفصيلا ؛ واجتمع جميع الأندلسيين الذين يعارضون حكم الموحدين ، ولاسيما جند وادى آش والمنكب والجزيرة والبشرات فى ولاية جيان لنصرة ابن سعد أشهر زعماء الأندلس وأشدهم وطنية ، وهرعت إلى رايته بقايا المرابطين لتساهم فى آخر محاولة تبذل لإخراج الموحدين من شبه الجزيرة ؛ واستقدمت أمداد نصرانية سواء من قشتالة أو أراجون لقاء مبالغ طائلة من المال ، وهكذا اجتمعت لأمير بلنسية قوات عظيمة .

ولما علم الموحدون بما اتخذه ابن سعد من عظيم الأهبة ، ساروا إلى لقاء أعدائهم فى جيش ضخم معظمه من الفرسان ، والتقى الجيشان على مقربة من غرناطة ، واشتبكا فى معركة هائلة ، وقاتل ابن سعد وجنوده بمنتهى الشجاعة والجلد ؛ ولكن الموحدين استطاعوا أن يحرزوا نصراً باهراً ، وأن يؤيدوا بذلك شهرتهم كفاتحين لا يغلبون ؛ بيد أنهم لم ينتصروا دون خسارة فادحة . ثم عاد ابن سعد وحلفاؤه بعد أن حشدوا قوات جديدة إلى القتال ، ونشبت بين الفريقين موقعة أخرى فى

(١) هى المرونة بالإفرنجية بمدينة Abarracin حسبما تقدم .

فحص قرطبة (سنة ٥٥٧ هـ — ١١٦٣ م) ، فهزم الحلفاء للمرة الثانية ، واضطروا إلى الانسحاب بعد أن تكبدوا أفدح الخسائر[١].

وفى تلك الأثناء كان عبد المؤمن يقوم بأهبات عسكرية ضخمة ، ويدعو الجند إلى الجهاد فى اسبانيا من سائر أنحاء مملكته الشاسعة ؛ ولم يمض سوى قليل حتى اجتمع لديه فى سلا من مختلف القبائل المغربية وخصوصاً من زناتة ، زهاء ثلاثمائة ألف فارس ، منهم ثمانون ألفا من ذوى البراعة ، ومائة ألف راجل ، وحشد عبد المؤمن فى الوقت نفسه أسطولا ضخما من أربعمائة سفينة كبيرة أعدت فى ثغور المغرب لنقل الجيش ، ولكى تعاون بالأخص فى الأعمال الحربية ؛ ولاح عندئذ أن اسبانيا النصرانية التى شطرت يومئذ إلى ممالك خمس تمزقها الحروب الداخلية ، قد قضى عليها بالهلاك ، وأنها ستغدو فريسة هينة للفاتح الإفريقى لولا أن توفى عبد المؤمن عندئذ فجأة بعد مرض شديد أودى بحياته فى الوقت الذى كانت تنقل فيه الجند إلى الأندلس ، وبذا أنقذت اسبانيا النصرانية من نير المسلمين مرة أخرى .

وتوفى عبد المؤمن فى الثالثة والستين من عمره ، بعد أن حكم ثلاثة وثلاثين عاما ، وذلك فى العاشر من جمادى الثانية سنة ٥٥٨ هـ (١٥ مايو سنة ١١٦٣) ؛ وكان قبل وفاته بقليل قد عزل ولده الأكبر السيد محمد عن ولاية عهده ؛ إذ نسب إليه أنه دبر مؤامرة لقتله لكى يلى الملك بسرعة ، وأمر بحذف اسمه من الخطبة ، وأذاع قرار عزله فى جميع الأنحاء[٢] ؛ واختار عبد المؤمن لخلافته بدلا من الأمير

(١) تسمى الرواية العربية الموقعة الأولى التى نشبت فى سنة ٥٥٧ هـ بين الموحدين وابن سعد وحلفائه موقعة « مرج الرقاد » ؛ وتسمى الموقعة الثانية التى نشبت بين الفريقين موقعة « السبيكة » ، وقد نشبت أيضا فى فحص غرناطة لا فحص قرطبة حسبما يقول المؤلف ؛ وكان وقوعها فى يوم الجمعة ٢٨ رجب سنة ٥٥٧ هـ ؛ وكان حليف ابن سعد فى الموقعتين صهره إبراهيم بن همشك ، المتغلب على غرناطة قبيل استردادها على يد الموحدين (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٨ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٠ ، وابن الأثير ج ١١ ص ١٠٦) .

(٢) تقدم الرواية الاسلامية لعزل عبد المؤمن لولده السيد محمد من ولاية العهد أسبابا =

المعزول ، ولده السيد أبا يعقوب يوسف ؛ وكان قائما بشؤون الأندلس حيث أبدى براعة فائقة فى الحرب والإدارة . وأخفى موت عبد المؤمن حتى قدم يوسف من إشبيلية إلى المغرب .

وكان عبد المؤمن وسيم الطلعة عظيم الهيبة ؛ وكان أبيض اللون مشربا بحمرة شديد بريق العينين ، كث الشعر ، أقنى الأنف ، نحيل الذقن مستديرها ؛ عظيم القامة دون مبالغة فى الطول ، ملء الجسم مع خفة ورشاقة . ولم تكن مواهبه العقلية أقل روعة ؛ فقد كان يهتدى بثاقب فهمه إلى أفضل الوسائل لتحقيق أغراضه بأسرع وقت ؛ وكان يغنم بفصاحته تأييد الذين يبدون نحوه فتوراً أو يخاصمونه ؛ وكان يستطيع بما أوتى من واسع المعرفة فى علوم كثيرة ، أن يختار من بين علماء مملكته ورجالاتها أكفاهم وأرفعهم شأنا ، وكان لهم نصيراً وصديقا . وهكذا ازدهرت فى ظله العلوم والفنون فى جميع أنحاء مملكته ، ولاسيما فى الأندلس بالرغم مما كانت تخوضه من حروب متواصلة ؛ وهذا ما يمكن تعليله بأن مسلمى الأندلس الذين شغفوا بالعلوم قد سارعوا إلى نبذ المرابطين أولى البداوة والخشونة ، وانحازوا إلى جانب الموحدين أهل العلوم والمدنية . أما الصفات التى يجب أن تتوافر فى الفاتح مثل الشجاعة والعزم ، وبعد النظر ، وحضور البديهة ، فقد كان عبد المؤمن يفوز منها بأوفر قسط . وقد كان يسمو على معظم جنوده فى تحمل المشاق والشدائد ؛ وكانت شعوب المغرب المتقشفة تعجب بتقشفه فى مأكله ومشربه ؛ وكانت الحرب فيما يبدو شهوته الوحيدة ، فقد افتتح بالسيف ولاية بعد أخرى ؛ ولما توفى ترك وراءه مملكة تمتد من المحيط الأطلانطى إلى قرب حدود مصر ، ويقتضى اختراقها بالطول مسيرة أربعة أشهر . أما عرضها فيما بين الصحراء الكبرى ، وجبال سييرامورينا ، (جبل الشارات) الاسبانية ؛ فكان يقتضى اختراقه مسيرة خمسين

= أخرى خلاصتها ما تبينه عبد المؤمن فى ولده من أمور لا يصلح معها للخلافة من إدمان الخمر ، واختلال الرأى ، وكثرة الطيش ، وجبن النفس ؛ وقيل أيضاً إنه كان مريضا بالجذام (المراكشى ص ١٣١ ، وابن خلكان ج ١ ص ٣٩١ ، وروض القرطاس ص ١٣٢ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٨) .

يوما ؛ وقد افتتحت جميع هذه الأراضى فى أقل من عشرين عاما منذ استولى الموحدون على مراكش[1].

٣ — حكم أبو يعقوب يوسف وحروبه

وقد بدأ أبو يعقوب يوسف حكمه فى ظروف صعبة ؛ ولولا غيرة القاضى أبى الحجاج يوسف بن عمر وفطنته لتعذر عليه أن يفوز بحكم مملكة الموحدين كلها . ذلك لأن ولى العهد السابق السيد محمد ، وأخا آخر ليوسف هو السيد عبد الله والى قرطبة ، اعتزما ألا يخضعا لولى العهد الجديد الذى اختاره عبد المؤمن قبل موته ، ولاح فى الأفق شبح حرب أهلية مروعة تنذر بتمزيق المملكة ولما تتوطد دعائمها بعد ؛ ولكن القاضى أبا الحجاج عمل على إخفاء موت عبد المؤمن حتى قدم أبو يعقوب يوسف من الأندلس إلى مراكش ، وبويع فى الحال بالإمارة . بيد أنه مضى زهاء عامين قبل أن يوفق إلى إخماد جميع حركات الانتقاض على حكومته ؛ ثم دعا بعد ذلك جميع الأشياخ والولاة إلى مراكش ، وبويع بالخلافة وتسمى بأمير المؤمنين ؛ ولم يخرج على ذلك الإجماع أخواه السيد محمد والسيد عبد الله ، اللذان خلبهما رفقه وتسامحه ، فاعترفا أيضاً بخلافته ؛ ومالت الشعوب المغربية إلى تأييده لما عمد إليه فى بداية حكمه من تخفيف أعباء الحرب ، وتسريح الجيوش الضخمة التى حشدت فى سلا لغزو اسبانيا ؛ وجذب إليه القادة والجند — ولاسيما جند الحرس — والولاة بالأعطية الوافرة ؛ وأحبه أهل مراكش لما رفعه عنهم من المكوس ، ونظمه لهم من الحفلات الباذخة .

ومع أن يوسف تولى الحكم شابا لم يجاوز الرابعة والعشرين من عمره ؛ فقد أبدى كثيراً من الفطنة والبراعة ، وكان ذهنه يتجه إلى معالجة الأمور الحاضرة

---

(١) راجع فى سيرة عبد المؤمن وخلاله فى كتاب أخبار المهدى ص ٢١ — ٢٣ و ٥٥ — ٥٧ و ٨٤ وما بعدها ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ وما بعدها ، وروض القرطاس ص ١١٩ — ١٣٤ ، والمراكشى ص ١٠٩ وما بعدها ، وابن خلكان ج ١ ص ٣٩٠ — ٣٩٢ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٤٠ وما بعدها .

والبعيدة معاً ؛ وكان يقبض بنفسه على أعنة الحكم ، ولايسمح لوزرائه بالبت فى أمر من الأمور ، أو عمل من الأعمال لم يقف عليه من قبل ؛ وترتب على ذلك أن الأمراء والوزراء الذين كانوا يتمتعون أيام عبد المؤمن بكثير من النفوذ فى البلاط ، فقدوا كل نفوذهم فى عهد يوسف . وحتى أخوه السيد أبو حفص الذى كان أمين سر عبد المؤمن وموضع ثقته رأى مع الألم انهيار نفوذه فى البلاط ، وربما كان هذا هو السبب فى أنه فيما بعد رفع لواء الثورة ضد أمير المؤمنين .

وكان يختار بحسن فهمه وبعد نظره أكفأ الرجال الذين يوليهم مناصب الثقة ، وكان من سياسته فيما يظهر نقل الأشخاص فى مختلف المناصب لكى يبقوا أكثر خضوعا لإشراف الحكومة ، وكان مما يسهل تنفيذ هذه السياسة أن الذين يتولون المناصب كان يشترط فيهم توافر نوع من الثقافة العامة والإلمام بمعظم العلوم الاسلامية المعروفة ، وهذا مما يوضح لنا كيف أمكن فى ظل هذا الأمير أن يتولى بعض الرجال مناصب شديدة التباين ؛ فقد حدث مثلا أن تولى العلامة الأشهر أبو الوليد بن رشد منصب الفقيه العالم ، ثم القضاء ، ثم تولى الاشراف على الخزينة ، وتولى أيضاً منصب طبيب يوسف الخاص[(١)].

ومع أنه عمل على تخفيف أعباء الحرب عن الشعوب المغربية ، وسرح الجيوش الضخمة التى حشدت لغزو اسبانيا ، فانه لم يترك العناية بأمر الحرب فى الأندلس .

وكان الموحدون منذ وفاة عبد المؤمن قد تكبدوا فى الأندلس خسائر فادحة

(١) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد من أعظم مفكرى الاسلام وفلاسفته ، ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ ، واتصل منذ فتوته بأبى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن وقد كان مشرفا على شؤون الأندلس ، وكان الأمير مثل أبيه يجمع حوله أعلام المفكرين والعلماء . وبرع ابن رشد فى الفقه والطب والفلسفة ؛ وتولى قضاء إشبيلية فى سنة ٥٦٥ هـ ، ثم ولى قضاء قرطبة واستمر بها خمسة وعشرين عاما يتقلب فى ظل حكومة الموحدين ، سواء فى الأندلس أو المغرب فى بعض المناصب القضائية والادارية الكبرى ؛ وتولى أثناء ذلك منصب الطبيب الخاص حينا لأبى يعقوب يوسف ثم لولده يعقوب المنصور بعد وفاته ؛ واتهمه بعض خصومه بالزندقة ، فنفى إلى الأندلس بجوار قرطبة ؛ وفرضت عليه رقابة شديدة ؛ ثم استرد مكانته فى أواخر حياته ؛ واستدعى ثانية إلى مراكش ؛ حيث عفا عنه المنصور ، وتوفى سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٥ م) . وأعظم آثار ابن رشد هو شرحه لفلسفة أرسطو ؛ وله عدة رسائل كلامية وفلسفية .

فى بعض المواطن ، وذلك بالرغم من تفرق الملوك النصارى ، وما كانت تمانيه مملكتا قشتالة وليون من انقسام الأشراف ؛ وكان الفونسو هنريكيز ملك البرتغال يدفع حدود مملكته نحو الجنوب باستمرار ، وينتزع من أيدى الموحدين حصون الحدود تباعا ؛ وكذلك أبدى فرديناند ملك ليون نشاطا فى غزو منطقة وادى يانه (أو وادى آنه) ، واستولى على القنطرة والبكرك والقاس وبطليوس حسبما تقدم . أما قشتالة وليون فقد كانتا تقتصران يومئذ فى محاربة المسلمين على معاونة أمير بلنسية محمد ابن سعد بن مردنيش ، وترسلان له الامداد مقابل المال والحصول على قسط من الغنائم .

وما كاد يمضى عامان على وفاة عبد المؤمن ، حتى حشد أمير بلنسية زعماء الأندلس المعادين للموحدين تحت لوائه مرة أخرى (سنة ١١٦٥ م) . واجتمع إليه فوق ذلك ثلاثة عشر ألفاً من القشتاليين والأرجونيين ؛ ثم سار فى جميع قواته إلى لقاء جيش الموحدين بقيادة السيد أبى سعيد عبد الرحمن ، أخى أبى يعقوب يوسف ، والتقى الجيشان على مقربة من مرسية ، ونشبت بينهما موقعة شديدة ، واستطاع الموحدون بجلدهم أن يحرزوا فيها نصراً كاملا أسوة عما حدث من قبل ؛ وأخذ الحلفاء يلقون تبعة هذا الفشل كل على الآخر ، واشتد بينهم الخلاف ، وانتهى الأمر بأن انسحب بعض الزعماء الأندلسيين سرا ثم علانية ، وانضموا إلى جانب الموحدين ؛ وكان من بين هؤلاء الزعيم الباسل أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن الوقشى ، والى جيان ومرسية السابق ، وكان عالمـا ، ومقاتلا شجاعاً ، وشاعراً مبرزا ، فانحاز إلى جانب الموحدين ، ثم عبر البحر فيما بعد إلى مراكش ، واشترك هنالك فى حفلة عرض لصيد الأسود ، يطارد الليث فيها بأسنة الحراب ، فأبدى فيها براعة خاصة ، ووصفها فى بعض قصائده الرقيقة [1] .

(١) راجع ترجمة أحمد بن عبد الرحمن الوقشى فى الحلة السيراء ص ٢٣٠ وما بعدها . وقد أورد ابن الأبار وصفا لحفلة صيد الأسود ، كما أورد طرفا من القصيدة التى أنشأها الوقشى فى وصف هذا الحفل (ص ٢٣٣) .

ولما أخذ سلطان الموحدين يشتد تباعاً فى جنوبى اسبانيا ، وسقطت فى يدهم بطليوس ، وعدة أماكن أخرى على الحدود ، وأخذ سلطان ابن سعد أمير بلنسية والممالك النصرانية يعرض شيئا فشيئا إلى الانهيار ، من جراء انشقاق الزعماء المسلمين والنصارى ، اعتزم ملك قشتالة ألفونسو الثالث وملك أراجون ألفونسو الثانى أن يعملا على تقوية صلاتهما بابن سعد ؛ وسار ابن سعد نفسه إلى طليطلة ليوثق أواصر تحالفه بالملكين (سنة ١١٦٧ م) ، واستطاع من جهة أخرى أن يسترضى بعض الزعماء المنشقين عليه ، وأن يحشدهم ثانية إلى جانبه ؛ وكان من بين هؤلاء الوقشى الشجاع الذى تقدم ذكره ، وذلك بعد أن لبث حينا فى مراكش وتولى هنالك أرفع المناصب ؛ وكان جند من الحلفاء النصارى ، معظمهم من القشتاليين ، يحتلون بلنسية ذاتها ، وهو ما لم يرق لكثير من المسلمين المحافظين ، وقد غادر بلنسية على أثر ذلك كثير من الزعماء الأقوياء ، وانحازوا إلى جانب الموحدين .

وفى تلك الأثناء كان السيد أبو حفص أخو الخليفة قد عبر البحر إلى الأندلس فى عشرين ألفاً من فرسان الموحدين ، وقام بغزوات على حدود البرتغال واسترامادوره ، ولكنه لم يحرز نجاحا يذكر . ذلك أن ملك البرتغال وفرسان يابرة التابعين له كانوا يحمون الحدود حماية فعالة ، وكان ملك ليون قد استدعى آل كاسترو بعد فرارهم إلى الموحدين ، وحرم الموحدين بذلك من عضد قوى ؛ ولكن تفاقمت الحال فى بلنسية وازداد سخط الزعماء على الأمير محمد بن سعد ، وجاهروا بالثورة ضده ، واستدعوا الموحدين لمعاونتهم ونصرتهم ؛ وكان سلطان الموحدين ، يعتزم بعد أن سحق جميع الثورات فى المغرب ، أن ينتهز فرصة هذه الظروف السانحة فى الأندلس ، وأن يعمل على إخضاع اسبانيا المسلمة بأسرها لسلطانه .

ففى شهر صفر سنة ٥٦٦ هـ (١١٧١ م) ، عبر أبو يعقوب يوسف البحر إلى اسبانيا ، وسار توا الى أشبيلية عاصمة الأندلس ؛ واستقبل هنالك الولاة والقضاة والفقهاء والعلماء من جميع المدن والأنحاء الخاضعة له ، ووقف منهم على أحوال

البلاد . وكان من الواضح أن استمرار الشقاق بين المسلمين فى بلنسية ومرسية ، وضعف الإمدادات التى يرسلها ملوك قشتالة ونافارا وأراجون إلى حليفهم ، ثم الخصومة بين ابن سعد وحليفه القديم ألفونسو ملك أراجون ، مما يتعذر معه على بلنسية أن تحافظ طويلا على استقلالها ؛ وهكذا فإنه بينما سار محمد بن سعد إلى غزو طرطوشة وطركونة من ثغور قطلونية ، وحاصرهما من البر والبحر ؛ بعد عدة وقائع دموية نشبت فى البر والبحر هزم فيها النصارى ؛ إذ سقطت بلنسية فى يد الموحدين بمالأة زعيم يدعى أبا بكر بن سفيان والى جزيرة شقر[1] . فلما وقف محمد بن سعد على سقوط عاصمته ، اضطر أن يرفع الحصار عن ثغور قطلونية وسار فى سفنه إلى جزيرة ميورقة ، وانتزعها من يد أصحابها ، وهم أبناء القائد المرابطى ابن غانية ؛ بيد أنه لم يمش طويلا ، وتوفى بعد ذلك بقليل فى رجب سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢م)[2] . ولما رأى أبناؤه أن النضال يضطرم بينهم وبين كثير من الزعماء ، وأن غارات النصارى والموحدين تلاحقهم بلا انقطاع ، وأنهم لايستطيعون الثبات أمام هذه الجمهرة من الأعداء ، عقدوا مع سلطان المرابطين أبى يعقوب يوسف معاهدة ، يتنازلون بمقتضاها عن جميع أراضيهم ، مشتملة على بلنسية ، ومرسية ، ومربيطر ، وشاطبة ، ودانية ، ولقنت ، وشقر ، ولورقة وغيرها ؛ وعلى الأراضى الواقعة فيما بين مصب نهر إيبرو ومدينة قرطاجنة ، وعلى مقربة من الجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، وأن يعوضهم عن ذلك بمناصب يتقلدونها وأراض تقطع لهم فى مملكته ؛ وتزوج أبو يعقوب يوسف أختاً لأمراء بلنسية (أعنى ابنة لابن مردنيش) توثيقاً للصداقة بين الأسرتين ؛ وهكذا استطاع الموحدون أن يوفقوا بحسن طالعهم إلى الحصول على أراض ما كانوا ليؤملوا

(١) راجع الحلة السيراء ص ٢٣٦ و ٢٣٧ .

(٢) تسمى الرواية العربيـة الموقعة التى هزم فيها ابن مردنيش وانتهت بسقوط دولته بوقعة الجلاب . راجع تفاصيل هذه الحوادث ، وفى سقوط دولة ابن مردنيش : ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٨ و ٢٤٠ ، والمراكشى ص ١٣٩ و ١٤٠ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ، ص ٢٢٠ و ٢٣٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٦٠ ، وابن الأثير ج ١١ ص ١٤٠ .

الحصول عليها بحد السيف . ولما كانوا قد استولوا بذلك على جنوبى اسبانيا الذى يسكنه المسلمون ، فقد عمدوا من ذلك الحين إلى توجيه غزواتهم إلى الممالك النصرانية المجاورة ، وكانوا يؤملون الظفر عليها بسهولة لما كان يسودها يومئذ من التفرق والخلاف .

ومكث أبو يوسف فى اسبانيا أربعة أعوام وبضعة أشهر ، نظم خلالها عدة غزوات ضد النصارى ، ففى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) خرج من إشبيلية إلى الغرب (غرب الأندلس) جنوبى البرتغال فى جيش ضخم ، وحاصر مدينة شنترين ، ثم سار إلى القنطرة بطريق بطليوس والبكرك ، واستولى عليها حسبما تقول الرواية العربية[١] ؛ ووصل الغزاة إلى مدينة ردريك ، ولكنهم لم يوفقوا فى الاستيلاء عليها . وبعد أن عاث الموحدون فى تلك الأراضى وخربوها ، عاد أبو يعقوب مثقلا بالغنائم ، وفى ركبه عدة آلاف من الأسرى النصارى ، قد صفدوا أزواجاً .

وفى العامين التاليين أعنى سنتى ٥٦٨ و ٥٦٩ هـ ، (١١٧٣ و ١١٧٤ م) أرسل أبو يوسف بقيادة أكابر القادة عدة حملات إلى ضفاف التاجة ، فعاث فى أراضى قشتالة أشد عيث . وفى الوقت الذى كان فيه آل كاسترو وآل لارا يخوضان معاً معركة على ضفاف دورة ، ويستنفدان بذلك قوى البلاد فى سبيل خصومتهما ، كانت حدود قشتالة الجنوبية تستهدف للضياع ؛ وكان فرسان قلعة رباح ، الذين سما شأنهم فى ذلك الحين ، يجاهدون لحفظ المملكة من السقوط ، بيد أنهم لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون رد الموحدين عن غزواتهم المخربة ، بالرغم من احتفاظهم بالقلاع التى يدافعون عنها . والروايات العربية عن هاتين الغزوتين غامضة ، ولا تتفق مع الروايات النصرانية ؛ فهى تقول فى شأن الغزوة الأولى إن الموحدين أحرزوا نصراً باهراً على الأمير سانشو أبى بزعة ، الذى كان يمتطى صهوة بغل عليه برذعة محلاة بالذهب والأحجار الكريمة ، وإنه لم ينج من جيش

---

(١) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٦١ ؛ وتسمى القنطرة هنا « قنصرة » وربما كان هذا تحريفاً فى الاسم .

النصارى — البالغ ثلاثين ألف مقاتل — أحد تقريباً ، وكان الأمير سانشو نفسه من القتلى [١]. أما الروايات النصرانية فلا تحدثنا بشيء عن هذه الغزوة ، كما أنها لا تحدثنا عن الغزوة الثانية التى حاصر الموحدون فيها طركونة ؛ هذا فى حين أن ألفونسو ملك أراجون كان عندئذ يغزو ولاية بلنسية ، وقد وضع حامية كبيرة فى حصن ترويل (سنة ١١٧٢ م) ومهد الطريق بذلك للزحف على الأراضى الواقعة جنوبى أراجون . أما فى البرتغال فقد وصل الأمير سانشو فى زحفه إلى لبلة ، ونشبت أمام باجة بينه وبين الموحدين الذين كانوا يحاصرونها ، موقعة انتصر فيها عليهم وأرغمهم بذلك على رفع الحصار .

ولم يقتصر أبو يعقوب يوسف أثناء مقامه فى اسبانيا على شهر الحرب وأعمال العنف ، ولكنه أراد أن يخلد ذكرى هذه الزيارة باقامة منشآت عظيمة يذكرها الخلف ؛ فأنشأ فى إشبيلية التى كان يقضى فيها معظم الوقت ، مسجداً فخماً ، بنى فى أقصر وقت ، وأنفقت عليه أموال عظيمة ، وأنشأ على النهر الكبير (الوادى الكبير) قنطرة من السفن تثبت معاً بالسلاسل ، وأقيمت على ضفتى النهر مخازن كبيرة للبضائع ، ومراسى يصلها الدرج بالنهر ؛ وأمر أيضاً بتجديد قسم من أسوار إشبيلية ، وزودت المدينة بالماء النقى بواسطة مواسير أنشئت لذلك .

ثم غادر أبو يعقوب يوسف اسبانيا وعاد إلى مراكش فى سنة ٥٧١ هـ (١١٧٠ م) ؛ ولكن الحرب ضد النصارى الأسبان استمرت على شدتها ، وذلك بالرغم من أن قوى الموحدين لم تكن من الكثرة كما كانت وقت مقامه بالأندلس . وفى العام التالى (١١٧٧ م) نشبت بين الموحدين والقشتاليين بجوار قونقة — فى مكان وعر بالجبال — موقعة شديدة ، واضطر فيها الموحدون إلى الانسحاب حينما هرع ألفونسو الثانى ملك أراجون ، والأمير بيدرو رويز دى أزاجرا إلى معاونة القشتاليين ؛ وربما كان هذا هو السبب فى أن الروايات العربية لم تذكر شيئاً عن

---

(١) هذه رواية ابن أبى زرع فى روض القرطاس (ص ١٣٩) ، وقد سمى فيها قائد النصارى فى هذه الموقعة « سانشو المعروف بأبى برذعة » ، والظاهر أن المقصود هنا هو أحد أمراء قشتالة ، وليس ملكها ، وقد كان ملك قشتالة يومئذ هو ألفونسو الثالث .

هذه الموقعة ، التى تعتبرها الرواية النصرانية من أهم المواقع ؛ وقد سقطت على أثرها قونقة فى يد النصارى .

واستمرت هذه الحال إلى سنة ١١٨٣ م ؛ وكان الموحدون يقومون فى كل عام تقريباً بالغزو فى أراضى النصارى ، ويقوم ملوك قشتالة والبرتغال وليون وأراجون من جهة أخرى بغزو اسبانيا الجنوبية (الأندلس) ، ويتراوح النصر سجالا بين الفريقين فى هذه المركة الدموية ، دون أن تسفر عن نتائج حاسمة ، أو حوادث ذات شأن ؛ ثم اتخذت الحرب وجهة أخرى ، وامتدت إلى مناطق لم تكن إلى ذلك الحين ضمن ساحات القتال . ذلك أن الموحدين ، وكذلك البرتغال وقطلونية وهما الدولتان البحريتان ، جهزوا الأساطيل ، ونشبت بين الفريقين عدة معارك بحرية فى مياه الجزائر الشرقية ، وعند مصب نهر التاجه ، وأمام شواطئ الغرب ؛ بيد أنها مثل المعارك البرية لم تسفر عن أية نتائج أو فتوح ذات شأن .

ولما رأى أبو يعقوب يوسف ضآلة النتائج التى أحرزتها قواته فى حروبه ضد النصارى ، استعد بنفسه للغزو ثانية ، وذلك بعد أن أتم تهدئة المغرب ، واستراحت الأمم المغربية من عصف الوباء الذى نزل بها ، وهلكت فيه جموع كبيرة ، من بينها عدد من إخوة الخليفة وأقاربه . وسار أبو يعقوب يوسف إلى سبتة فى أوائل سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) ، ولبث هنالك حتى اجتمعت لديه جيوش المغرب من زناتة ومصمودة ومغراوة وصنهاجة وغيرها من القبائل البربرية ؛ وتبع هذه الجيوش غير النظامية ، جيش الموحدين النظامى ، وهو حسن الدربة والتسليح ، وبعد أن عبرت هذه الجيوش إلى اسبانيا ، عبر أبو يعقوب يوسف فى حرسه وحاشيته ووزرائه ، ونزل بجبل طارق (أو جبل الفتح) فى شهر صفر من العام المذكور ، وسار إلى إشبيلية ، ليخرج منها توا إلى شهر الجهاد على النصارى .

وكانت البرتغال من بين الممالك النصرانية أشدها وطأة فى غزو أراضى الموحدين ؛ ولذا اعتزم أبو يعقوب يوسف ، أن يسحق أخطر أعدائه بتفوق قواته

بادئ ذى بدء ، حتى إذا عم الرعب من جراء انتصاره استطاع أن يخضع الممالك الأخرى بسهولة .

وكانت خطة زعيم الموحدين تقضى أولا بمهاجمة مملكة البرتغال من البر والبحر ، حتى ضفاف نهر دويرة ؛ ثم الزحف من على ضفاف التاجه ودويرة إلى قلب مملكتى قشتالة وليون ؛ بينما تشغل قوات النصارى جيوش إسلامية أخرى تزحف من الجنوب . وقد حشد لهذه الغاية قوات عظيمة ، واجتمعت إليه فضلا عن الجيوش المغربية الجرارة ، قوى مسلمى الأندلس ، وحشد أولاده السيد أبو إسحاق والى إشبيلية ، والسيد عبد الله أبو يحيى والى قرطبة ، والسيد أبو سعيد عبد الرحمن والى غرناطة ، والسيد أبو عبد الله والى بلنسية ومرسية ، ما لديهم من القوى ، بعد أن تركوا حاميات فى مدنهم ، وضمت إلى جيش أبيهم فى إشبيلية . وفى بعض الروايات النصرانية أن هذه الجيوش المجتمعة كانت تفوق فى الكثرة أى جيش آخر ، قاده ملوك إفريقية إلى اسبانيا ، وأن أبا يوسف حينما استعرض تواريخ الملوك السابقين ، وجد جيشه يزيد بمقدار ثمانية وسبعين ألف مقاتل ، عن أعظم جيش قاده المسلمون من إفريقية إلى الأندلس منذ عهد طارق بن زياد . وكذلك اجتمع للمسلمين أسطول عظيم من سفن القتال وسفن النقل ، مشحونة بالسلاح وآلات الحصار والمؤن ، عند مصبى نهرى الوادى الكبير ووادى يانة ، على أهبة لأن يؤيد من البحر جهود الجيش البرى ضد البرتغال .

وبادر أبو يوسف يعقوب بالخروج من إشبيلية ، لكى لا يترك للنصارى وقتاً للتسلح ، وإصلاح القلاع ، وتزويدها بحاميات كبيرة ومقادير احتياطية من المؤن ، والنزول إلى ميدان الحرب بجيش حسن الأهبة ؛ وسار على رأس الجيش الرئيسى متجهاً إلى بطليوس ، معتزما محاصرة أشبونة . بيد أن كان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بنجاح أن يستولى على قلعة شنترين الواقعة على مقربة منها على ضفة نهر التاجة اليسرى . وعلى ذلك فما كاد يعبر التاجه بجيشه حتى ضرب الحصار حول شنترين ، مؤملا أن تسقط فى يده قبل مقدم الأسطول الذى خصص لمحاصرة

أشبونة من جهة البحر ؛ ولما كان قد اجتمع لديه سبعة وثلاثون من الولاة فى قواتهم ، وكان ضرب المدينة بآلات الحصار متواصلا بالنهار والليل ، فإن الحامية التى لم تستكمل عدتها لم تقو على المقاومة إزاء هذا السيل الجارف ؛ فلم تمض ثلاثة أيام على مهاجمة المدينة ، أو أربعة عشر يوما على حصارها حتى استولى أبو يعقوب عليها خلا قلعتها ، التى استمرت حاميتها البرتغالية تدافع عنها بمنتهى البسالة ، وذلك فى ٢٢ ربيع الأول سنة ٥٨٠هـ (يوليه سنة ١١٨٤) . وقد كان أبو يعقوب يتولى القيادة بنفسه ، معتبراً القادة الذين معه آلات صماء لتنفيذ مشيئته ، وكان ذلك مما يثير فى نفوس أولئك القادة المجربين مرارة شديدة ؛ وكانوا قد اعترضوا من قبل فى مجلس الحرب ، على تحويل المعسكر من شرق شنترين إلى شمالها وغربها ، حيث يتعرض الجيش بذلك إلى خطر التطويق من جانب الأعداء . ولكن إرادة أبى يعقوب هى التى نفذت دون سواها .

ولما دخل الليل أمر أبو يعقوب ولده أبا إسحاق والى إشبيلية ، أن يبكر فى صباح اليوم التالى بالسير فى قوات الأندلس ، والقيام بالهجوم فى اتجاه أشبونة ، وذلك لكى يحمى الهجوم على قلعة شنترين من التعرض للمفاجأة من هذه الناحية . فهل وقع سوء فهم أم كانت ثمة فتنة ؟ ذلك أن أبا إسحاق ، سار فى الليل بدلا من أن يسير فى الصباح ، وبدلا من أن يسير فى اتجاه اشبونة عاد فعبر نهر التاجه ، وسار بقوات الأندلس فى اتجاه إشبيلية . وما كاد هذا النبأ يذاع بين بقية الجيش ، حتى انتشر الاضطراب والروع فى جميع المعسكر الإسلامى ، وتفاقم الأمر ، حينما زحف سانشو ابن ملك البرتغال ، على شنترين ليلا فى جيش يبلغ خمسة عشر ألف مقاتل . وفى تلك الأثناء كان أبو يعقوب يوسف قد شرع فى تنفيذ خطته لمهاجمة مدينة الكوبازة ، وأمر بذبح جميع الأسرى النصارى الذين كانوا فى معسكره وعددهم عشرة آلاف ، لكى لا تعوقه حراستهم . بيد أنه حينما تحول بمعسكره إلى المواقع الجديدة ، ألفى نفسه أمام الجيش البرتغالى وجهاً لوجه .

وكان تغيير مواقع المعسكر الذى أمر به أبو يعقوب وحده ، خلافا لنصح

قواده ، ووجود الجيش البرتغالى فى مركز يهدد المسلمين ، ومسير القوات الأندلسية وغيرها إلى ما وراء نهر التاجه ، وهو ما بدا كأنه حركة انشقاق ، وأخيراً ذيوع نبأ مالبث أن تأيد بمقدم جيش آخر من النصارى أعظم من سابقه ؛ كل هذه الأمور بثت فى معسكر الموحدين نوعا من الرعب العام ، ترتب عليه أن غدت أوامر الخليفة لا قيمة لها . وفى صباح اليوم التالى وصل جيش من النصارى يبلغ عشرين ألف مقاتل بقيادة أسقف شنت ياقب ، وانضم إلى الجيش البرتغالى الذى يقوده ولى العهد سانشو ؛ وبادر النصارى بمهاجمة الموحدين وهم فى اضطرابهم واختلال نظامهم ، وعاونت حامية قلعة شنترين مواطنيها بالخروج من القلعة ومهاجمة المسلمين .

ولما كان قسم كبير من قوى الموحدين ، قد عبر نهر التاجه ، فإنه لم يبق لدى أبى يعقوب سوى حرسه وقليل من القوات الأخرى ، وقوافل العتاد والمتاع ، التى لم تستطع لحاقا بباقى الصفوف لسرعتها ؛ ورأى زعيم الموحدين ، وهو يضطرم سخطاً ، أنه وقع ضحية الخيانة ، وأسلم إلى الأعداء ؛ ولكنه لم يرد أن يركن إلى الفرار شأن الجبان . وهكذا نشبت الموقعة وهجم النصارى على معسكر الموحدين وهم يصيحون « إليهم ، إليهم ! إليه ، أين هو ؟ »[1] ، ثم نفذوا إلى خيام الحرس ، وقتلوا رجاله جميعاً ، ووثبوا إلى خيمة الأمير ، ومزقوا كل ما حوت من الستور والبسط والفراش ، وقتلوا بعضاً من جواريه أشنع قتل ، أما أبو يعقوب فقد وثب إلى فرسه ، وأسقط منه ثلاث مرات ، وهو يقاتل بسيفه ستة من الفرسان النصارى ، وأخيراً طعنه أحدهم بسيفه طعنة نافذة فسقط إلى الأرض مضرجا بدمائه .

وفى تلك الأثناء استطاع عدة من الفارين من حرس الموحدين ، أن يتصلوا بالجيش المنسحب تحت إمرة أبى إسحاق ، وأن يبلغوه نبأ الموقعة وما أحاق بالأمير من خطر ؛ فارتد من فوره ليسعى إلى إنقاذ الأمير إن كان ثمة وقت ؛ وما كاد يعبر

(١) ورد فى روض القرطاس أن النصارى حينما هاجموا معسكر الموحدين كانوا يصيحون « الرى ، الرى » أى اقصدوا السلطان . (ص ١٤١) والرى هى بالأسبانية Rey أى الملك .

التاجه بجنوده مرة أخرى حتى نشبت بين المسلمين والنصارى معركة أخرى ، سالت فيها دماء الفريقين غزيرة ، وقاتل كل منهما بمنتهى البسالة .

ويوجد ما يحمل على الشك فيما تقوله الرواية العربية من أن المسلمين استولوا خلال هذه المعركة عنوة على شنترين ؛ بيد أنها تضيف إلى ذلك أن المسلمين أصيبوا بخسائر فادحة (والرواية النصرانية تقدر قتلى المسلمين بثلاثين ألفاً) ، وأنهم ارتدوا فى الحال إلى نهر التاجه ، وعبروه إلى الضفة اليسرى من قنطرة كانوا يحرسونها ، وانصرفوا إلى إشبيلية ، وتركوا معسكرهم غنيمة للنصارى بكل ما فيه من الذخائر والنفائس من كل ضرب ، كذلك بادر الأسطول الإسلامى ، الذى وصل إلى أشبونة مشحوناً بآلات الحصار والتخريب ، إلى الفرار حينما علم بنبأ الهزيمة التى حلت بأبى يعقوب أمام شنترين[1] .

أما مصير أبى يعقوب ، فيحيق به غموض ، يصعب استجلاؤه إزاء مختلف الروايات المتناقضة ، إذ أن مثل هذا الحادث بطبيعته ، مما يحمل فى البداية على إذاعة الأنباء الكاذبة إخفاء لموت الأمير ؛ وعلى ذلك فإنه ليس من المحقق ما إذا كان قد أسلم الروح فى الموقعة ، أو غرق فى النهر حين عبور الجيش الفار ، أو أنه توفى متأثراً بجراحه حين عودته إلى إشبيلية أو وصوله إلى الجزيرة الخضراء ،

---

(١) تورد الرواية العربية تفصيلا آخر لحوادث هذه الغزوة ، فتقول إن أبا يوسف يعقوب حاصر مدينة شنترين فى البداية وضيق عليها ، ثم أمر بنقل معسكره من موضع نزوله بجوفى شنترين إلى غربيها ، فأنكر المسلمون ذلك ، ولم يعلموا له سببا ، وأنه فى المساء أمر ولده السيد أبا إسحق ، أن يسير من تلك الليلة إلى غزو اشبونة فى جيوش الأندلس ، وأن يكون رحيله نهاراً ، فأساء الفهم وظن أنه أمره بالرحيل فى جوف الليل إلى إشبيلية . ثم تقول الرواية العربية : « إن الشيطان صرخ فى محلة المسلمين أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل ... » وتحدث الناس بذلك ورحل منهم طائفة بالليل ، ثم تتابع الناس فى الرحيل ، وأمير المؤمنين لا علم له بذلك ؛ وأن النصارى المدافعين عن شنترين لاحظوا عند طلوع النهار خلو المعسكر الاسلامى ، وتحققوا ذلك من جواسيسهم ، فهاجموه وضربوا فى محلة الحرس حتى وصلوا إلى خباء أمير المؤمنين ، وطعنه أحدهم ، بعد أن قتل منهم ستة رجال . ثم تضيف الرواية العربية إلى ذلك أن المسلمين عادوا فقاتلوا النصارى وهزموهم ودخلوا شنترين (راجع روض القرطاس ص ١٤٠ و ١٤١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ ، والمراكشى ص ١٤٥ و ١٤٦ وابن الأثير ج ١١ ص ١٩٠) .

أو وصوله إلى مراكش . وكانت وفاته فى ١٢ ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (٢٤ يوليه سنة ١١٨٤) . بيد أن الظاهر أنه لم يعش بعد الهزيمة[1] .

وحكم أبو يعقوب يوسف مملكة الموحدين الشاسعة بقوة وكفاية مدى اثنين وعشرين عاما . وكانت أكبر أخطائه ، رغبته فى أن يتولى جميع الأمور بنفسه ، وأنه بالرغم من فتوته قلما كان يحفل بنصح الشيوخ الناصحين ، أو يستمع إلى أحد فى العدول عن أمر تقرر . وقد ترتب على ذلك ، وعلى ما أوقعه من العقوبات الصارمة على الكبراء الذين ظلموا الشعب ، أن كثر أعداؤه بين شيوخ القبائل ورجال البلاط ، وربما كان ذلك من أسباب مصرعه أمام شنترين ؛ وكان أول ملك من ملوك الموحدين قاد الجيش بنفسه ضد النصارى فى اسبانيا ؛ وكان إلى جانب عظيم شجاعته وفروسته ، رقيق الشاعر ، فياض الجود فى كل مناسبة ؛ وكان وسيم الطلعة ، رقيق المحيا ، أبيض اللون مشربا بحمرة ، جميل العينين ، أقنى الأنف ، جعد الشعر ، حسن القد ، وافر الهيبة والجلال[2] .

٤ — يعقوب بن يوسف وموقعة الأرك

وخلف أبا يعقوب يوسف فى الحكم ولده عبد الله يعقوب بن يوسف وتلقب بالمنصور بفضل الله ؛ ولسنا نعرف إن كان قد ارتقى العرش لأنه كان أكبر إخوته ، أو لأن أباه اختاره لولاية عهده . ذلك لأن وراثة العرش لم تنظم وفقاً لقانون معين . وكان الأمير يختار ولى عهده وفق مشيئته ؛ وكان يعقوب المنصور ممن شهدوا موقعة شنترين ، فتولى قيادة الجيش مذ جرح أبوه ، وأخفى موته حتى عاد إلى المغرب ، وتمت بيعته فى مراكش فى الثانى من جمادى الأولى سنة ٥٨٠ هـ (سبتمبر سنة ١١٨٤) . .

---

(١) يضع صاحب روض القرطاس وفاة ابن يعقوب يوسف فى الثانى من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ ، ويقول إنه توفى من جراحه فى الجزيرة الخضراء (ص ١٤١) ، ويقول ابن الأثير إنه توفى من مرض أصابه تحت أسوار شنترين ، وحمل منها ميتاً إلى إشبيلية (ج ١١ ص ١٩٠) ، ويتردد ابن خلدون بين الروايتين فيقول إنه توفى من مرض نزل به ، أو من سهم أصابه فى حومة القتال (ج ٦ ص ٢٤١) ، وفى الحلل الموشية أن وفاته كانت بنهر تاجه فى قفوله من غزاة شنترين على ظهر دابته (ص ١٢٠) .

وعمل يعقوب فى بداية حكمه على اكتساب محبة الشعب ، بإخراج مقادير كبيرة من أموال الدولة وتوزيعها على الفقراء ، وبعث أوامره إلى الولايات باطلاق المسجونين الذين اعتقلوا لذنوب ثانوية ، وتعويض الذين ظلموا أيام أبيه ، كما أمر باسقاط المكوس التى لم يتم أداؤها . ورفع مرتبات القضاة والفقهاء فى جميع أنحاء المملكة ، وزاد أجور الجند فى جيش الوحدين النظامى ، وحصن الحدود فى جميع الأماكن التى يخشى عليها ، وشحن القلاع بطوائف مختارة من الجند ، وطاف بجميع أنحاء المغرب ليتحقق بنفسه من تنفيذ أوامره ، وليعرف ماذا يجب إجراؤه من الأعمال الضرورية ؛ ونفذ عدة مشاريع خيرية ، فأنشأ كثيراً من المساجد والمدارس ، وأنشأ البيمارستانات (المستشفيات) للمرضى ، ورصد لها أموالا للنفقة ، وفتحها أيضاً لإيواء العجزة والعمى يؤمونها من جميع أنحاء المملكة . وعنى بتسهيل المواصلات والسفر ، فأنشأ فى الطرق الرئيسية وطرق القوافل أبراجاً ، وأحواضاً لخزن الماء ، وآبارا للاستسقاء ، وفنادق لنزول المسافرين . كذلك كان المنصور صديقاً ونصيراً للعلماء ، وقد أنشأ لهم المعاهد ، وقسمهم إلى طبقات ورتب معينة ، وأجرى عليهم الأرزاق كل وفق رتبته ؛ وكان يؤثر بالأخص الأطباء والمشرفين على المستشفيات[١] .

وما كاد يعقوب المنصور يعتلى العرش ، حتى قامت عدة ثورات عنيفة ، كما يحدث غالباً عند تغيير الحكم فى الأمم الاسلامية . ذلك أن المرابطين الذين ألفوا ملاذهم الأخير فى الجزائر الشرقية (البليار) ، واستطاعوا أن يحتفظوا بها هادئين فى عهد محمد بن سعد أمير بلنسية ، ومن بعده فى عهد أبى يعقوب يوسف ، تحركوا فجأة ، حينما علموا بهزيمة الوحدين فى شنترين ، ووثب على بن إسحاق سليل القائد المرابطى الشهير بابن غانية ، فاستولى — بمعاونة أنصاره الكثيرين — على الأسطول الأندلسى الراسى فى ميورقة ، وشحنه بالمرابطين وأهل الجزائر الشرقية ، وأبحر إلى بجاية من ثغور الجزائر ، فاستولى عليها دون مقاومة ، وأخرج منها

(١) راجع روض القرطاس ص ١٤٣ .

والبها القاضى سليان بن عبد الله حفيد أمير المؤمنين ، وأمر أن يدعى فى الخطبة للخليفة العباسى الناصر لدين الله ، واستطاع أن يضرم نار الثورة ضد الموحدين فى جميع المناطق المجاورة[١] .

وشجع نجاح هذا المشروع بعض الزعماء الناقمين على الثورة ضد سلطان الموحدين ؛ بل إن أخوين من إخوة المنصور هما السيد أبو يحيى والسيد عمر ، وعمه السيد أبو الربيع ، كانوا فيما يبدو على تفاهم مع الثوار ؛ ولكن المنصور وقف على أمرهم ، قبل أن يستطيعوا تدبير الخطط معهم ، وأمر بالقبض عليهم وإعدامهم ؛ واستمر المنصور يجاهد حتى سنة ٥٨٤ه (١١٨٨م) ، حتى استطاع أن يقضى على الثورة بالقوة القاهرة ، وأن يرد جموع الثائرين إلى الطاعة ، والمرابطون من بينهم ؛ وكان هؤلاء قد قويت شوكتهم بما يتلقونه من سلاطين مصر من إمداد الجند ، وكانوا قد أحرزوا النصر مرارا ، واستطاعوا الاستيلاء على فاس عاصمة مراكش الثانية ، وسقطت فى أيديهم طرابلس ، وهى ثغر بحرى هام . ولكن المنصور هزم الثوار فى فاس فى معركة كبيرة ، واسترد المدينة ، وقتل أهلها عقابا لهم على انضمامهم إلى المرابطين ، وأخمد الثورة فى الولايات بمثل هذا الإرهاب والعنف[٢] .

وما كاد يعقوب المنصور يعيد السكينة إلى المغرب ، حتى فكر فى أمر الجهاد ضد النصارى فى اسبانيا ؛ وكان النصارى قد قاموا فى تلك الأثناء بعدة غزوات فى الأندلس ، أحرزوا فيها النصر تارة ، وأصيبوا بالهزيمة تارة أخرى . وعبر المنصور إلى الأندلس فى ربيع الأول سنة ٥٨٥ ه (١١٨٩ م) ، وتقول الرواية العربية إنه سار بجيشه توا إلى شنترين وأشبونة ، لكى ينتقم لهزيمة والده ومقتله ، وإنه عاث أثناء سيره فى المروج ، وأحرق القرى ، ونهب الضياع ، وقتل السكان أو سباهم ، وذهب فى العيث والتخريب إلى أروع الحدود ، حسبما يقول المؤرخون المسلمون

(١) راجع تفاصيل غزوات ابن غانية لثغور إفريقية فى ابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٤ .
(٢) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٤ .

أنفسهم[1] . بيد أن المنصور ، لم يقم — بالرغم من هذا التخريب — بأية فتوح ، ولكنه خرج من هذه الغزوة بغنائم عظيمة ، وثلاثة عشر ألفاً من السبي بين نساء وأطفال ؛ واضطر أن يعجل بالعود ، إذ وقعت فى المغرب اضطرابات جديدة تقتضى سرعة العود ؛ وهكذا عاد إلى فاس فى شهر رجب من نفس العام (٥٨٥ هـ) .

وقامت عندئذ فى إفريقية الشرقية (تونس) ثورة عمد المنصور إلى إخمادها ، ورحل من أجل ذلك فى جيشه إلى تونس ؛ فانتهز البرتغاليون فرصة غيبته ليقوموا بفتوح فى جنوبى البرتغال وفى ولاية الغرب .

وحدث فى ذلك الحين بالذات أن قدم أسطول من ستين سفينة تحمل جيشاً من الصليبيين قوامه عشرة آلاف مقاتل ، من ولايات الرين الألمانية ، والاورين وفرزلاند ، إلى شواطئ جليقية ، فى طريقهم إلى المشرق ، ورسا على مقربة من شنت ياقب ، ونزل كثيرون ليقوموا بزيارة قبر هذا القديس فى كومبستل . ولكن أهل كومبستل توجسوا شرا مما شاع حول هؤلاء الأجانب ، وكونهم قدموا لاغتصاب رأس القديس ياقب ، وربما أيضاً لنهب الذخائر التى كدست فى قبره ، فتقلدوا أسلحتهم ، وحالوا بالقوة دون دخول الصليبيين إلى المدينة ، فوقعت بين الفريقين معركة سال فيها الدم من الجانبين ، وعاد الصليبيون على أثر ذلك إلى سفنهم .

وفى نفس هذا الوقت أيضاً قدم أسطول آخر من الصليبيين من إنكلترا والفلاندر ، ورسا قبالة اشبونة ؛ ولما كان الوقت متأخراً وقد دنا الشتاء ، فقد استطاع سانشو ملك البرتغال ، أن يحملهم على الاشتراك معه فى القيام بغزوة مشتركة ضد المسلمين فى ولاية الغرب . والظاهر أن الصليبيين الذين رسوا عند شاطئ جليقية ، قدموا أيضاً إلى البرتغال وانضموا إلى الجيش البرتغالى ، وأمدهم الملك سانشو بثلاثين سفينة أخرى ضمت إلى أسطولهم ، وهكذا أعد أسطول ضخم ؛ وبينما أرسل سانشو إلى باجه ويابره اللتين فقدهما فى الأعوام الأخيرة ،

(١) هذه رواية ابن أبى زرع فى روض القرطاس (ص ١٤٤) .

واللتين لم تكن تحرسهما حاميات قوية ، جيشاً غزاها واستولى عليهما ، إذ سار الأسطول إلى الجنوب قبالة لسان ولاية الغرب ، وأنزل جيشاً إلى البر على غرة من المسلمين ؛ وحاصر النصارى فى الحال مدينة شِلْب ، وقطعوا عنها موارد الماء ، فاضطرت إلى التسليم ، وعقدت مع الملك سانشو دون علم الصليبيين عهداً بالخضوع ، بيد أن ذلك لم ينجها من مصيرها المروع ؛ ذلك أنه لم ينج من سكانها الستين ألفاً بينهم الحامية ، سوى ثلاثة عشر ألفاً ، وسبي الباقون أو قتلوا . وقسمت الغنائم وفقاً لاتفاق سابق بين الصليبيين ، ولكن المدينة ، كانت من نصيب الملك . واستقر كثير من الإنكليز فى شلب ، واختاروا قساً من قسس الأسطول ، من أهل فلاندر ، يدعى نقولاوس ، أسقفاً للمدينة ، على أنه كان من الصعب على هؤلاء النزلاء الأجانب أن يألفوا الحياة بين السكان المسلمين ، مثل النصارى البرتغاليين والأسبان ؛ وقد ظهر ذلك فى كل مناسبة ، مثال ذلك أنهم حين وصولهم إلى مصب نهر التاجه ، حيث يقيم فى أشبونة كثير من اليهود والمسلمين ، تحت حماية النصارى ، ارتكبوا كثيراً من أعمال العنف والتعدى ضد اليهود والمسلمين .

ويبدو من المشكوك فيه ما إذا كانت شلب قد لبثت طويلا فى أيدى النصارى ؛ وتلزم معظم الروايات النصرانية الصمت إزاء استردادها السريع بواسطة الموحدين ، بل تزيد على ذلك أن المدينة استطاعت أن ترد جميع هجمات المسلمين بنجاح ، بواسطة شجاعة حاميتها ، والأمداد السريعة التى لقيتها من الملكين المتحالفين ، ملكا البرتغال وليون ، وكذلك بواسطة معاونة الأسطول الإنكليزى . أما المؤرخون المسلمون ، ومعهم ردريك الطليطلى ، فيقدمون رواية أخرى مفادها أن الموحدين جمعوا فى الحال قوات عظيمة ، وساروا بقيادة محمد والى قرطبة إلى شلب ، وفرضوا عليها الحصار الصارم ، ولبثوا على مهاجمتها بشدة بالليل والنهار حتى استولوا عليها ؛ وكذلك سقطت فى أيديهم القصر (قصر أبى دانس) ، وباجه ويابره ، وسبوا ثلاثة عشر ألف رجل ، وخمس عشرة ألف امرأة ، وضموا فى الأغلال كل خمسين فى سلسلة ، وسيقوا إلى

قرطبة ، وكان اختتام هذه الغزوة فى شهر شوال سنة ٥٨٧ هـ (نوفمبر سنة ١١٩١)[١] .

وهدأت الحرب فى الأندلس بضعة أعوام . ذلك أن سلطان الموحدين كان عليه أن يخمد ثورات جديدة فى إفريقية ، وقد أصابه المرض فى مراكش ، ولم يستطع أن يتولى أمر الحرب بنفسه . ووقع الخلاف بين الملوك الأسبان فى تلك الفترة ، فلم يكن من الميسور أن يفكر أحد فى القيام بغزوة مشتركة ضد المسلمين ، وشغلت البرتغال وليون بأمر قرار الحرمان البابوى ، كما شغلت أراجون وناقارا بالخلاف مع جيرانهما فى فرنسا ؛ وهكذا وقع عبء الحرب ضد المسلمين كله على عاتق قشتالة . ولكن الملك ألفونسو كان عندئذ أحرص من أن يثير المسلمين فيغريهم بالسير إلى الغزو . بيد أنه لما عين مارتن دى بسيرجا ، مطراناً لطليطلة عقب وفاة المطران جونزالو ، أخذ هذا الحبر المحارب المتحمس ، يعمل لإعداد حملة كبيرة ضد الأندلس . وفى العام التالى من ولايته ، سار على رأس جيش ضخم إلى ميدان الحرب مرة أخرى . وشجعه ضعف الحاميات الاسلامية على الحدود ، ونبأ مرض يعقوب المنصور ، فاخترق جبال الشارات (سييرا مورينا) ، وسار بحذاء نهر الوادى الكبير إلى أعماق الأندلس ؛ ودمر النصارى كل شيء بالنار والسيف ، فانتسفت الغلات والكروم ، وقطعت أشجار الزيتون ، وخربت الضياع والقرى ، وسيقت الماشية ، وسبى المسلمون العزل رجالا ونساء ، وقتل المسلحون منهم ؛ وهكذا كفر مسلمو الأندلس الأبرياء عن فظائع الموحدين ، ولم يسعفهم عون ولا نصح يردون به العدو عن هذه الفعال المنيفة . وزحفت قوى خفيفة من الفرسان النصارى حتى أحواز إشبيلية وإستجه ، وإلى أقصى جنوب الأندلس وهم يتابعون العيث والتخريب[٢] .

(١) راجع روض القرطاس ص ١٤٤ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٤ و ٢٤٥ ، والمراكشى ص ١٥٨ .
(٢) روض القرطاس ص ١٤٥ .

ولم يقنع ألفونسو الثالث ملك قشتالة بهذه الغزوة ، التي حمل منها المطران مارتن إلى طليطلة غنائم عظيمة ، فكتب إلى سلطان الموحدين خطاباً يدعوه إلى القتال هذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من ملك النصرانية إلى أمير الحنيفية ، أما بعد ، فإن كنت عجزت عن الحركة إلينا ، وتثاقلت عن الوصول والوفود علينا ، فوجه لي المراكب والشباطي أجوز فيها جيوشي إليك ، حتى أقاتلك في أعز البلاد عليك ، فإن هزمتني فهدية جاءتك إلى يدك ، فتكون ملك الدينين ، وإن كان الظهور لي كنت ملك الملتين ، والسلام »[1] .

فلما قرأ يعقوب المنصور هذا الخطاب أخذته غيرة الإسلام ، واشتد حنقه لغطرسة ملك النصارى ، فبادر بالتأهب للحرب في الأندلس ؛ وأمر أن يذاع الخطاب في جنود الموحدين ليثير غيرتهم ؛ وضج الجميع وصاحوا بطلب الانتقام ، وأجمعوا على المطالبة بالإسراع في شهر الجهاد ؛ وأمر المنصور ولده ، وولى عهده السيد محمد ، بالرد على الخطاب ، فكتب في الحال على ظهره الآية القرآنية الآتية : « قال الله العظيم ، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » . ووقع المنصور هذا الرد وأرسله إلى ملك النصارى ، وأمر بإخراج أفراق القبة الحمراء ، وسيفه الكبير ، إيذاناً بالدعوة العامة إلى الجهاد ؛ وأمر الجند الذين اجتمعوا من كل صوب بالسير تواً إلى سبتة ، وإلى غيرها من أمكنة العبور إلى الأندلس . ودوت صيحة الجهاد في جميع أنحاء المغرب من سلا حتى برقة ، ضد النصارى الذين غدوا خطراً على الإسلام . وفي نفس الوقت الذي سارت فيه سائر جند الغرب النصراني إلى محاربة صلاح الدين واسترداد بيت المقدس ، هرع الرجال والشباب والشيوخ وسكان الهضاب والصحارى والشواطئ

---

(١) هذا نص كتاب ملك النصارى كما ورد في روض القرطاس (ص ١٤٥) ويورده المؤلف بنفس المعنى تقريبا مع خلاف يسير في العبارة . ولكن ابن خلكان ينقل إلينا نصا آخر أكثر تفصيلا لكتاب ألفونسو إلى المنصور ، يتفق آخره فقط مع النص الذي ورد في روض القرطاس ، غير أنه يبدو من ديباجة هذا الكتاب ومحتوياته أنه هو الذي وجهه ألفونسو السادس ملك قشتالة إلى يوسف بن تاشفين (راجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ ، ٤٣٠) .

فى جميع أنحاء المغرب إلى ألوية القتال لافتتاح اسبانيا ؛ وأخذ الخطر الداهم ينذر الغرب ، فى الوقت الذى حاول النصارى فيه أن يرفعوا الصليب فى المشرق .

وبعد أن سير يعقوب المنصور جميع قواته إلى اسبانيا ، عبر إلى الجزيرة الخضراء فى ٢٠ رجب سنة ٥٩١ هـ ، ولم يسترح بها إلا قليلا ، ثم بادر بالسير إلى قشتالة ، خشية من نفاد المؤن ، ولكى يستغل حماسة جنده وظمئهم إلى القتال . وكانت خطة زعيم الموحدين ترمى أولا إلى اختراق قلب اسبانيا وافتتاح طليطلة ، ومتى ظفر ببغيته استطاع أن يحارب الممالك الأخرى بسرعة وسهولة . ولكنه لما علم بأن ملك قشتالة ، قد حشد قواه بين قرطبة وقلعة رباح على مقربة من قلعة الارك Alarcos اتجه بجيشه إلى ذلك المكان ، إذ كان يسعى إلى الاشتباك بعدوه . ولما وصل إلى قيد مسيرة يومين منه ، ضرب معسكره فى يوم الخميس الثالث من شعبان سنة ٥٩١ هـ (يوليه سنة ١١٩٥ م) ، وعقد مجلساً من القادة والأشياخ لبحث الخطط التى يجب اتباعها لخوض القتال .

ولما سمع رأى الجميع ، التفت إلى زعماء الأندلس ، وطلب رأى أبى عبد الله ابن صناديد ، وقد كان من أعقلهم وأخبرهم بمكائد الحروب . وكان يعقوب المنصور يفضل آراء الأندلسيين فى معرفة أفضل الخطط لمحاربة النصارى ، إذ أنهم يخوضون الحرب مع جيرانهم بلا انقطاع ، وهم لذلك أعرف الناس بطارق النصارى ومكائدهم ؛ وكان من رأى ابن صناديد أنه يجب أن توضع خطة موحدة منظمة لتسيير دفة الحرب ، إذ كان هذا التوحيد والنظام ينقصان الموحدين فى حروبهم السابقة ، ولا سيما فى موقعة شنترين ، وأنه يجب أن يختار أمير المؤمنين قائداً عاماً للجيش كله ؛ فوقع اختيار المنصور على كبير وزرائه ، الزعيم الأشهر أبى يحيى بن أبى حفص ، الذى امتاز بالفطنة وصفاء الذهن ، والشجاعة فى كثير من الحروب والوقائع .

كذلك يجب أن يتولى قيادة الأندلسيين زعماؤهم ، وهو ما لم يُتبع دائماً ، فكان يترتب على ذلك اضطراب الصفوف أثناء المواقع ، وكانت حماسة الأندلسيين تهبط حينما يتولى الأجانب قيادتهم . على أنهم مع ذلك كانوا يؤلفون قسما مستقلا

من الجيش ينضوى تحت لواء القائد العام أبي يحيى بن أبي حفص . ولما كان الأندلسيون والموحدون أو الجند المغاربة النظاميون يؤلفون قوة الجيش الرئيسية ، فقد نصح عبد الله بن صناديد بأن يتولى هؤلاء ، لقاء العدو ومواجهة هجومه الأول . وأما بقية الجيش ، وهي المؤلفة من قبائل البربر ، ومعظمهم من غير النظاميين ، وجمهرة كبيرة من المحاربين والمجاهدين ، فيجب أن تكون قوة احتياطية للموحدين والأندلسيين ، تقوم بالعون والإمداد ؛ أما يعقوب المنصور فيستطيع بحرسه الأبيض والأسود ، أن يرجح كفة الموقعة كلها ، ويجب أن يرابط بقوته وراء التلال على مسافة قريبة ، ثم ينقض فجأة بجنوده المتوثبين على الأعداء المتعبين ، ويبادر بحضوره إلى تدعيم النصر المكسوب . كل هذه الآراء أبداها الزعيم الأندلسي ، وأعجب المنصور بهذه الخطة ، فوافق عليها وأمر بتنفيذها[١] .

وفي تلك الأثناء كان ألفونسو ملك قشتالة يجد في الأهبة ؛ وقد استطاع أن يقوم بالنسبة إلى مملكته الصغيرة بحشد قوات هائلة ، وقدم إليه فرسان قلعة رباح وفرسان الداوية ، وفروسية قشتالة بأسرها وكذلك الأجناد أعظم المساعدات الممكنة . فاذا صح ما يقال من أنه استطاع أن يحشد أكثر من مائة ألف مقاتل (والرواية العربية تقدر جيشه بثلاثمائة ألف) ، فان هذه القوة لم تكن إزاء قوى أعدائه التي لا تحصى ، لتكفي لإحراز النصر عليهم . وقد رأى إزاء هذا الخطر الذي يهدد جميع الممالك النصرانية ، أن يطالب إلى قريبيه ملكي ليون ونافارا ، تناسي الخصومات التي فرقت بينهم من قبل ، وأن يضما قواهما إلى قوته ليلاقي الجميع أعداء دينهم مجتمعين ، فوعدا بالعون والسير إليه بدفعهما فيما يبدو تحريض الأجناد والشعب أكثر مما تدفعهما الرغبة الخالصة ؛ وجمعا الجند ، وتوليا القيادة بنفسيهما ولكنهما تحركا في كثير من البطء ، حتى أن ملك قشتالة أخذ يشك بحق في صدق نيتهما ، وكاد يعتقد أنهما يضمران من العدوان ضد قشتالة ، أكثر مما يحفزهما من رغبة في محاربة المسلمين . ورأى إزاء هذا الريب ، أن أفضل ما يجب

(١) راجع روض القرطاس (ص ١٤٧) حيث يورد هذه الأخبار بالتفصيل .

عمله هو أن يترك أساليب الأسبان القديمة فى الحرب ، وهى تقضى بتجنب الاشتباك فى المواقع والامتناع بالقلاع ، حتى ترغم قوى المسلمين الجرارة على الانسحاب ، إما لنفاد المؤن أو تفشى الأمراض ، أو حلول الشتاء . ولكن ألفونسو رأى ، وهو سيد جيش ضخم ، حسن الأهبة ، أنه من العار أن ينسحب أمام العدو ، خصوصاً وقد كان يؤمل أنه يستطيع بمفرده أن يحرز نصراً باهراً على جيوش إفريقية التى لا تحصى .

وفى ١٩ يوليه سنة ١١٩٥ ، الموافق ٩ شعبان سنة ٥٩١ ، كانت موقعة الأرك الشهيرة . وفى صباح هذا اليوم ، أذاع يعقوب ، بين سائر الجند ، لكى يذكى حماستهم للقتال ، خبر حلم رآه فى الليلة السابقة ، مفاده أنه رأى فى منامه فارساً نبيل الطلعة ، على فرس أبيض يخرج من باب فتح فى السماء ، وبيده راية خضراء قد انتشرت فى الآفاق ، يقول له إنه من ملائكة السماء السابعة ، وإنه جاء ليبشره بالنصر بحول الله[1] ، وقد نُظّم جيش الموحدين ، الذى تقدره بعض الروايات بستمائة ألف مقاتل ، والذى كان يضم ضمن وحداته قوى ثلاثين من الولاة على النحو الآتى : احتل الموحدون ، أو القوات النظامية القلب ، واحتل الجناح الأيسر الجندُ العرب أو أعقاب فاتحى المغرب المسلمين ، ومعهم زناتة وبعض القبائل البربرية الأخرى ، تحت ألويتهم الخاصة ؛ واحتل الجناح الأيمن قوى الأندلس بقيادة عبد الله بن صناديد .

وتولى يعقوب المنصور قيادة القوة الاحتياطية مكونة من صفوة الجند والحرس الملكى . ودُفعت صفوف المتطوعين ، ومعظمها مكون من الجنود الخفيفة ، ولا سيما حملة النبال ، تحت أعلامها الخضراء ، وهو لون الموحدين إلى المقدمة ، لتفتتح الموقعة ، وهم جميعاً يضطرمون شوقاً إلى الفوز بتاج الاستشهاد .

وكذلك نظم ملك قشتالة ، فى تلك الأثناء ، جنده المتوثبة إلى القتال ؛ وكانت قلعة الأرك تحمى موقعه من جانب ، وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال ، ولا

(١) روض القرطاس ص ١٤٧ .

يمكن الوصول إليه إلا بواسطة طرق ضيقة وعرة . وكان الجيش القشتالى يحتل موقعاً عالياً ، وكانت هذه ميزة له فى بدء القتال .

ولما تقدمت صفوف المسلمين الهاجمة ، إلى سفح التل الذى يحتله ملك قشتالة ، واندفعت إليه تحاول اقتحامه على أثر كلمات قائدها الملتهبة ، انقض زهاء سبعة أو ثمانية آلاف من الفرسان القشتاليين المثقلين بالدروع ، على المسلمين كالسيل الجارف المندفع من عل ؛ ورد المسلمون هجمات القشتاليين مرتين ، ولكن العرب والبربر استنفدوا جميع قواهم لرد هذا الهجوم العنيف . فلما عززت صفوف القشتاليين بقوى جديدة ، هجموا للمرة الثالثة ، وضاعفوا جهودهم ، واقتحموا صفوف العدو ، وفرقوها ، وقتلوا قسما منها ، وأرغم الباقون على الفرار ، ولقى آلاف من المسلمين مصرعهم فى تلك الصدمة ، ومنهم القائد العام أبو يحيى ابن أبى حفص ، الذى سقط وهو يقاتل بمنتهى البسالة ، واعتقد النصارى أن النصر قد لاح لهم ، بعد أن حطموا قلب جيش الموحدين ؛ ولكن الأندلسيين وبعض بطون زناتة ، وهم الذين يكونون الجناح الأيمن ، هجموا عندئذ بقيادة أبى عبد الله بن صناديد ، على قلب الجيش النصرانى ، وقد أضعفه تقدم الفرسان القشتاليين ، وكان يتولى قيادته ملك قشتالة نفسه ، يحيط به عشرة آلاف فارس فقط ، منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح ؛ فلقى الأعداء ، وهم أضعاف قوته دون وجل ؛ ونشبت بين الفريقين معركة حامية طويلة ؛ واستبدل النصارى النقص فى العدد بالإقدام والشجاعة ، حتى أنه لما زحف زعيم الموحدين فى حرسه ، ورد تقدم الفرسان القشتاليين ، واضطرهم إلى الفرار فى غير انتظام ، لم يغادر ألفونسو وفرسانه العشرة آلاف مكانهم فى القلب ؛ ذلك لأنهم أقسموا جميعاً فى الصباح عند الصلاة ، بأن يموتوا ولا يتقهقروا . واستمرت المعركة على اضطرامها المروع ، والفريقان يقتتلان تحت سحب كثيفة من الغبار ، وأرجاء المكان تدوى بوقع حوافر الخيل ، وقرع الطبول ، وأصوات الأبواق ، وصلصلة السلاح ، وصياح الجند ، وأنين الجرحى . ومع أن الموحدين كانوا يتقدمون فوق أكداس من جثث

جندهم ، فإنهم أيقنوا بالنصر ، حينما انحصرت المقاومة فى فلول من النصارى التفت حول ملك قشتالة ؛ وهجم أمير المؤمنين فى مقدمة جيشه ، لكى يجهز على هذه البقية أو يلجئها إلى الفرار ، فنفذ إلى قلب الفرسان النصارى ، والعلم الأبيض المقدس يخفق أمامه منقوشاً عليه « لا إلـه إلا الله ، محمد رسول الله ، لا غالب إلا الله » . ولم يشأ ألفونسو ، بالرغم من اشتداد ضغط العدو عليه من كل صوب ومواجهته لخطر الهلاك والسحق ، أن ينقذ نفسه بالفرار ، وأن يحتمل عار الهزيمة ؛ وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم مخلصين لعهدهم ، ولكن بقية قليلة منهم استطاعت أن تنجو ، وأن تقتاد الملك بعيداً عن الميدان ، وأن تنقذ بذلك حياته .

وهكذا انتهى يوم الأرك الدامى بهزيمة النصارى على هذا النحو المروع . وسقط منهم فى القتال ثلاثون ألف قتيل ، بينهم زهرة الفروسية الأسبانية ؛ واستولى المسلمون على معسكرهم بجميع ما فيه من المتاع والمال ، واقتحموا عقب الموقعة حصن الأرك وقلعة رباح النيمنين ؛ ومما زاد فى ألم الأسبان أن هذه الهزيمة لم تلحق بهم دون معاونة بعض النصارى الفارين الذين كانوا يرافقون زعيم الموحدين ويمدونه بالنصح ؛ وكان فى مقدمة هؤلاء الكونت بيدرو فرنانديز دى كاسترو ، المبعد من قشتالة ، فقد أبدى نشاطاً خاصاً فى المعاونة على سحق وطنه[1] .

وسرعان ما رفع انتصار الأرك شهرة الموحدين الحربية فى كل مكان ؛ وأمر يعقوب المنصور بإذاعة النبأ من منابر المساجد فى جميع أنحاء مملكته الشاسعة ؛ وخصص خمس الغنائم بعد أن وزع باقيها على الجند لبناء مسجد فخم فى إشبيلية

(١) يتبع المؤلف فى معظم التفاصيل التى يوردها عن موقعة الأرك ، رواية صاحب روض القرطاس (ص ١٤٥ وما بعدها) . وراجع أيضاً فى تفاصيل هذه الموقعة ، ابن خلكان ج ٢ ص ٤٣٠ ، والمراكشى ص ١٦٠ ، ويسمى مكان الموقعة بفحص الجديد ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٤٤ و ٤٥ .

اشتهرت منارته بارتفاعها البالغ[١] وبنـاء حصن كبير فى مراكش لتخليد ذكرى الموقعة .

ومما يذكرهنا بالثناء لزعيم الموحدين ، أنه لم يُشين صفحة نصره بالالتجاء إلى قسوة لا مبرر لها ، فى معاملة الأسرى والعزل . فقد أسر المسلمون فى موقعة الأرك عشرين ألفاً ، ولم يشأ المنصور جرياً على سنن الحرب المتبعة يومئذ أن يقتلهم أو يرسلهم عبيداً إلى إفريقية بل آثر أن يمنحهم جميعاً الحرية دون افتداء ؛ وقد ساء وقع هذا الجود لدى الموحدين ، واعتبروه من بعض جوانب فروسته الضعيفة ؛ وتقول الرواية العربية إنه ندم على تصرفه فيما بعد[٢] .

ولم يبلغ سلطان الموحدين قط ما بلغه عقب موقعـة الأرك . وقد اجتمعت عوامل عدة لتحدث هـذه النتيجة . ولم يكن ينقص الممالك النصرانية الخمسة الاتحاد فقط ، بل إن قشتالة التى كاد أن يقضى عليها الموحدون ، غدت فريسة حرب شهرتها عليها ليون وناڤارا . وكانت هاتان الدولتان تقومان فى الواقع عندئذ بمفاوضات سرية لعقد تحالف مع الموحـدين . وكانت أراجون قد أدركها الوهن عقب وفاة ملـكها ألفونسو الثانى ، وفرقتها الحروب الأهلية . أما البرتغال فلم تـكن تستطيع دون معاونة خارجيـة أن تقوم بمشروع ما ، وإن كان مما يجب ذكره أنها كانت مع ذلك أشد الدول النصرانية وطأة فى محاربة المسلمين .

ورأى يعقوب المنصور أن ينتهز فرصة هذه الظروف السانحة ، فقام فى أوائل سنة ١١٩٦ م (٥٩٢ هـ) بغزوة جديدة فى قلب الأراضى النصرانيـة . واخترق ولاية استرامادوره ، وعبر النهر الـكبير (الوادى الـكبير) فى اتجاه نهر التاجه ، وبعد أن استولى على عدة حصون وقلاع مثل ترجاله ، وعسقلونة ، ولاليا ، وامتنع

---

(١) حول هذا المسجد الشهير إلى كنيسة جامعة بعد استيلاء النصارى على إشبيلية (سنة ١٢٤٨ م) وحولت منارته إلى برج للناقوس ، وهى لا تزال قائمة إلى يومنا ، وتعرف ببرج الجيرالدا La Giralda ، وارتفاعها يبلغ نحو مائة متر ، وتعتبر من أبدع قطع الفن المختلط ، المغربى النصرانى .

(٢) هذه رواية صاحب روض القرطاس (ص ١٥٢) .

عليه البعض الآخر مثل طلبيره ومجويده ، ظهر أمام أبواب طليطلة عاصمة قشتالة ؛ وكان ألفونسو ملك قشتالة ، قد امتنع مع جيشه الصغير بعاصمته ولم يجرؤ أن يحارب العدو فى الميدان المكشوف نظراً لانكسار أنفس جنده وقلة عددهم . بيد أنه كان معتزماً أن يدافع عن طليطلة عاصمة اسبانيا النصرانية حتى النفس الأخير ، وأن يلقى الموت قبل أن يخضع للعدو . ولما رأى المنصور بعد أن حاصرها عشرة أيام أن جميع محاولاته لاقتحام هذا المعقل المنيع لم تسفر عن النجاح ، ارتد عن أسوار طليطلة إلى مدينة طلمنكة ، واقتحمها ، وقتل كل جنودها ، وسبى النساء والأطفال ، وقسم كل الغنائم بين جنده ، وأحرق المدينة وهدم حصونها ؛ وفعل مثل ذلك بوادى الحجارة وعدة أماكن أخرى . ولكن مجريط والقلعة امتنعتا عليه ولم يوفق إلى فتحهما .

ولما كان سكان السهول قد لجأوا إلى القلاع ، وانتسفت الزروع عقب موقعة الأرك ، فسرعان ما نقصت المؤن فى جيش الموحدين ، ثم دب إليهم المرض ، وكثر الموت بينهم ، فاضطروا عندئذ إلى الانسحاب ، بعد أن وصل يعقوب المنصور إلى مقربة من ضفاف دوره ، الذى لم يقترب من ضفافه منذ مدة طويلة أى جيش إسلامى . وعاث الموحدون عند عودهم فى الأراضى النصرانية أيما عيث ؛ فلم تطأ أقدامهم مكاناً إلا تركوه أطلالا دارسة كأنما كانوا يشعرون أن هذه آخر حملة إسلامية تهيأ لاحتلال طليطلة ، وتجوز جبال وادى الرملة[1] ، وإذا صدقنا الرواية العربية فان يعقوب المنصور عاد بطريق البلاط وترجاله[2] ، أعنى خلال استرامادوره إلى إشبيلية ؛ ولكن الرواية النصرانية تقول إنه عاد عن طريق اقليش ، وقونقة ، ومرسية إلى الأندلس . والظاهر أن جيش الموحدين انقسم إلى قسمين ، سلك أحدهما هذا الطريق ، وسلك الآخر ذاك . وقد استطاع يعقوب المنصور أن يعرف من تجارب هذه الحملة ، أنه أيسر عليه أن ينتصر فى موقعة ، أو يتوغل فى

(١) هى بالأفرنجية Guadarrama

(٢) راجع روض القرطاس ص ١٥١ .

أراضي العدو ، من أن ينتزع قلعة أحسن تحصينها ، وأنه أيسر عليه أن يفتتح اسبانيا على يد النصارى أنفسهم . وكان ملكا نافارا وليون قد عقدا معه حلفا ؛ واعتقد ملك ليون أنه يستطيع بمعاونة المسلمين أن يقوم بفتوحات فى قشتالة ؛ ولكن ألفونسو النبيل (ملك قشتالة) عمد إلى مقاومة هذا السعى فعقد فى سنة ١١٩٦ م (٥٩٢ هـ) الهدنة مع الموحدين ، وذلك لكى يستطيع التغلب على عدوه ؛ ورحب المنصور بعقد هذه الهدنة لأن ثورات جديدة قامت فى إفريقية ، كانت تستدعى عوده إلى مراكش . كذلك عنى المنصور بأن يضمن لولده السيد محمد أبى عبد الله ولاية عهده ؛ فلما انتهى من إخماد الفتن ورد السكينة إلى نصابها استطاع دون مشقة أن يحمل جميع الولاة والقادة على الاعتراف بولاية عهد الأمير محمد ؛ وأشرك ولده معه فى الحكم من ذلك التاريخ ، وذُكر اسمه فى الخطبة إلى جانب اسم أمير المؤمنين . ولم يمض على ذلك قليل حتى مرض المنصور ، وتوفى بقصره فى مراكش فى الأربعين من عمره وذلك فى الثانى والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ (٢١ يناير سنة ١١٩٩) بعد أن حكم خمسة عشر عاماً[(١)] .

وكان يعقوب المنصور من أعظم ملوك الموحدين وأبرعهم وأرفعهم خلالا ؛ وقد سما بصولة الموحدين إلى ذروتها ؛ ولم يشد أمير من أسرته مثل ما شاد من المساجد والأبنية الفخمة ؛ وكان رفيع الخلق ، قلما يعرف الثأر وكثيراً ما يؤثر الصفح ، وهى فضيلة يندر وجودها فى النفوس المغربية الجائشة . وكان كثير الحب للعلماء يثيب علمهم وفضلهم بأكرم ما يهب الملوك . وكان يبدى فى اختيار وزرائه ذكاء وبعد نظر ، وينتخب أكفأ الأشخاص لجميع فروع الادارة . وكان على صلات وثيقة مع معظم ملوك المسلمين فى عصره ؛ وقد أرسل السلطان الكبير صلاح الدين ، الذى استرد بيت المقدس من الصليبيين ، إليه رسوله ، ليعقد معه

---

(١) ينقل ابن خلكان رواية غريبة عن مصير يعقوب المنصور خلاصتها أنه تنازل فى أواخر حياته عن الملك ، وتزهد وساح فى الأرض ومات بالمشرق مستخفيا خاملا ، وأنه كان فى عصر ابن خلكان بموضع قريب من بلدة المجدل بالشام قبر تعرفه الناس بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب (ج ٢ ص ٤٣١) .

حلفا ضد ملوك أوربا ، الذين كانوا يهددون الشرق يومئذ بحروبهم . ولكن صلاح الدين لم يلقب سلطان الموحدين فى خطابه بأمير المؤمنين ، ولهذا لم تتم المحالفة وإن كان الرسول قد استقبل بإكرام وحفاوة[١] ووصله سلطان الموحدين من أجل قصيدة صغيرة من أربعين بيتاً نظمها فى مديحه بهبة قدرها أربعون ألف دينار ، هى كما قال المنصور رمز التقدير لعلمه وبراعته فى النظم .

---

(١) هذه رواية ابن خلكان ؛ والرسول المشار إليه هنا هو طبقا لهذه الرواية ؛ شمس الدولة أبو الحرث بن عبد الرحمن بن نجم الدولة (راجع ج ٢ ص ١٣٢) .

الكتاب الخامس

اضمحلال سيادة الموحدين
وازدياد تفوق قشتالة وأراجون
في النصف الأول من القرن الثالث عشر

الفصل الأول

حال اسبانيا بعد موقعة الأرك

حتى موقعة تولوزا أو موقعة العقاب

على أثر هزيمة « الأرك » تحرج مركز النصارى فى شبه الجزيرة ، واشتد الخطر عليهم بصورة لم يعرفوها منذ بعيد ؛ ولم يكفهم أن أعداء الصليب ضربوا معسكرهم أمام عاصمة اسبانيا النصرانية ؛ ولكن الخصومات والحروب الطاحنة كانت تمزق الملوك النصارى ، وتحول دون كل اتحاد لمواجهة الخطر المشترك ، ولم ينقذ اسبانيا النصرانية يومئذ من الهلاك سوى إسراع زعيم الموحدين يعقوب المنصور بالعود إلى المغرب ، ثم موته الفجائى ، الذى قضى على خطط الموحدين الكبرى فى الفتح .

وكان من المحقق يومئذ أن شبه الجزيرة ستنضوى كلها تحت سلطان الموحدين لو أن محمداً خليفة يعقوب ، مضى فى الحرب بمثل ما كان عليه أبوه من الذكاء والقوة والمقدرة على انتهاز الفرص . ذلك أن اسبانيا النصرانية لم تكن يومئذ سوى مزيج مضطرب من العناصر المتخاصمة . ولو أن أميراً فطناً من أمراء الموحدين ، سار على مبادئ السياسة التى اتبعت فيما بعد ، فى استغلال منازعات الملوك النصارى ، والتوسل بمحالفة الضعفاء منهم إلى التدخل فى الشؤون الداخلية ، لاستطاع المسلمون أن يخضعوا اسبانيا كلها فى جيل واحد . ومن المرجح أن يعقوب المنصور ، وهو الذى استن هذه السياسة ، كان بوسعه أن

يحقق هذه الغاية لو طال أمد حكمه ، وقد اتخذ بالفعل فى هذه السبيل خطوات ناجحة ؛ وبالرغم مما بذله ألفونسو الثانى ملك أراجون ، والبابا سلستان الثانى من مختلف الجهود للتوفيق بين الأمراء الأسبان ، وجمع كلمتهم ، فإن هذه الجهود لم تسفر عن نتيجة ؛ وكانت الخصومة على أشدها بين الملكين القريبين ، أعنى ملكى قشتالة وليون ؛ وكان ألفونسو النبيل ، المهزوم فى موقعة الأرك ، ينسب هزيمته إلى تقاعد الجيش الليونى عن إمداده ، ولم يسعه فى أول لقاء وقع بينه وبين ابن عمه إلا أن ينحى عليه بأشد اللوم ؛ وترتب على ذلك أن قامت بينهما خصومات انتهت بالحرب الصراح ؛ وهكذا ، بينما كان الموحدون يثخنون بجيوشهم فى جنوبى قشتالة ، إذ غزا حليفاهم ملكا قشتالة وليون شمالى قشتالة ، واستوليا على بعض البقاع والأماكن التى لم تدعم حمايتها . وما كاد ألفونسو النبيل ملك قشتالة ينجو من خطر المسلمين الداهم ، على أثر الهدنة التى عقدها مع يعقوب المنصور ، حتى عقد مع ملك أراجون الجديد ، بيدرو الثانى حلفاً وثيقاً ، وشهر الحرب على ليون ونافارا فى وقت واحد ؛ فارتاعت المملكتان لهذا الخطر الفجائى وحاولتا أن تحصلا على عون من الموحدين ؛ ومع أن البابا سلستان ، أنذر بعقوبة « الحرمان » الدينى ، كل أمير اسبانى يتحالف مع أعداء النصرانية ، فإن سانشو ملك نافارا ، لم يجد سبيلاً غير هذا التحالف للدفاع عن مملكته ضد جاره القوى .

وانقض ألفونسو ملك قشتالة بجميع قواته على ليون ؛ وكان ملكها قد استقدم لمعاونته قوة من المسلمين ، ليتمكن بمؤازرتها من أن يسير إلى قلب قشتالة . ولكن القشتاليين استطاعوا بمعاونة الأرجونيين أن يخترقوا ليون مرتين ، وعاثوا فى أراضيها أيما عيث ، فانتسفوا كل شىء فى طريقهم حتى أشرفوا على عاصمة ليون ؛ وكأنما أرادوا بذلك التخريب ، أن ينتقموا من جيرانهم النصارى ، لما يوقعه المسلمون من التخريب فى قشتالة ؛ بيد أن أسوار ليون المنيعة وقفت فى وجههم سداً ووضعت حداً لتقدمهم ، ولكنهم انتسفوا ضاحيتها والحى المسمى « ببرج اليهود » ؛ كذلك لم يستطع القشتاليون افتتاح استرقة ،

ولكنهم خربوا الأراضي المجاورة لها أيما تخريب .

ولما تأهبت قشتالة وأراجون معاً للقيام بغزوة جديدة ، تدخل الأحبار والفرسان ، لعقد الصلح بين قشتالة وليون ، حتى لا تبدد قوى اسبانيا جميعها في حروب أهلية . وكان ألفونسو التاسع ملك ليون ، قد طلق في النهاية زوجه الأميرة البرتغالية تيريزا ، نزولا على إرادة البابا (سنة ١١٩٥ م) ، بيد أنه لم يحسب كبير حساب لقرار الحرمان البابوي ، واعتزم مرة أخرى أن يتزوج من قريبته الأميرة القشتالية برنجاريا ابنة ألفونسو النبيل ، وذلك لكي يحقق لمملكته سلاماً دائماً ؛ وارتضى ملك قشتالة أن يقدم لابنته جميع الأماكن المتنازع عليها بين ليون وقشتالة ، والتي افتتحت في الحرب الأخيرة مهراً لها ؛ وهكذا لاح أن بواعث الخصومة قد أزيلت لمدى بعيد ، وساد الوئام بين الأسرتين المالكتين المرتبطتين بأواصر القربى ؛ ولم يعن يومئذ أحد بأمر البابا أو الحرمان الكنسي ، ووافق رجال الدين الأسبان على هذا الزواج ، لما فيه من تحقيق خير المملكتين النصرانيتين ؛ وتم الزواج في بلد الوليد في حفلات باذخة في سنة ١١٩٧ م .

ولما كان هذا الزواج قد تم دون الحصول على إذن البابا ، فقد أعلن سلستان الثالث بطلانه ؛ وأرسل إلى اسبانيا الكردينال جيدو دي سانت أنجلو ، مزوداً بأمر إلغائه ، وأن يقوم في حالة عدم الاذعان لأمر البابا ، باصدار قرار التحريم ضد الملكين وضد أراضيهما . ولكن ملك ليون كان يشغف جداً بزوجته وكان يؤيده رجال الدين والفرسان ، ولذا لم يعبأ بوعيد البابا ؛ أما ملك قشتالة الذي عقد الصلح مع ليون وسلم إليها الحصون المفتوحة رغم إرادته ، فقد صرح أنه على استعداد لاسترداد ابنته ، على أن يُرد معها مهرها .

ومع أنه كان من الواضح ، أن إلغاء هذا الزواج لا بد أن يترتب عليه اضطراب عظيم ، فان إصرار ملك ليون على الاحتفاظ بزوجه الأميرة القشتالية ، لم يلبث أن أسفر عن صدور قرار الحرمان الكنسي ضد ملك ليون وملكتها وضد أساقفة شلمنقة وسمورة ، واسترقة وليون ، وضد مملكة ليون كلها ؛

وذلك حتى يقرر الملك انفصاله عن قريبته .

ولما تولى أنوسان الثالث كرسى البابوية بعد ذلك بقليل ، حاول مرة أخرى بالرسائل والرسل ، أن يحمل الملكين على الخضوع لأوامر الكنيسة ؛ فلما لم تثمر مساعيه ، ولما اضطر أسقف أوفيدو الذى أبدى طاعته للكرسى الرسولى أن يفر اجتناباً لنقمة الملك ، كرر البابا أنوسان قرار الحرمان على يد الراهب رينر ؛ ولم يجد الرسول الذى أرسله الملك إلى رومة — ليشرح لأولى الأمر ما يترتب على إلغاء الزواج من المضار — من يصغى إليه .

فهل كان ثمة أدعى يومئذ إلى اضطراب اسبانيا من تلك الحال ؟ فى كل آونة كانت جموع عديدة من المسلمين تنفذ إلى أراضى النصارى ، لأن الهدنة المعقودة انقضى أجلها ، وكانت قشتالة وليون اللتان اتحدتا فى الظاهر ، تضطرم كل منهما نحو الأخرى بغضاً وحقداً ، ولم تتفقا إلا على أمر واحد ، هو محاربة البرتغال ، بالرغم من المعاهدات المعقودة ؛ وإعداد جيوشهما للانقضاض عليها . وكانت ليون تعانى أشنع ضروب الاضطراب ، ذلك لأن الأحبار حتى الذين يناصرون البابا منهم ، كانوا يشكون من أن قرار الحرمان لا يترتب عليه سوى بث الكفر والرذيلة ، وأنه متى أبطلت الشعائر والوعظ ، خبت حماسة الشعب ضد المسلمين ، وأن رجال الدين يفقدون مكانتهم ، إذا لم يزاولوا مهمتهم فى خدمة الدين ، واستنزال البركات على الناس . أما فى أراجون فقد كان الملك بيدرو الثانى فى حرب مستمرة مع الأمراء التابعين له ، وكان هؤلاء يحارب بعضهم بعضاً ؛ وأذكى هذه الفوضى ، ما عمد إليه سانشو السابع ملك نافارا من عقد الحلف الصريح مع الموحدين بالرغم من نهى البابا ووعيده ، ذلك لأنه رأى فى هذا التحالف سبيله الوحيدة للتمكن من مقاومة ملكى قشتالة وأراجون المتحدين ضده ؛ بيد أنه ما كاد يذاع أمر هذا التحالف ، حتى رأى الملكان الخصيمان من حقهما أن يغزوا نافارا ، وأن يقتسما أراضيها فيما بينهما .

وكان سانشو السابع منذ ولى العرش فى سنة ١١٩٤ م يفكر فى التحالف

مع الموحدين ليقاوم تفوق جاره المطرد . وكانت نافارا لا تزال يومئذ تملك ولايات البشكنس ؛ ولكنها كانت صغيرة الحجم بالنسبة لضخامة قشتالة وأراجون ، وما علكان من الأراضي المجاورة ؛ ولم يوفق سانشو السادس إلى رد جاريه القويين عن غزو مملكته إلا نظراً لطبيعة أراضيه التي تتخللها جبال وعرة ومفاوز ضيقة ، ونظراً لتعلق الشعب النافاري بأسرته الملكية ؛ فاذا طرحت الاعتبارات الدينية جانباً فقد كانت مبادئ السياسة الحكيمة تملي بأن الحلف بين الموحدين والنافاريين أمر طبيعي .

وكان سانشو ملك نافارا قد بدأ — عقب موقعة الأرك — عدوانه ضد قشتالة ، وتحالف مع ملك ليون على محاربة ألفونسو النبيل ؛ ومن المرجح أن الموحدين هم الذين دفعوا النافاريين يومئذ إلى القيام بهذا العدوان ضد قشتالة ؛ ولقد حاول ملك قشتالة — في لقاء وقع بينه وبين الملك سانشو في طركونة وشهده ملك أراجون — أن يقنعه بوجوب التعاون فيما بينهما على محاربة أعداء النصرانية ، وأن يحمله على الوقوف معه ضد ليون . ولكن لاح يومئذ لملك نافارا أن الظروف سانحة ليعمل على سحق تفوق جاره ، وكانت عروض الموحدين مغرية ، فلم يحجم عن التحالف معهم ، ولم يحفل ببواعث الدين أو الشرف ، أو يعبأ بوعيد البابا أنوسان الثالث .

وبينما كانت قشتالة تتلقى هجمات الموحدين والليونيين في نفس الوقت ، وبينما كانت أراجون في عهد ملكها الفتى بيدرو الثاني الذي خلف ألفونسو الثاني عزقها الخلاف ، وتطاول الأمراء الأقوياء التابعين للعرش ، كان ملك نافارا يؤمل أن يغدو سيد اسبانيا النصرانية بمعاونة الموحدين . وكان يعقوب المنصور الظافر في موقعة الأرك قد وعده بأن يزوجه ابنته ، وأن يجعل مهرها الأراضي النصرانية ، بل كانت الأندلس فوق ذلك مطمح أنظاره ؛ نعم كان على سانشو أن يعترف بسيادة سلطان الموحدين ، ولكن كان من حقه أن يزاول سلطته الملوكية دون منازع في الأراضي التي يحكمها . أما كون المنصور

قد اشترط على سانشو فى هذه المعاهدة أن يعتنق الإسلام فمسألة لا يمكن القطع بصحتها[١] .

وأراد سانشو أن يخفى خططه وألا يفضحها قبل الأوان ، فأرسل أسقف بنبلونه إلى رومة ، ليؤكد للبابا سلستان الثالث أنه أبعد ما يكون عن فكرة التحالف مع المسلمين ؛ وهذا فى الوقت الذى أعد فيه كل شىء لعقد هذا التحالف مع الموحدين . وما كاد أسقف بنبلونه يعود من رومة ، وتهدأ الاشاعات المتعلقة بالتحالف مع المسلمين ، حتى عهد سانشو بحكم المملكة إلى بعض الأكابر الأكفاء، وعهد بالدفاع عن حصونه المشحونة بالميرة إلى أقدر وأخلص القوامس ؛ وسار فى قوة كبيرة من الفرسان إلى زيارة سلطان الموحدين لكى يتم المفاوضات معه ، ويعقد قرانه على ابنة يعقوب المنصور .

ولما كانت الروايات الأسبانية النصرانية ، تلتزم الصمت إزاء هذا التحول من جانب ملك نافارا إلى أعداء دينه ، وذلك فيما عدا ردريك الطليطلى الذى يشير إليها فى عبارة موجزة ، فليس أمامنا سوى الاعتماد على الروايات العربية ، ورواية روجر دى هوفدن الانكليزية ، وكلتاهما تناقض الأخرى فى جميع تفاصيلها . ومن الواضح أن الروايات العربية تخلط بين سفارة يوحنا ملك إنكلترا[٢] إلى سلطان الموحدين محمد ولد يعقوب المنصور وخلفه ، وبين رحلة سانشو ملك نافارا . إذ تضع تاريخ هذه الرحلة فى سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) . وذلك حينما قدم أمير المؤمنين من المغرب إلى إشبيلية ليتابع الحرب فى اسبانيا . كذلك تشير الرواية

---

(١) هذا ما تقوله الروايات النصرانية دون غيرها ؛ ولم نجد لهذه الرواية أثراً فى المصادر الاسلامية ، وقد يكون المنصور ارتضى أن يعقد حلفاً مع ملك نافارا ، ولكنا نشك كل الشك فى كونه ارتضى أن يزوجه ابنته ، خصوصا لما هو مأثور عن الموحدين من شدة التمسك بالعقيدة ، وعدم التسامح ، وفى حالة واحدة فقط يمكن أن نتصور صحة هذه الرواية ، وهو أن اعتناق ملك نافارا للاسلام كان شرطا جوهريا لتزويجه من أميرة موحدية .

(٢) يوحنا John ملك إنكلترا المشار إليه هنا هو أصغر أبناء هنرى الثانى ، حكم بعد موت أخيه رتشارد الملقب بقلب الأسد من سنة ١١٩٩ إلى سنة ١٢١٦ م . ولم نجد فى سيرته ما يفيد أنه أوفد سفارة إلى ملك الموحدين .

العربية إلى سانشو فقط باسم ملك بيونة . ولكن من الواضح أن القصة التى يوردها المؤرخون المسلمون ، تدل فى مجموعها على أنها تتعلق بسانشو السابع ملك نافارا . وتصف الرواية العربية رحلة سانشو إلى بلاط سلطان الموحدين على النحو الآتى : « ما كاد ملك بيونة يسمع بمقدم أمير المؤمنين إلى إشبيلية حتى أرسل يستأذنه فى زيارته فأذن له . وقد استقبل الأمين مع زوجه ، ووزرائه وحشمه ؛ وحاشيته المديدة ، أينما حل على طول الطريق من حدود النصارى حتى قرمونة ، بمنتهى الإكرام ؛ وفى قرمونة احتجز منه ألف فارس ، ولم يترك له سوى ألف أخرى كحاشية له . وأمر سلطان الموحدين فاصطف الجند صفان من قرمونة إلى إشبيلية ، وهم فى أحسن الثياب ، وقد رفعوا حرابهم وسيوفهم ، ومر من بينها ملك نافارا ؛ واستقبله أمير المؤمنين عند باب إشبيلية فى خيمة فخمة ؛ ورأى محمد لكى يجمع بين المجاملة وبين الاحتفاظ بعزته ؛ أن يرتب دخوله إلى الخيمة من جانب ، فى نفس الوقت الذى يدخلها فيه ملك النصارى من الجانب الآخر ؛ وقاد الملكين إلى الأريكة معا شيخ من أشياخ الأندلس يعرف الأسبانية ؛ وبعد المحادثة الأولى التى تولى فيها الزعيم الأندلسى الترجمة ، سار محمد إلى إشبيلية على رأس حرسه فى موكب فخم ؛ وقدم الملك النصرانى هدية إلى سلطان الموحدين ، هى مصحف قديم يتوارثه آباؤه ، وكان موضوعاً فى صندوق من الذهب مضمخ بالمسك ، وغطاؤه من حرير أخضر ، مرصع بالذهب ، والأحجار الكريمة من الزمرد والياقوت وغيرها . وبعد أن استبقى محمد ضيفه مدى حين فى إشبيلية معززاً مكرماً ، وغمره بجزيل التحف ، عاد أخيراً إلى أراضيه » .

والروايات النصرانية عن رحلة سانشو أقل تفصيلا ، ولكنها أقرب إلى الحقيقة . وقد قام بهــا سانشو عقب وقوفه على موت المنصور ، فى جماعة كبيرة من الفرسان ، وكان ذلك فى أواخر سنة ١١٩٨ أو أوائل سنة ١١٩٩ م . وهذا ما تؤيده جميع الوقائع والظروف الأخرى . ولم ير سانشو فى موت صديقه المنصور ما يحمله على الإحجام عن القيام بهذه الرحلة البعيدة ؛ وقد تخلف مدى حين فى

الأندلس ، فى انتظار عودة الرسل الذين أوفدهم إلى محمد خليفة المنصور ؛ فلما عاد أولئك ، وأبلغوه أن محمداً يكن نحوه من عواطف الصداقة مثل ما كان أبوه ، اعتزم أن يتابع الرحلة إلى مراكش ، إلى بلاط سلطان الموحدين . فاستقبله محمد بأجمل حفاوة ، ووافق على زواج أخته بملك نافارا ، ولكنه لم يشأ بحثاً فى مسألة التنازل عن أملاكه الاسبانية إليه ؛ فلم ير سانشو أن يعجل بمسألة الزواج ، ولكنه قبل أن يشترك مع فرسانه فى معاونة الموحدين على إخماد فتنة قامت يومئذ فى جبال غمارة ، وأبدى شجاعة عظيمة[1] .

وبينما كان سانشو مقيما فى بلاط سلطان الموحدين ، مؤملا أن يغدو بمعاونته ملكا على جميع اسبانيا ، إذا به يفقد معظم أنحاء مملكته الصغيرة . ذلك أن ألفونسو النبيل ، وحليفه بيدرو ملك أراجون ما كادا يعلمان بسفر سانشو إلى بلاط الموحدين ، حتى قررا أنهما فى حل من جميع المعاهدات السابقة التى عقداها مع نافارا بحجة أن ملكها قد تحالف مع أعداء اسبانيا التاريخيين ؛ ثم زحفا على نافارا بجيشهما المشترك (سنة ١١٩٩ م) ، ليقتسماها فيما بينهما ؛ بيد أنهما لقيا فى هذا السبيل صعاباً لم يتوقعاها . فقد دافعت الحصون المشحونة بالميرة والسلاح دفاعاً قويا ، وبعد حصار طويل استطاع ألفونسو ، أن يفتتح حصن فكتوريا ، وأن يسترد

---

(١) لم تشر الرواية العربية إلى مقدم سانشو ملك نافارا إلى مراكش وإقامته مدى حين فى بلاط الموحدين . ولكنها تشير إلى وفوده على أمير المؤمنين محمد الناصر بن المنصور ، وهو بالأندلس ؛ وتقول هذه الرواية ، إن الناصر لما عبر بجيوشه إلى الأندلس للغزو سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) ارتاع ملوك النصارى ، وكتب إليه عدة منهم يسألونه المهادنة والسلم ، ووفد عليه منهم ملك بنبلونة (وبنبلونة هى عاصمة مملكة نافارا) مستسلما طالبا للصلح ، ويقال إنه قدم إليه كتاب النبى (ص) الذى كتبه إلى هرقل ملك الروم يستشفع به وقد كان يتوارثه آباؤه ، فاحتفل الناصر لقدومه ، ثم عقد له الصلح ما دامت دولة الموحدين ، وأجابه إلى جميع مطالبه (راجع الاستقصاء ج ١ ص ١٩٣) . وذكر ابن خلدون أن الذى وفد على الناصر بالأندلس يومئذ هو «البيبوج» صاحب ليون (الفرنسو التاسع ؟) وأنه قدم عليه عام موقعة العقاب (سنة ٦٠٧ هـ) فداخله وأظهر له التنصح فبذل له أموالا ثم غدر به (ج ٤ ص ١٨٣) أما الرواية التى أوردها المؤلف نقلا عن المصادر العربية فهى رواية ابن أبى زرع فى روض القرطاس وهو يشير إلى الملك الوافد على الناصر بأنه ملك « بيونه » ويصف وفوده عليه فى اشبيليه باقامة (ص ١٠٠)

ولايات ألبه وبسكونيه ، وجوبسكوا ، وهى التى كانت من قبل ملكا لقشتالة ؛ وقطع لأهلها عهداً بأن يترك لهم الاحتكام إلى شرائعهم وتقاليدهم ، اكتساباً لمحبتهم .

وكان ملك أراجون أقل توفيقاً ، فلم يستطع أن يفتتح إلا بضعة أماكن صغيرة على الحدود ؛ ودافعت بنبلونة وغيرها من المدن الكبيرة أعظم دفاع ، ولقيت أعظم توفيق فى رد جارها البغيض . وأخيراً عاد الملك سانشو إلى مملكته ، بعد أن أيقن أنه إذا كان يستطيع أن يحصل على أميرة موحدية زوجة له فانه لا يستطيع الحصول بأى حال على حكم الأندلس والأملاك الإسلامية الأخرى فى اسبانيا ، وقد قطع المفاوضة بعد أن تحقق خيبة المسعى ، وعاد إلى مملكته بعد أن غاب عنها عامين (سنة ١٢٠١ م) . ووصل فى الوقت المناسب ليقود جنده المخلصين مرة أخرى للكفاح الشاق ضد الأعداء الأقوياء ، واستطاع بمعاونة الكونت ديجو لوبز زعيم بسكونية الثائر ضد قشتالة أن يسترد معظم الأماكن المفقودة ؛ ثم تدخل الأحبار ، وعقدت الهدنة بين الفريقين لمدة ثلاثة أعوام . ولكن الولايات البشكنسية بقيت فى حوزة قشتالة . ولم يمض قليل على ذلك حتى أنشأ سانشو ، جماعة مسلحة لطاردة عصابات اللصوص التى كانت تعيث فى البلاد (سنة ١٢٠٤م) ، فكانت هذه الجماعة نواة لجمعية الأخوة المقدسة (الهير ما نداد) .

أما فى ليون فقد لبث الاضطراب على شدته ، وانقسم الأحبار إلى فريقين ، أحدهما يؤيد زواج الملك بالأميرة القشتالية برنجاريا ، والآخر وهو أقلهما يعارض فى هذا الزواج ؛ وكان الملك يبدى فى أعماله كثيرا من القوة والعنت ، فكل من وقف فى سبيل حكومته ، سواء من رجال الدين ، أو المدنيين ، أمر بزجه إلى السجن ، إذا لم يبادر بالفرار اتقاء العقاب الدائم . ولعله لم يكن حب زوجه والتعلق بها هو الباعث الوحيد على تشدده فى هذه القضية ، بل هو بالأخص تفكيره فى مصير أبنائه الذين رزق بهم من زوجه ، وكونهم إذا ألغى الزواج ، لا يعتبرون من الأولاد الشرعيين ، وما يتحتم عليه عندئذ من رد مهر برنجاريا ، وهو أمر

خطير بالنسبة لليون ، إذ يوجد بين الأراضى التى يتعين ردها ، عدد من الحصون القوية الواقعة على الحدود .

ولما أدرك البابا أنوسان الثالث ما يترتب على قراره الصارم ، من النتائج السيئة ، نزل على ملتمس بعض الأحبار الليونيين ، وأمر بتخفيف القرار بحيث يسمح بإقامة الشعائر الدينية والكنسية ، على أنه يجب بالنسبة للملك وزوجه ابنة ملك قشتالة ، وجميع الكبراء الذين شملهم أمر الحرمان ، أن تغلق الكنائس ، وأن يصمت الأحبار . ومع ذلك فقد احتفل بتنصير أول ولد جاء من هذا الزواج — وهو فرديناند الذى لقب فيما بعد بالمقدس — فى كنيسة ليون الكبرى فى احتفال باذخ ، وذلك فى سنة ١١٩٩ م ، وبعد أن أعقبه ابن وبنات أخر ، احتفل برلمان ليون (الكورتيس) بإعلان فرديناند الولد البكر وليا للعهد فى سنة ١٢٠٤م . وبعد ذلك ارتضت برنجاريا الطلاق تحقيقا لسكينة المملكة وسلامها ، وتنازلت عن المطالبة برد المهر ، وعادت إلى أبيها فى قشتالة ؛ وعلى أثر ذلك ، أمر البابا بإلغاء قرار الحرمان بواسطة الأساقفة القشتاليين ، وأن يرفع الحظر عن ملكى ليون ، وأن يعترف مع ذلك بشرعية الأولاد ، واستحقاقهم للميراث .

وما كاد السلام يعقد مع البابا حتى اضطرمت نيران الحرب على أشدها بين البيتين الملكيين اللذين تصافيا من قبل ، أعنى بين قشتالة وليون ، وذلك من جراء فسخ هذا الزواج ؛ وكان ملك قشتالة يصر على وجوب رد الأماكن التى وهبها لابنته مهراً لزواجها ، وكان البابا يؤيد هذا المطلب . على أن الأقوال وحدها لم تكن تكفى لتسوية هذا النزاع ، وكان الشعب منذ بعيد يتوقع جزعا اضطرام الخصومة بين المملكتين ، وكانت جمهرة المؤمنين ترى طائفة من الظواهر والأحداث المزعومة ، وتتخذها علامة على اقتراب زمن لابد أن تسيل فيه الدماء ؛ وقد صحت نبوءتهم ؛ فإن حربا طاحنة دامت عدة أعوام خربت قشتالة وليون ؛ ولم تفلح جهود البابا فى تهدئة الخواطر المضطرمة ، وردت اقتراحاته فى سبيل الصلح بازدراء ، إذ كان المفروض أنه هو السبب الوحيد فى إثارة هذا النزاع .

ولكنهم أصغوا إلى صوت السلام والوساطة حينما نظم الموحدون أهباتهم الضخمة للاستفادة من هذا النزاع وإخضاع اسبانيا النصرانية ؛ وكان لا بد من عود النصارى إلى الاتحاد حتى لا تسقط اسبانيا غنيمة فى يد المسلمين . وهنا فقط عقد ملكا ليون وقشتالة الصلح ، وارتضى الفونسو ملك ليون أن يعطى زوجه الملكة برنجاريا الأماكن المتنازع عليها ما دامت مقيمة لدى أبيها فى قشتالة ، وهكذا أنقذ ملك ليون على الأقل شرفه بهذا التصرف الشهم .

الفصل الثانى

موقعة ناڤاس دى تولوزا

أو موقعة العقاب

لما توفى يعقوب المنصور ، ولى العرش ولده الذى اختاره من قبل لولاية عهده : وكان محمد الملقب بأبى عبد الله الناصر لدين الله ، فى أطيب سنى عمره ، حينما خلف أباه فى الحكم ؛ وكان حسن القامة ، نحيفاً ، أبيض ، أشهل العينين ، كثيف الحاجبين ، طويل الأهداب ، كبير اللحية ؛ وكانت نظراته تشع ذكاء وتفكيراً(١) بيد أنه بالرغم من كفايته وثقافته لم يكن يحسن اختيار وزرائه وقادته ، فكان كثيراً ما يعهد بأهم شؤون الدولة إلى رجال عاجزين ، يوليهم كل ثقته .

وقد اضطر فى بداية حكمه — مثل جميع أسلافه — أن يعمل على إخماد ثورات عديدة نشبت أولا فى جبال غمارة ؛ وما كادت تخمد حتى تلتها ثورات قام بها خصوم ظن الموحدون أنهم سحقوهم نهائيا . وكان هؤلاء هم المرابطين . وكانوا بعد انهيارهم التام فى المغرب والأندلس ، قد لقوا فى الجزائر الشرقية (جزائر البليار) ملاذا أخيراً ، وأقاموا بها حكومة منهم ، ثم انضووا بعد ذلك تحت لواء محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ، وأخيراً اعترفوا مختارين بحكم الموحدين وذلك منذ سنة ١١٧٢ م (٥٦٧ هـ) بيد أنهم عملوا فى الخفاء على استدعاء أنصارهم تباعا إلى ميورقة . ولما شغل محمد الناصر بإخماد ثورة نشبت بالقرب من فاس ،

---

(١) روض القرطاس ص ١٥٣ والمراكشى ص ١٧٥ .

رأى المرابطون الفرصة سانحة ليجربوا طالعهم فى الحرب مرة أخرى ، وحاولوا أن يجذبوا البربر إلى جانبهم ، وسرعان ما يسأم البربر كل حكم . ونهض المرابطون بزعامة يحيي بن إسحاق الميورقى ، وهو من عقب يوسف بن تاشفين ، وساروا فى السفن من ميورقة إلى إفريقية واستولوا على عدة مدن فى أحواز قرطاجنة القديمة (تونس) ، وهرعت إلى جانبهم جموع كبيرة من البربر ، واضطر محمد الناصر أن يحشد جميع قواته ليحول دون تقدم الثوار ؛ ذلك أن زعيم الثوار كان قائداً عظيما وافر الخبرة بفنون الحرب . بيد أن المرابطين لم يوفقوا مع ذلك إلى استرداد سلطانهم ، وكان نجمهم قد أفل نهائيا ؛ وكانت ثورتهم آخر مجهود لحزب نهض للمرة الأخيرة ، ثم انهار بعد هزائمه المتوالية لكى لا ينهض بعد ؛ وألفى المرابطون ملاذاً أخيراً فى أسوار المهدية ، الواقعة على الشاطئ تجاه صقلية ، ولكن المدينة اضطرت — بالرغم من مناعتها وبسالة يحيي بن إسحاق فى الدفاع عنها — أن تذعن أمام هجمات الموحدين العنيفة ، وقد سلطوا عليها من آلات الحصار والمنجنيقات ما لم ير من قبل ضخامة وإحكاما ، وأخذوا يرمونها كل يوم بمئات من الأحجار الكبيرة والكرات الحديدية ، ويدكون بذلك أسوارها دكا . وعفا محمد الناصر عن أهل المدينة وعن يحيي الميورقى عفو الكرام ، بعد أن استنفدوا كل وسائل الدفاع وسلموا إليه المدينة ، وذلك فى سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٥ م) (١) ..

ولكن تسامح سلطان الموحدين لم يكن له من أثر إلا أن يشجع المرابطين على الثورة من جديد ، فلم تمض ثلاثة أعوام حتى تزعم يحيي بن إسحاق جموع الثوار مرة أخرى ، وقد قويت بانضمام عدد كبير من الناقمين من قبيلة زناتة إليها . ولكن المرابطين هزموا للمرة الثانية فى موقعة دموية ، وكاد أن يسحق جيشهم عن آخره ، وفر يحيي ناجياً بنفسه . ورأى الناصر أن يعمل على استئصال شأفة هذا الحزب نهائيا ، فأمر بإرسال حملة بحرية إلى جزيرة ميورقة ، حيث كان عبد الله أخو يحيي بن إسحاق يتولى الحكم . ونزلت قوات الموحدين فى الجزيرة

---

(١) روض القرطاس ص ١٥٣ .

بالرغم من مقاومة المرابطين المنيفة ، وحاصرت عاصمة الجزيرة واستولت عليها عنوة ، وأمر عبد الله واحتز رأسه ، وأرسل محنطا إلى مراكش ، وعلقت جثته على بعض جدران المدينة . ولم تبد الجزيرتان الصغيرتان منورقة ويابسة أية ممارضة ، بل خضعتا للفاتحين (سنة ٦٠٤ هـ — ١٢٠٨ م) . وهكذا انهارت الأنقاض الأخيرة لسيادة المرابطين .

وعندئذ فقط استطاع سلطان الموحدين أن يوجه عنايتـه إلى شبه الجزيرة الأسبانية لـكي يرفع فيها راية الإسلام على النصرانية ؛ وبعـد أن أقام فى مختلف المدن المغربية أبنية عظيمة فخمة يخلد بها ذكره ، اعتزم أن يبز مجد أسلافه بأعمال الحرب الضخمة فى شبه الجزيرة .

ولم يكن القشتاليون الظمآى إلى الحرب يستطيعون البقاء دون حرب ؛ فبعد أن قاموا بمعاونة الفرنسيين على محاربة الإنجليز فى « جويان » ، فى حرب قليلة الأهمية (سنة ١٢٠٤م) ، وبعد أن عقدوا الصلح مع جيرانهم النصارى ، ولا سيما بتدخل البابا ، أخذ ملك قشتالة ألفونسو النبيل يتأهب لمحاربة المسلمين بكل ماله من قوى ، وكانوا قد ركنوا إلى السكينة منذ وفاة يعقوب المنصور .

وبعد أن حصن ألفونسو قلعة « مورا » الواقعـة على الحدود تحصيناً قويا (سنة ١٢٠٩ م) سار فى جيش من القشتاليين وفرسان قلعة رباح إلى الأندلس ، فانتسف الحقول ، ونهب القرى ، وقتل السكان ، وسبي منهم جموعاً كبيرة . ثم عاد إلى قشتالة ، ولقى ملـكى نافارا وأراجون ، ووثق معهما عهود الصلح ، وحصل منهما على وعد بتأييده وإمداده بالجند حين الخطر لمحاربة العدو المشترك ، واعتزم بعد ذلك أن يعمل لمحو وصمة هزيمة الأرك بإحراز نصر باهر على الموحدين . وفى العام التالى سار مرة أخرى إلى الأندلس ، وخرب أراضى جيان وبياسة واندوجار ، ووصل إلى أحواز مرسية ثم عاد إلى طليطلة مثقلا بالغنائم .

ولمـا وقف محمد الناصر على اعتداء النصارى المتكرر على الأندلس ، أعلن الجهاد ، مؤملا أن يستطيع بواسطة القوات الضخمة التى يرسلها من المغرب إلى

اسبانيا أن يسحق الممالك النصرانية بلا مراء ؛ وحشدت فى جنوبى الجزيرة خمسة جيوش ضخمة ، يتكون أولها من القبائل البربرية ، والثانى من الجنود المغربية ، والثالث من الجنود الأندلسية ، والرابع من الجنود الموحدية أو الجنود النظامية التى تحشد وفقاً لنظام عسكرى معين ؛ ويتكون الخامس من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة ويضم وحده مائة وستين ألف مقاتل من الفرسان والمشاة . وإذا لم يكن فى وسعنا أن نأخذ بالتقديرات المغرقة التى تقدمها الرواية العربية — إذ هى تقدم إلينا أرقاماً تخرج عن طور المعقول — فإنه من الممكن أن يقدر الجيش الذى حشده محمد الناصر لمحاربة اسبانيا النصرانية بنحو نصف مليون مقاتل(١) . وفى ٢٥ ذى القعدة سنة ٦٠٧ (أوائل مايو سنة ١٢١١) جاز سلطان الموحدين بنفسه إلى الأندلس ونزل فى جزيرة طريف ، ثم غادرها بعد أيام قلائل إلى إشبيلية .

ولكن محمدا ارتكب خطأ فادحاً إذ أرسل خيرة جنده إلى حصن سربطره(٢) الجبلى المنيع ، وأنهك بذلك قواهم ؛ ولبث الجيش أمام هذا الحصن ثمانية أشهر ، وهو ممتنع عليه . وأصر محمد نزولا على نصح حاجبه أبى سعيد بن جامع — وكان الموحدون يشكون فى صدق نياته ، ولكن محمداً يضع فيه كل ثقته — على ألا يتقدم قبل الاستيلاء على الحصن . وهكذا استمر الحصار طول الصيف حتى دخل الشتاء ؛ وعانى المغاربة فى هذه الجبال الوعرة من قسوة الطقس ما لا يحصى ، وأودى المرض بحياة آلاف منهم ، وأخذت وسائل تموين هذا الجيش الضخم تصعب يوماً فيوماً . وأرسل ألفونسو ملك قشتالة ولده فرديناند على رأس جيش نفذ إلى ولاية استرامادوره محاولا أن يرغم الموحدين على رفع الحصار ، ولكن هذه المحاولة لم تفلح ، وفجع الملك بفقد ولده الذى أودت بصحته وحياته مشاق الحرب ؛ وقيل فى بعض الروايات إنه توفى مسموماً بيد يهود مجريط . وسقطت قلعة سربطره أخيراً بفعل الجوع فى يد الموحدين ، ولكن مقاومتها

(١) راجع الاستقصاء ج ١ ص ١٩١ .
(٢) سربطره أوشربطره كما هى فى ابن خلدون ج٦ (ص ٢٤٩) وبالأفرنجية Salvatierra.

الطويلة الباسلة كانت سبباً فى إنقاذ اسبانيا النصرانية[١] .

وكان ملك قشتالة قد أرسل جرهارد أسقف سقوبية إلى البابا أنوسان الثالث ليرجوه أن يرسل الصيحة إلى أمم أوربا النصرانية ، لكى تنظم حملة صليبية ضد المسلمين فى الأندلس ؛ وأرسل ردريك مطران طليطلة (ردريك الطليطلى) — وهو المؤرخ الشهير الذى دون تاريخ وطنه — وعدة أخر من الأحبار ، إلى فرنسا وإلى الأمم الواقعة فى شرقها ، ليثيروا بذلاقتهم حماسة الشعوب النصرانية من البرنيه إلى البحر الأسود ، لكى تساهم فى كفاح الصليب المقدس .

وفى الوقت الذى كان فيه البابا ومطران طليطلة يعملان للحصول على معاونة أوربا النصرانية ضد المسلمين ، كان ألفونسو النبيل يعمل لجمع كلمة الملوك الأسبان ضد الموحدين ؛ ودعا فى سبيل هذه الغاية إلى مؤتمر عقد فى قونقه ، ولم يشهده — إلى جانب ألفونسو — سوى بيدرو الثانى ملك أراجون ، ولكن شهده مندوبون من قبل باقى الملوك النصارى ، ووعدوا بتقديم المون من جند ومال . وهكذا انقضى عام ١٢١١ م فى القيام بأهبات عظيمة لمتابعة الحرب ؛ وقبل انتهاء الشتاء اجتمعت فى طليطلة عاصمة قشتالة التى اتخذت مكاناً لاجتماع الجند قوات عظيمة ؛ وفى أوائل العام عاد المطران ردريك ومعه جمع غفير من الفرنسيين ؛ وتلا ذلك أن اجتمعت وفود مدن اسبانية كثيرة ، وفرسان الولايات القشتالية المختلفة ، وأساتذة فرسان قلعة رباح ، وشنت ياقب ، والاسبتارية والداوية ، ورؤساؤهم وإخوانهم المحاربون ؛ واجتمع القوامس والفرسان القشتاليون إلى الملك ألفونسو النبيل فى أكمل هيئة وسلاح ، إظهاراً لمكانتهم وإرهاباً لعدوهم ؛ وكان القوامس من أسرة لارا يمتازون بالشجاعة والفروسية والغنى ؛ ويمتاز الكونت ديجو لوبيز ، ولوبى دياز دى هارو بالفطنة والبراعة فى القتال ؛ وكان يرأس فرسان قلعة رباح جوميز راميرز ، وفرسان شنت ياقب بيدرو آرياس ؛ ويرأس الاسبتارية ولد جوتيرو هرمنجلد ؛ وكان الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين من المدن

---

(١) راجع فى حوادث هذا الحصار روض القرطاس ص ١٥٦ و ١٥٧ .

المختلفة ، وقد تولوا الانفاق على حشدهم ؛ وأرسلت المجالس البلدية رجالها الصالحين للقتال مجهزين بالخيل والسلاح ، وأحمال المؤن ، ليستطيعوا إمداد المحتاجين من فاضل طعامهم .

ومع أنه وفدت على اسبانيا جموع المحاربين من جميع البلدان الأوربية ليقاتلوا دفاعاً عن النصرانية متقلدين الصلبان ، فقد كان الفرنسيون أكثر الوافدين عدا ؛ وقدم جيوم أسقف بوردو ، وأسقف نانت وغيرهما من الأحبار الفرنسيين في جماعة باسلة من الفرسان ، وجيش كبير من المشاة من ولايات جويان وليموج وسانتونج وبرى وبواتو وانجو وبريتانيا ؛ وقاد أرنولد مطران أربونة خصم الألبيين العنيد[١] جيشاً من لانجدوك وبروڤانس وبرجونية ، يضطرم شغفاً للقاء المسلمين . ووفق أرنولد إلى ما هو أهم من ذلك ، وهو أن يحمل بذلاقته وضراعته ملك ناڤارا — بعد أن كان غاضباً من ملك قشتالة — أولا على أن يؤيد قضية اسبانيا بالمال والجند ، ثم بالأخص على التعهد بأن يسير في فرسانه ، وأن يشترك بنفسه في القتال .

وفي شهر مايو ، اجتمع في قشتالة من المحاربين الصليبيين الذين هرعوا من جميع أنحاء أوروبا لمعاونة اسبانيا ، زهاء ألفين من البارونات مع حاشياتهم ، وعشرة آلاف من الفرسان وحملة الحراب ، وخمسين ألفا من المشاة ، أو بعبارة أخرى اجتمع من هؤلاء جيش يبلغ زهاء سبعين ألف مقاتل . وكانت في الطريق قوات أخرى لم تصل إلا فيما بعد . وفي أول يونيه ، في يوم عيد التثليث ، قدم بيدرو الثاني ملك أراجون في جيشه الضخم ، واستقبله ملك قشتالة بمنتهى الحفاوة ؛ وكان يصحبه في هذه الحملة معظم الأمراء التابعين ومشاهير الفرسان ، وطائفة كبيرة من فرسان الداوية ، وقد كانت لهم في أراجون أملاك شاسعة . وأخيراً قدمت الأمداد من ليون وجليقية والبرتغال ؛ وكانت القوات البرتغالية تتألف من

---

(١) الألبيون Albigences هم فرقة من الملاحدة ظهرت في جنوبي فرنسا في أوائل القرن الحادي عشر ، واتخذوا مدينة « البي » مركزهم ومنها اشتقوا اسمهم ، وشهروا على الكثلكة ومبادئها ورسومها حربا شديدة . واستمروا يبثون عقائدهم الإلحادية حتى نظم سيمون دي مونفور في أوائل القرن الثاني عشر عليهم حربا صليبية ، انتهت بتمزيق شملهم .

عدد كبير من الفرسان والمشاة البارعين يقودهم أمير برتغالى هو بيدرو ثالث أبناء الملك سانشو الأول ؛ وكانت القوات الليونية بقيادة سانشو فرناندز أخى ملك ليون ؛ ولم يحضر ملك ليون بنفسه إذ قامت بينه وبين ملك قشتالة خصومة جديدة من أجل بعض أماكن على الحدود . أما ملك نافارا فلم يكن استكمل أهبته بعد ، وكان قدومه منتظراً .

وكانت طليطلة وأحوازها تقدم يومئذ منظراً يفيض حركة وحياة ، وكانت جموع المحاربين من الكثرة بحيث تعذر أن تضمهم المدينة جميعاً ، واضطرت ألوف كثيرة منهم أن تقيم فى الخيام خارج المدينة ، فى الحدائق الملكية والحقول ، وكانوا مزيجاً من الأزياء والسلاح ، والعادات واللغات . وكان من الصعب أن يسود النظام والسلام بين هاته الشعوب المتباينة . وكان ملك قشتالة قد أعد كميات عظيمة من المؤن ، بحيث أمكن بالرغم من كثرة الجموع أن تمون كلها دون نقص ، وقدم الملك ألفونسو إلى جموع الوافدين الخيام والأطعمة ، والخيل ، وكل ما تحتاج إليه ؛ ومع ذلك فإنها لم تحجم عن قطف ثمار أشجار الفاكهة فى أحواز المدينة وإتلافها ، وقطع أخشاب الكروم والأشجار لحرقها واستعمالها فى إنضاج الطعام . واقترنت بهذه الفوضى التى سادت جميع الوافدين أمور أخطر ؛ من ذلك أنها بدأت فى مطاردة يهود طليطلة ، وبذل ألفونسو مجهوداً عنيفاً لكى يحول دون قتلهم جملة ، ومع ذلك فقد قتل كثيرون منهم فى بداية هذا الانفجار .

وليس أدل على الأهمية التى كان يعلقها الغرب يومئذ على هذه الحملة الصليبية ضد مسلمى الأندلس ، من اشتراك الجموع فيها بصورة فعلية ، وكون آلاف منهم كانوا يتقلدون الصليب ؛ كذلك لا ريب فى أن مقادير عظيمة من المال والسلاح والمؤن أرسلت إلى ملك قشتالة من فرنسا وإيطاليا . وكان ذلك مما مكن الملك ألفونسو النبيل من أن عد جيش الوافدين الذى بلغ فى أوائل يونيه سنة ١٢١٢ م أكثر من عشرة آلاف فارس ، ومائة ألف من المشاة ، فضلا عن المؤن ، برواتب مالية ، قدرها عشرون شلناً للفارس ، وخمسة شلنات لكل محارب من المشاة ،

هذا عدا ما كان يقدمه من الهدايا النفيسة إلى القادة والزعماء .

وفى رومة أمر البابا أنوسان الثالث بالصوم ثلاثة أيام والاكتفاء بالخبز والماء التماسا لانتصار الجيوش النصرانية ؛ وأقيمت الصلوات العامة ، وعمد رجال الدين والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة ، وسارت المواكب فى الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة إلى أخرى . وألقى البابا نفسه موعظة صليبية ، طلب فيها إلى النصارى أن يضرعوا إلى الله التماساً لنصر الاسبانيين .

ولما غصت طليطلة وأحوازها بجموع المحاربين ، واستراحوا من وعثاء السفر ، تأهب الجيش النصرانى للسير إلى لقاء العدو فى ٢٠ يونيه سنة ١٢١٢ م ونظمت القوات فى ثلاثة جيوش ، حتى لا يصاب الجند أثناء السير بنقص فى المؤن ؛ وسار فى الطليعة جيش الوافدين ، وقد قدرته بعض الروايات بستين ألف محارب على الأقل ، وقدره البعض الآخر بمائة ألف ؛ وكان تحت إمرة القائد القشتالى ديجو لوبيز دى هارو ، ويقود وحداته المختلفة مطران أربونة ومطران بوردو ، وأسقف نانت ، وعدد من القوامس من غربى فرنسا وجنوبها . وكان يقود الجيش الثانى الملك بيدرو الثانى ، وهو مؤلف فقط من الأرجونيين والقطلونيين ، وفرسان الداوية . أما الجيش الثالث وهو أضخم الجيوش الثلاثة ، ويتألف من جنود قشتالة وليون والبرتغال ، وفرسان قلعة رباح وشنت ياقب والاسبتارية ، فكان يقوده ملك قشتالة ، ويقود وحداته كبير أساتذة جميات الفرسان ، والأمير الليونى سانشو فرنانديز ، والأمير البرتغالى بيدرو ، وردريك مطران طليطلة ، وخمسة أساقفة أخر . وتقدر الرواية عدد الفرسان فى هذا الجيش بثلاثين ألفاً ، ولكنها لم تحدثنا عن عدد المشاة .

وفى اليوم الخامس من بدء السير من طليطلة ، فى الرابع والعشرين من يونيه هاجم المحاربون الوافدون حصن مجلون وقتلوا جميع من فيه ؛ ولكن المؤن أخذت فى النقص . وأخذت حرارة الجو ترهقهم ، فبدا كأن حماستهم خبت على أثر هذا المجهود الأول . وفكر كثير منهم فى العود إلى الوطن ، وكان ملك قشتالة أول من

قدم إلى مجلون فى اليوم التالى ، فهدأ روعهم بتوزيع المؤن الوفيرة عليهم واستطاع أن يقنعهم بالسير معه إلى قلعة رباح ، وكانت بها حامية قوية من الموحدين ؛ ولقى النصارى فى عبور نهر وادى يانه الذى تقع عليه المدينة صعابا فادحة ، إذ كان المسلمون قد نثروا على جناحيه الصنانير والخوازيق الحديدية ؛ وهاجمت الجيوش الثلاثة قلعة رباح من جوانبها الثلاثة المنيعة ، حتى سقطت المدينة فى أيديهم ، ولكن القلعة كانت مجهزة بالأبراج العالية والأسوار المنيعة ، وكان يخشى أن تقتضى حصاراً طويلا . وأبدى ملك أراجون والمحاربون الوافدون فى اقتحام المدينة شجاعة عظيمة ، ولكنهم تكبدوا أفدح الخسائر .

وقبل أن يعود النصارى إلى مهاجمة القلعة ، عقد مجلس حربى للبحث فيما إذا لم يكن من الأفضل أن يقتصر على تطويق القلعة ، دون محاولة افتتاحها ، وأن يبدأ بالسير توا لمهاجمة العدو (المسلمين) ، وكان يرابط على مسيرة بضعة أيام ، فى نهاية مقاطعة « مَنْشا » ، بين جيان وقرطبة . ولكن غلب الرأى بوجوب مهاجمة القلعة ، إذ كان من المعروف أنها تحوى أموالا طائلة ، وكميات عظيمة من المؤن ، التى بدأ النصارى يشعرون بنقصها . وما كاد المسلمون يقفون على نية عدوهم ، حتى بعث قائد الموحدين[1] ، سرا وتحت جنح الليل ، رسولا إلى ملك قشتالة ، يعده بتحف عظيمة وتسليم القلعة إذا سمح للحامية أن تنسحب بسلاحها ؛ وكان ملك قشتالة يميل إلى إجابة هذا الطلب لكى يستولى على القلعة بسرعة ؛ ولكن الأرجونيين والمحاربين الوافدين أبوا الإصغاء إلى أية تسوية تحقن بها دماء الحامية . بيد أنه لما أبدى المسلمون عزمهم على المقاومة بأقصى ما يستطاع ، وافق النصارى أخيراً على أن تنسحب الحامية دون سلاحها . وهنا أبدى الأمراء الأسبان تفوقهم فى فهم الحق ومبادئ الفروسة على إخوانهم فى الدين من أبناء أمم الغرب الأخرى . ذلك أنه بالرغم مما حصل عليه المسلمون فى قلعة رباح من حق الانسحاب آمنين على أنفسهم ، أراد المحاربون الوافدون أن يفتكوا بالمسلمين

---

(١) كان هذا القائد هو أبو الحجاج يوسف بن قادس ، وكان من مشاهير الجند ؛ وقد فصل صاحب روض القرطاس موقفه وسعيه لإنقاذ المسلمين (ص ١٥٧) .

عند انسحابهم . ولكن ألفونسو وبيدرو والفرسان الأسبان أعلنوا بقوة وحماسة أنهم لا يسمحون بمثل هذا النكث ، وتولوا حماية المسلمين من كل أذى حتى ابتعدوا آمنين . ووجد ألفونسو فى قلعة رباح كميات عظيمة من المؤن قسمها بالنصف بين المحاربين الوافدين ، وبين الأرجونيين ، ولم يحتفظ منها — فيما قال — لنفسه أو لجنده بشىء ؛ ولكن المحاربين الوافدين اعتقدوا فيما يبدو أن ملك قشتالة قد استأثر لنفسه بجميع التحف والنفائس . وسلمت قلعة رباح نفسها إلى جمعية الفرسان التى تسمت باسمها ، والتى ملكتها من قبل . وألقى الاستيلاء على قلعة رباح بذور الشقاق فى الجيش النصرانى . ذلك أن المحاربين الوافدين ، أسخطهم أن تنجو الحامية من بطشهم ، وحقدوا على ألفونسو لأنه فيما اعتقدوا حرمهم من الغنائم المنشودة ، وأبوا — بحجة عدم احتمالهم لجو اسبانيا الحار — أن يتابعوا الحرب من أجل المملكة الأسبانية قائلين إنهم وفوا بعهدهم فى مقاتلة المسلمين بما خاضوا من معارك أمام أسوار مجلون وقلعة رباح ؛ وأيدهم مطران بوردو أعظم أحبارهم ، فى غضبتهم وفى قرارهم ، وتمسكوا برأيهم بالرغم من كل رجاء وإقناع ووعود ؛ وفى الحال بدأوا السير عائدين إلى أوطانهم ، ولم ير الأسبان باعثاً لهذا الرحيل الفجائى لأولئك المحاربين المتحمسين من أجل الصليب سوى الحنين القاهر إلى الوطن ، أو وسوسة الشيطان . وقد وقع افتراقهم عن الجيش الأسبانى على مقربة من جيش الأعداء (المسلمين) ، الذى كانت تعد العدة لمهاجمته ، وأغضوا عن قضية دينهم وعن شرفهم ، إرضاء لشهوتهم فى الانتقام من ملك قشتالة ، الذى بالغ فى الاساءة إليهم فيما زعموا ؛ ولم يبق من أولئك المحاربين سوى أرنولد أسقف أربونه والكونت تيوبالد بلاسكون ، وهو أسبانى المولد ، وكانا قد أتيا إلى اسبانيا بنحو مائة وخمسين فارسا من لانجدوك وبواتو ، وغادر الباقون وهم زهاء خمسين ألف مقاتل الجيش الأسبانى صوب جبال البرنيه ، غاضبين حاقدين ، وخشى الأسبان عواقب اعتدائهم ونهبهم ، فأغلقوا فى وجههم جميع المدن .

ومع أن رحيل هذا العدد الجم فى تلك الآونة كان شديد الوقع على النصارى

الأسبان ، فإنهم لم يفقدوا مع ذلك شجاعتهم ، بل ساروا إلى لقاء العدو بعزم أقوى ، وأذكى شجاعتهم استيلاؤهم على حصن الأرك ، وهو المكان الذى لقى فيه ملك قشتالة قبل ذلك بسبعة عشر عاماً هزيمته الشنعاء ، وما حدث عندئذ من مقدم سانشو ملك نافارا ، وقد سد الفراغ الذى أحدثه الراحلون بفرسانه ، وهم بالرغم من قلة عددهم ، أشد براعة وإقداما .

وعلى أثر ذلك سار الملوك الثلاثة المتحالفون إلى مدينة سربطرة ، وهى القاعة التى افتتحها سلطان المرابطين فى العام السابق بعد حصار طويل . وعرض الملوك هنا جيشاً لم تخرج اسبانيا النصرانية مثله من قبل ؛ بيد أنهم لم يقفوا بسربطرة لمناعتها واتقاء الحصار لاطائل منه ، واخترقوا فى الثانى عشر من يونيه ممر مورادال فى جبال سيارا مورينا (جبل الشارات) لكى يلقوا العدو فى ناحيتها الأخرى .

وكان محمد الناصر قد عمل إلى ذلك الحين على اجتناب المعركة بالرغم من كثرة جموعه خشية بأس المحاربين الصليبيين فى الجيش الاسبانى . ذلك لأن شهرة الفرسان الفرنج كانت قد سارت من المشرق إلى المغرب ، ولكنه لما وقف على رحيل أولئك المحاربين ، أخذ يسعى إلى لقاء العدو ، مؤملا أن ينزل بالنصارى الأسبان هزيمة كالتى أنزلها بهم أبوه فى موقعة الأرك . وكان يحز فى نفسه فقد قلعة رباح ؛ وبالرغم من أن حاكمها ابن قادس بذل كل ما يستطاع للدفاع عنها ، فان الناصر اعتقد فيما يظهر ، أنه قصر فى هذا الواجب ؛ ولذا ما كاد ابن قادس يصل مع الناجين من جنود الحامية إلى المعسكر ، حتى أمر الناصر بقتله جهاراً نزولا على نصح وزيره أبى سعيد بن جامع ، وكان رجلا كثير الدس يبغض كل الزعماء الموحدين والأندلسيين ؛ وكان لمقتله أثر سيء فى الجيش كله ، ولا سيما بين جند الأندلس ، ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع ، وأن مقتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم .

وعلى أثر سقوط قلعة رباح ، غادر محمد الناصر مع جيشه الرئيسى مدينة جيان ، وسار إلى ضفة نهر الوادى الكبير اليمنى نحو بياسة ، واحتلت سريات من

خيرة جنده ممرات جبل الشارات (سيارامورينا) المؤدية إلى أبدة وبياسة . ومع ذلك فقد استطاع النصارى بعد أن نفذوا إلى ممر مورادال أن ينتزعوا بعد معركة عنيفة قلعة فِرّال الواقعة فى قمة الجبل ، وكان الموحدون قد قصروا فى شحنها بالمدد الكافى من الجند . ولكن النصارى لم يغنموا بأخذها كثيراً ؛ ذلك لأنه لم يكن فى استطاعتهم نظراً لانعدام المياه فى تلك المفاوز الشاقة ، أن يطيلوا المكث بها دون التعرض لأعظم الأخطار ؛ هذا إلى أنهم لم يروا سبيلا للاستيلاء على الممرات الجبلية التى شحنت بالرجال ورتب الدفاع عنها أعظم ترتيب . وكان المسلمون عند ما رأوا تعذر الدفاع عن الآكام المرتفعة ، قد احتلوا بخيرة جندهم الممر الذى يفضى من أعلى الجبل إلى سهل تولوزا . وقد أكد ألفونسو ملك قشتالة فى رسائله إلى البابا أنوسان الثالث ، أنه يستحيل على قوى العالم كلها أن تخترق هذا الممر إذا تولى الدفاع عنه ألف مقاتل فقط . ففى ذلك المأزق الخطر ، كان يتعذر القيام بأية خطوة أخرى ، وكان يبدو أن خير ما يمكن عمله ، أو بالحرى أن المخرج الوحيد الممكن لاتقاء الهلاك من الجوع والعطش فى ذلك الجبل الوعر هو الارتداد ومحاولة دخول الأندلس من طريق آخر . وبينما كان ملك قشتالة يصر على رفض أية حركة ارتداد — لأنه كان يأبى أن ينسب النصر إلى الأعداء فى حين أنه لم يشتبك معهم بعد — إذ تقدم راع من رعاة هذا المكان ووعد بإرشاد الجيش إلى طريق يقع فى مرتفع آخر ويمكن سلوكه دون أن يفطن العدو ، وينحدر الجيش منه إلى سهل أبده دون أن يتمكن العدو من إعاقته . ولما تحقق الملوك — بإرسال القائد المجرب ديجو لوبز دى هارو لمعاينة الطريق — من صحة هذه الرواية ، أمروا فى نفس اليوم (يوم السبت ١٤ يوليه) برحيل الجيش ؛ وسار النصارى بإرشاد الراعى ، الذى اعتبر عندئذ منقذاً أرسل من عند الله ، فاحتلوا المرتفع المذكور ، وكان به بسيط شاسع يصلح لنزول الجيش ، وحصنوا المكان ، وبقى الملوك فى مكانهم مع القوات الاحتياطية إخفاء لحركة الجيش عن المسلمين ؛ ثم غادروا فى النهاية قلعة فرال فاحتلها المسلمون على الأثر ، معتقدين أن النصارى قد ركنوا إلى الفرار .

ولكن سرعان ما وقف المسلمون على مكان عدوهم الجديد ؛ وبالرغم من المزايا التى حصل عليها النصارى باحتلال هذا المكان ، فإن سلطان الموحدين ، واثقاً من تفوق قواته ، دعاهم إلى القتال فى نفس اليوم ؛ ولكن الملوك الأسبان لم يقبلوا هذه الدعوة ، إذ كان جيشهم منهوك القوى من أثر السير إلى مكانه الجديد ، ولم يكن قد تم تحصين المعسكر .

وفى اليوم التالى نظم محمد الناصر جيشه لخوض المعركة ، ولكن الملوك النصارى آثروا الاعتصام بموقعهم المنيع ، ولم يسمحوا إلا لبعض الفرسان البواسل بالالتحام مع العدو فى مبارزات ثنائية . ولم يرد النصارى أن يكدروا صفو الأحد بأعمال الحرب الدموية ، بل أرجأوها إلى اليوم التالى . ولم يكن من الميسور أن تؤجل المعركة بعد ؛ إذ بدأت المؤن فى النقص واضطروا إلى مراعاة أشد الاقتصاد فى الماء . ووقف الناصر على أحوال المعسكر النصرانى من بعض الخونة ، وأخذ يفاخر بأنه لن تمضى ثلاثة أيام أخرى حتى يقع الملوك الثلاثة المحصورون فى الربى وجيوشهم أسرى فى يديه .

وبعد أن عكف الجند النصارى على الصلاة والدعاء وتلقوا البركة لخوض المعركة ، والغفران البابوى العام على يد الأساقفة ، رتب الملوك الأسبان فى الصباح الباكر ، من يوم ١٦ يوليه جندهم لخوض المعركة على النحو الآتى ، وقد رابط البعض على سفح الجبل ، والبعض فوق الربى : تزعم ألفونسو ملك قشتالة قلب الجيش ، مع احتفاظه بنوع من الإشراف على الجيش كله ، وكان القلب يضم أربعة فرق ، تتألف الأولى من سكان الجبال القشتالية ويقودها ديجو لوبز ؛ وتتألف الثانية من فرسان قلعة رباح وشنت ياقب والاسبتارية والداوية وبعض جند الحدود القشتالية ، ويقودها الكونت جونزالو نونيز دى لارا ؛ والثالثة تتألف من جند وفرسان من قشتالة القديمة واشتوريش وبسكوينه ويقودها الكونت ردريك دياز كاميروس ؛ وتتألف الرابعة من الجند الاحتياطى من طليطلة وبعض قوات ليون ، ويقودها الملك نفسه ؛ وكان يرافق القوات الاحتياطية ، فضلا عن المطران

ردريك الطليطلى مؤرخ هذه الموقعة ، عدة أساقفة من قشتالة وليون مع جندهم .

وكان يقود الجناح الأيمن سانشو ملك نافارا الباسل ، مؤلفاً من فرسانه ومن جند سُريا وآبلة وسقوبية ومدينة سالم ، وكذلك من الفرسان الفرنسيين الذين أتى بهم أرنولد مطران أربونة ، وجند جليقية والبرتغال وعلى رأسهم الأمير البرتغالى .

أما الجناح الأيسر فكان ينقسم أيضاً إلى أربع فرق ؛ ويتألف كله من قوات أراجون ما عدا بعض جند المشاة القشتاليين ، ويقوده الملك بيدرو ومن حوله الأحبار والعظماء والأرجونيون .

وقسم محمد الناصر الذى رابط بقواته تجاه النصارى فى سهل تولوزا ، جيشه وفق الأوضاع الموحدية إلى خمس فرق . وكانت الفرقة الأمامية تتألف من المتطوعة ، وهم الذين يتطوعون من تلقاء أنفسهم للجهاد أو الموت فى سبيل الإسلام ، وتقدرهم الرواية العربية بمائة وستين ألف مقاتل . واصطفت القوات الأندلسية فى الميمنة والقبائل البربرية فى الميسرة . وأما القلب والقوات الاحتياطية فكانت تتألف من صفوة الجيش من الجند المغاربة والنظاميين ، أو بعبارة أخرى من الجند الموحدين . وضرب محمد الناصر قبته الفخمة الحمراء ، فى وسط الصفوف وارتبط أمامها جواده المسرج ؛ وقعد فى داخلها على درقته ، إيذاناً باقتراب المعركة ؛ واحتاط بالقبة حرس الأمير مشاة وفرساناً ، من الموحدين والعبيد ؛ وشهر الجند فى اتجاه العدو حرابهم فكانت سدا منيعاً دون اختراقه الموت ؛ ومدت فى الوقت نفسه حول القبة نصف دائرة من السلاسل الحديدية القوية ، حتى أصبح سلطان المسلمين وكأنه يجلس فى حصن منيع . وكان بوسع النصارى أن يروا من الربى العالية جموع المسلمين التى لا تحصى ، وقبة سلطان الموحدين الحمراء ، وأن يميزوا ما حولها من الجموع .

ولما تمت أهبات المعركة خرج سلطان الموحدين من قبته ، وهو يرتدى عباءة حرب سوداء . من مخلفات جده عبد المؤمن ، وقد رفع المصحف باحدى يديه ، وشهر سيفه بالأخرى ، وأعطى إشارة القتال والهجوم ، بينما كان قرع

الطبول الضخمة يدوى بشدة فى جميع الأنحاء .

وما كادت جموع المتطوعة من جانب المسلمين تلتقى بجنود الجبال القشتاليين وجموع الفرسان من جانب النصارى ، ويشتبك الفريقان فى معركة حامية ، ويتحرك الجناحان فى كل من الجيشين تجاه بعضهما حتى غدت المعركة عامة . وكان هجوم المتطوعة المسلمين شديداً فى البداية ، ولكنهم لم يستطيعوا اختراق صفوف الفرسان القشتاليين ؛ ذلك أن هؤلاء كانت تؤيدهم جماعات الفرسان الدينية ، فاستطاعوا أن يردوا جموع العدو وأن يمزقوها ، واستشهد ألوف من المسلمين فى سبيل دينهم . ولكن القشتاليين حينما عمدوا إلى مطاردة المتطوعة المسلمين ، وتقدموا بذلك ظافرين ، من قلب الجيش الإسلامى حيث حشدت صفوة الجند ؛ لقوا أشد مقاومة ، وسرعان ما اضطروا إلى مغادرة مراكزهم الأمامية ، وارتدوا فارين وتابعهم الفرسان القشتاليون فى فرارهم .

ولما رأى ملك قشتالة من الربى تطور المعركة على هذا النحو السيء ، أراد أن يسير بنفسه على رأس الجنود الليونيين والطليطليين ، وهم جماعة مختارة كانت تؤلف القوة الاحتياطية ، وأن يقتحم الميدان ليحاول محاولة اليأس الأخيرة ؛ وكانت كلماته التى قالها لمطران طليطلة وهى «إن الساعة قد حانت لنلقى الموت المجيد» تدل على أنه لم يكن يؤمل النصر بعد . ولكن اعتراضات المطران والقوامس ردت ألفونسو عن أن يخوض بنفسه أعظم الأخطار . وأرسلت فى الوقت نفسه قوات من أشجع الجنود لإمداد الجيش المرتد ، وسار الأحبار أنفسهم على رأس الجند إلى قلب المعمة ، وهم يرفعون أعلاما عليها صورة المسيح والعذراء ، ويثيرون بذلك أعظم الحماسة فى نفوس الجند .

وانتهزت جماعات الفرسان والجند الجبليون فرصة تقدم الأمداد الجديدة ، ليلموا شعثهم وينظموا جموعهم ، ثم عادوا فاستأنفوا زحفهم بمؤازرة القوى الجديدة وهم يحطمون كل مقاومة فى اتجاه قلب الجيش الإسلامى حيث كان محمد الناصر وحرسه . وفى الوقت الذى صوبوا فيه هجومهم على دائرة السلاسل الحديدية التى

احتشدت من ورائها ألوف مؤلفة من الحرس شاهرين الحراب ، كان جناحا الجيش الاسلامى قد حطما ؛ ذلك أنه سرعان ما بدأت الموقعة حتى ركن الأندلسيون الذين كانوا يقاتلون مرغمين مع الموحدين إلى الفرار ، وترتب على ذلك أن وقع اضطراب عظيم فى الجيش الاسلامى ، ولم يصمد فى القتال ، سوى جند الموحدين النظاميين والحرس من السود والمغاربة ، فقد لبثوا من وراء السلاسل يقاومون النصارى ، ويحاولون انتزاع النصر منهم ؛ ولبثوا من وراء هذا المعقل الصناعى يردون الهجمات التى يصوبها النصارى إليهم من كل صوب بشجاعة وجلد لامثيل لها ؛ ولكن الفرسان النصارى ضاعفوا جهودهم لتحطيم الدائرة الحديدية ، ووثب الكونت الفارو نونيز دى لارا على رأس كتيبة من الفرسان القشتاليين وفى يده العلم الملكى ، فاقتحم الدائرة غير مبال بالحراب المصوبة أمامها ؛ واقتحمها فى الوقت نفسه الملكان سانشو وبيدرو من الجانبين المتقابلين ، ونفذا إلى قلب الجيش الاسلامى ، بعد أن مزقا الجموع التى تصدت لهما .

ولما حطمت الدائرة الدفاعية غدا نصر النصارى تاما حاسماً . وكانت هزيمة المسلمين فادحة . ولبث محمد الناصر يذكى حماسة حرسه حتى آخر لحظة ؛ ولما رأى الهزيمة حلت بجيشه ، ووقف على موت ولده الأكبر الذى قتل فى المعركة وهو يقاتل قتال الأبطال ، لم يرد فيما يبدو أن يعيش بعد ، فقعد فى خيمته على درقته ، والعدو الظافر يدنو منه . فأقبل إليه أعرابى ، ونبأه بفرار جنده ، وناشده ألا يقعد بعد ، فقال محمد « صدق الرحمن وكذب الشيطان » ؛ ثم امتطى صهوة جواده أخيراً ، وغادر ميدان الحرب مسرعا مع نفر من أصدقائه المخلصين ، واتجه صوب بياسة ، ولكنه لم يقف بها ، بل سار منها تواً إلى إشبيلية .

وتعرف هذه الموقعة التى أحرز فيها النصارى هذا النصر الباهر ، وكانت ضربة قاضية لسيادة الإفريقيين فى اسبانيا ، فى الرواية الاسبانية بموقعة ناقاس دى تولوزا Navas di Toloza أو موقعة أبده ؛ ولكنها تعرف فى الرواية الاسلامية بموقعة العقاب[1] ، ويضع المؤرخون المسلمون تاريخها فى يوم ١٥ صفر

---

(١) يتتبع المؤلف فى سياق حديثه عن الموقعة رواية ابن أبى زرع فى روض القرطاس =

سنة ٦٠٩ هـ ، الموافق ١٦ يوليه سنة ١٢١٢ م ، ويعتبرونه من أسود أيام تاريخهم ؛ وينسبون الهزيمة من بعض الوجوه إلى غطرسة مليكهم ، إذ وضع كل ثقته فى مئات ألوف الجند ، وفى دربتهم ، وفى مقدرة قواده ، وفقد بذلك عون البارى جل وعلا ؛ ويرمون من جهة أخرى الأندلسيين بالجبن والخيانة إذ ركنوا إلى الفرار بعد معارك قصيرة . أما النصارى فينسبون نصرهم على عدو يفوقهم ضعفين فى المدد إلى عون الله ، الذى هيئ لهم بما عمدوا إليه قبل الموقعة من الصلاة والابتهال ؛ ولذا فإنهم لم ينسوا أن يقدموا شكرهم إلى الله فى حفلة قداس نظمها الأحبار والأمراء فى ميدان الحرب ، ورتلت فيها أناشيد الشكر والعرفان .

وإذا قارنا الروايات العربية والنصرانية ، وجدناها تتفق جميعاً ، فى أن عدد القتلى من المسلمين كان عظيما جدا ؛ بل نجد المؤرخين المسلمين خلافا لعادتهم يصورون هزيمتهم بأعظم مما يقدر الأسبان خسائر أعدائهم . ولما كان الملوك الأسبان قد أنذروا بالموت كل اسبانى يأسر مسلماً ، فقد هلك من المسلمين أثناء الفرار أكثر مما هلك فى الموقعة ذاتها . ذلك أن الأسبان لبثوا مدى أربع ساعات يطاردون أعداءهم الفارين ويقتلون كل من ظفروا به . وتقول الروايات العربية إنه لم ينج من الجيش الإسلامى وقوامه ستمائة ألف مقاتل سوى مائة ألف ، وهو قول يحمل طابع المبالغة[(١)] . ويقدم إلينا ثلاثة شهود عيان هم الملك ألفونسو ، ومطرانا طليطلة وأربونة عن خسائر المسلمين أرقاما أقل ؛ فيقدرها ردريك الطليطلى بمائتى ألف ، والملك ألفونسو بمائة وخمسة وثمانين ألف فارس ، وعدد لا يحصى من المشاة (وذلك وفقاً لأقوال بعض حشم السلطان محمد الذين أسروا فيما بعد) ، قتل منهم

=(ص ١٥٧ وما بعدها) وتعرف الموقعة فى معظم الروايات الاسلامية ، بموقعة العقاب ، وتسمى فى روض القرطاس أيضاً بحصن العقبان (ص ١٥٨) ، ويضع ابن خلدون تاريخها فى أواخر صفر سنة ٦٠٩ هـ (ج ٦ ص ٢٤٩) راجع أيضاً المراكشى ص ١٨٣ ، والحلل الموشية ص ١٢٢ والاستقصاء ج ١ ص ١٩٣ ،

(١) راجع روض القرطاس ص ١٥٩ ، والحلل الموشية ص ١٢٢ والمراكشى ص ١٨٣ .

أثناء الموقعة نحو مائة ألف فقط ، وهلك القيم الأعظم أثناء الفرار . ويقدر المطران أرنولد خسائر المسلمين خلال الموقعة بستين ألفاً فقط ، ويقول إنه من الممكن أن يكون قد هلك منهم أكثر من ذلك أثناء الفرار . وقدرت الأميرة القشتالية برنجاريا فى خطابها إلى أختها الملكة بلانكا ملكة فرنسا ، قتلى المسلمين بخمسة وثمانين ألفاً منهم خمسة عشر ألف امرأة قتلن بعد الموقعة . بيد أن الروايات النصرانية الوثيقة تجمع على أن خسائر النصارى كانت ظفيفة جدا ، وتقدم إلينا أرقاما لا يمكن تصورها . ذلك أن الملك ألفونسو والمطران ردريك يؤكدان أنه لم يقتل من جانب النصارى سوى خمسة وعشرين ، ويقدر مطران أربونة خسائر النصارى بخمسين ، وتقدرهم برنجاريا بمائتين . وتقول الملكة بلانكا فى رسالتها إلى أميرة شمبانيا أن قتلى النصارى بلغوا أربعين فى الهجمة الأولى . ولكن من الواضح أنه حين المعارك الأولى فى بدء الموقعة حينما ارتد القشتاليون والفرسان أمام الموحدين بخسائر كبيرة ، لا بد أن يكون عدد القتلى من النصارى كبيراً ، ويقدم إلينا الراهب البريكوس الذى عاش قريباً من الموقعة ووعى أخبارها أحسن تفسير لهذا الرقم الضئيل لقتلى النصارى ، فيقول إنه هلك فى الموقعة من المسلمين مائة ألف ، ولكن هلك من النصارى فى نفس الوقت عدد كبير ، وإنه حينما انتهت الموقعة بالنصر ، لم يهلك من النصارى فى مطاردة المسلمين سوى نحو ثلاثين مقاتلا .

وظفر الأسبان فى معسكر المسلمين بغنائم لا تقدر ، من الذهب والفضة ، وثمين الثياب ، والأقمشة الحريرية ، والبسط ، والآنية الثمينة ، والنقود . ولم يعمد إلى النهب سوى المشاة وقسم من الفرسان الأرجونيين ، بينما شغل باقى الفرسان بالقضاء على فلول الجيش المنهزم . ودهش الظافرون لما لقوا من دواب الحمل والمؤن ، ووجدوا من السهام وحراب الرمى والرماح فى ميدان القتال وفى المعسكر كميات عظيمة جملوا وقودهم منها أياما ولم يأتوا مع ذلك على نصفها ، وذكر أحد المعاصرين أن نقلها كان يقتضى آلافا من دواب الحمل .

وقد أشارت النسخة المطبوعة من الرواية الأسبانيـة العامة التى تحمل اسم ألفونسو الحـكيم ، والتى تفيض بالقصص الخرافية ، إلى الموقعة بإيجاز ، ولـكنها تزعم أنه حدث قبيل الموقعة بقليل أن ظهر فى السماء صليب كبير شـديد اللمعان بشيراً بالنصر المحقق . بيد أن هذه المعجزة لم يرد ذكرها فى رواية المطرانين اللذين شهدا الموقعة ولا فى رواية الملك ألفونسو ؛ بل لم يرد ذكرها فى النسخ الخطيـة الوثيقة للرواية الأسبانية العامة ، فمن الدهش إذاً أن نرى كثيراً من المؤرخين الأسبان يرددون ذكر هذه المعجزة ، ويعتقدون فى صحتها ؛ وهذا مما لا يشفع فيه أنها كانت تذكر فى العصر القديم ، فى القداس الذى يعقد فى ١٦ يوليه من كل عام فى طليطلة ، باسم « ظفر الصليب » .

وكان من آثار هذا النصر العظيم أن استطاع النصارى بسهولة أن يفتتحوا عقب الموقعة بأيام قلائل عدة حصون مثـل فرال ، وبلقس وبانيوس وتولوزا وبياسة . ولم يكن فى بياسة سوى المرضى والضعاف ، والظاهر أنها كانت بمثابة المستشفى للجيش . وكان هؤلاء التعساء قد احتشدوا فى مسجد المدينة الـكبير ، ينتظرون مصيرهم جزعين ؛ فشاءت قسوة النصارى أن يجهزوا عليهم جميعاً بالسيف ما عدا قلائل منهم أخذوا أسرى . بل ذهب النصارى الذين أعمتهم نشوة الظفر فى قسوتهم وبطشهم إلى أسفل درك حينما هاجموا مدينة أبده التى اعتصم بأسوارها القوية بعض فلول الجيش المنهزم وسكانها العزل ؛ وكان المسلمون يأملون نظراً لمناعة المدينة الطبيعية والحربيـة أن يردوا هجمات أعدائهم حتى يحل فصل الشتاء ، ونظم النصارى فى الواقع على المدينة هجوماً عاما خسروا فيه كثيراً من القتلى ، ولم يسفر عن أى نجاح ؛ لولا أن اسـتطاع الأرجونيون أن يتسلقوا الأسوار فى أضعف نقطة فيها ، وأن يحتلوها . ولـكن القلعة وباقى أطراف المدينة بقيت على ثباتهـا رغم جهود الأسبان ؛ وعندئذ رأى الملوك والقوامس أن خير الطرق وأكثرها إنسانية هى أن يقبل النصارى ما عرضـه المسلمون ، وكان المسلمون حينما سقطت بعض أجزاء السور فى يد الأرجونيين قد خشوا العاقبة ،

وأرسلوا إلى الملوك النصارى يعرضون عليهم فدية قدرها ألف ألف قطعة من الذهب (دينار) على أن يتركوا المدينة حرة يسكنها المسلمون وفقاً لشريعتهم وشعائر دينهم ؛ وهكذا قبل العرض وعقد الملوك مع المدينة اتفاقات بهذا المعنى نظراً لما أنسوه من صعاب فى افتتاحها . ولكن الأحبار الظمئين إلى دماء المسلمين ، أعلنوا بطلان هذا الاتفاق ، وطلبوا أن تسلم المدينة دون قيد ولا شرط ، فشاء ضعف الملوك أن ينقضوا العهد المقطوع ، منتحلين لذلك عذراً ، هو أن المسلمين بعد أن فتحوا أبواب المدينة للنصارى ، لم يؤدوا الفدية المفروضة عليهم فى الحال ؛ وسرعان ما أطلق النصارى العنان لقسوتهم فى معاملة هؤلاء المنكودين ؛ فقتل من المسلمين فى أبده زهاء ستين ألفاً ، وسبى مثل هذا القدر ، وهدمت الدور بعد أن خلت المدينة من سكانها ، وعندئذ أبدى الأحبار رضاهم ، ورتلوا أناشيد الشكر ضارعين إلى المولى أن يشملهم برحمته .

وانساق النصارى بعد أخذ أبده إلى اللهو والإغراق ، وهما قرينا حسن الطالع والسمة ، حتى استنفدت المؤن بسرعة ، وشعروا بنقص شديد فى الحاجات الضرورية ؛ ثم دبت إليهم الأمراض وأهلكت منهم ألوفاً ، فاضطر الجيش أن يعود أدراجه إلى قلعة رباح ، دون أن يتابع نصره بعد ؛ وهنالك التقوا بالدوق ليوبولد النمسوى ، الذى قدم للعون فى كتيبة من الجند ، فشكروه على حسن اهتمامه ؛ ولما علم أن الحرب قد انتهت عاد مع قريبه الملك بيدرو إلى أراجون . ودخل الملكان الآخران طليطلة فى حفل فخم ، وسارا فى موكب لا نهاية له من الأمراء والأحبار والجند وأفراد الشعب ، إلى كنيسة العذراء حيث أقيمت صلوات الشكر على ما أوتوا من النصر ، وتقرر تخليداً لهذه الموقعة الظفرة أن يحتفل فى السادس عشر من يوليه كل عام فى طليطلة ، ثم فى قشتالة كلها فيما بعد ، باقامة حفل عظيم للشكر يسمى « بظفر الصليب » ، وأرسلت إلى البابا طائفة من الهدايا النفيسة منها خيمة حريرية ، وطبق كبير من الذهب ، وعلم محلى بالذهب ، وعرضت هذه الهدايا فى كنيسة القديس بطرس تذكاراً للنصر .

الفصل الثالث

بيدرو الثانى ملك أراجون

تحدثنا فيما تقدم عن القسط الذى قام به بيدرو فى محاربة المسلمين فى شبه الجزيرة ، ولا سيما عما قام به فى موقعة العقاب ، وكذلك عن تحالفه مع قشتالة ضد ليون وناقارا ، ونقتصر هنا على التحدث عنه فيما يتعلق بتاريخ أراجون وحدها .

خلف بيدرو الثانى ، وهو فى الثالثة والعشرين ، فى الحكم أباه ألفونسو ، فى ١٦ مايو سنة ١١٩٦ ؛ والظاهر أن أمه الملكة سانشا حاولت أن تنتهز فرصة حداثته فتنازعه الحكم ولقب الملك . ذلك أنه لم يضع يده على المملكة ، ولم يتلقب بألقاب الملك الا بعد ذلك ، فى المجلس الذى عقد فى دروقة فى ١٣ سبتمبر سنة ١١٩٦ بموافقة الطبقات الثلاث والملكة الأرمل ؛ وفيه جددت أيضاً جميع القوانين والحريات التى صدرت عن ألفونسو الأول ، وراميرو الثانى ، ورعوند برنجار الرابع ، وصودق عليها .

وما كاد بيدرو يلى الحكم حتى عمد إلى العمل على تأييد سلطة العرش ضد أتباعه الأقوياء من البارونات ، وهم عقب الفاتحين الأوائل ، فاسترد الوظائف العليا والإقطاعات التى كانت تتوارثها الأسر الكبيرة وفقاً للتقاليد ، معتمداً فى ذلك على حقوق العرش ، وذلك لكى يوزعها من جديد وفق رأيه وتقديره . بيد أنه رأى اتقاء لما يثيره ذلك من سخط الأشراف أن يترك لهم الأراضى المقطوعة وما يتعلق بها من حقوق القضاء الأدنى لتبقى لهم بطريق التوارث ؛ وذلك بشروط خاصة تتعلق بالإخلاص للعرش ومعاونة الجيش وغيرها . أما السلطة القضائية

فتعود إلى الملك. وقد قام الملك يومئذ بتوزيع خمسمائة وسبعين ضيعة إقطاعية من سبعمائة توزيعاً جديداً ، ولكن المرجح أن أصحابها لم يذعنوا جميعاً لهذا التغيير . أما القضاة فكان يعينهم الملك ، إما لأجل معين أو لمدى الحياة ؛ وكان يختارهم من أكابر الأشراف (البارونات) Ricos أو يختارهم من بين صغار الناس ، أعنى من بين الفرسان Cavalleros بيد أنه كان يختارهم فى الغالب من بين هؤلاء ؛ وكان يعين دائماً فارساً فى منصب قاضي القضاة لكي يحد من نفوذ البارونات القوى حداً شديداً . وقد كان هذا فيما يبدو منشأ القضاء الأرجونى ، الذى علا سلطانه فيما بعد على سلطان الملك ذاته . وكان القاضى الأكبر ، أو قاضى القضاة ، فى عصر بيدرو الثانى الذى يعتبر مؤسس هـذه السلطة القضائية ، يعتبر أعظم سلطة فى الدولة ، لا بالنسبة للرعية فيما بينهم فقط ، ولكن أيضاً فيما يتعلق بمنازعات الرعية ضد العرش . وكان عليه أن يحمى حقوق الحكومة ، وأن يمثل — باعتباره كبير القضاة — شخص الملك . كما أن عليه أن يحمى حقوق الأشراف والرعية من أطماع الملك ؛ وكان يتوقف على براعة الإدارة الحكومية ما إذا كانت هـذه السلطة القضائية العليا يمكن أن تعمل لتوطيد السلطة الملوكية وتقويتها أم لا ، وقد كانت فى الحالة الأخيرة تنتزع من السلطة الملوكية أهم امتيازاتها .

وقد فقدت الاثنتا عشرة أسرة من البارونات — وهى التى كانت حتى عصر بيدرو الثانى تقبض فى أراجون على معظم الأراضى والغلات ، وتسيطر على الجيش والفرسان ، عدا السلطة القضائية ، فى ظل بيدرو الثانى — امتيازها فى الانفراد بتكوين طبقة الأشراف . ورفع بيدرو بعض موظفى البلاط ، والفرسان الذين يصطفيهم ، إلى طبقة الأشراف العليا ، وأقطعهم جزءاً من الأراضى والغلات ؛ فاستطاعوا بذلك أن يقتدوا بالبارونات فى استئجار الفرسان ، وأطلق عليهم أيضاً لقب البارونات Ricos ، بيد أنه كان يطلق عليهم بارونات البلاط أو البارونات الملكيون de Mesnada تمييزاً لهم من البارونات بالمولد . وكان هـذا تقليداً للنظام القوطى فى تقسيم الأشراف إلى قسمين يطلق عليهما Gardingi و Palatini ؛

والأولون هم الذين يستطيعون وفقاً لمولدهم وحقوقهم أن يملكوا الأرض ، والآخرون هم الذين يتولون الوظائف ويملكون الأرض بمنحة من الملك .

وفضلا عن ذلك ، فقد كانت الأمة فى أراجون وفى معظم الممالك النصرانية الأسبانية تقسم من حيث التمتع بالحرية إلى سبع طبقات ، أو بالحرى إلى سبعة دروع على مثل ما كانت عليه فى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا ؛ والدرع الأول يحمله الملك ، لأنه ليس مسئولا أمام أحد ، والثانى يحمله أكابر الأحبار ، والثالث البارونات بالمولد ، لأنهم لا يسئلون إلا أمام الملك فقط ؛ والرابع البارونات الملكيون ، إذ هم عرضة للمسئولية أمام البارونات بالمولد ، وإن كانوا مثلهم فى حق التمتع بامتلاك الأرض . ومن هذه الطبقات الأربع تتألف طبقة الأشراف العليا . والطبقة الخامسة هم حملة الأعلام الأحرار الذين لا يؤدون جزية ما ، والسادسة تتألف من الفرسان ، وهم الذين يقطعهم البارونات من الصنفين ؛ والطبقة السابعة والأخيرة تتألف من باقى الأحرار ، وعامة سكان المدن الأحرار الذين ولدوا فى ظل الزواج .

وكانت مملكة أراجون قد نقصت مساحتها على أثر وفاة ألفونسو الثانى ، وذلك نظراً لاقتطاع ولاية بروڤانس منها وإعطائها لأخى بيدرو الأصغر ألفونسو ، ولكن حدودها أصلحت بذلك ، وتخلصت من تلك المقاطعة النائية التى كانت ترغم دائما على حمايتها بالسيف من عدوان جيرانها الطامعين . بيد أن علائق الأخوين بقيت وثيقة ؛ ولما هاجم ألفونسو أمير (كونت) بروڤانس ، الكونت دى فوركالكييه وحلفاؤه ، خف بيدرو إلى إنجاد أخيه فى جيش ضخم ، وارتاع الأعداء ، فأذعنوا إلى طلب الصلح ، وعقد الصلح بين الفريقين فى سنة ١٢٠٢ م .

وعلى أثر ذلك عقد بيدرو قرانه بمارى ابنة الكونت جيوم الثامن صاحب مونبلييه ، ووارثته بعد وفاته فى ١٢٠٢ م ؛ وكانت هذه الأميرة قد اقترنت من قبل بالكونت برنار دى كومنج ، وطلقت منه بحجة القرابة ؛ وفى يونيه سنة ١٢٠٤ ، احتفل ملك أراجون بزواجه بمارى ، وتعهد بألا يتصرف فى شىء من

أراضيها الموروثة ، كما تمهد لسكان مونبلييه الذين وافقوا على هذا الزواج بحمايتهم وتركهم أحراراً فى التمتع بعاداتهم وتقاليدهم .

وبعد أن انتهى بيدرو من تنظيم شؤون مملكته الداخليـة ، بعقد المجالس النيابية ، وأخمد النازعات الداخلية ، وعمل على الحد من غطرسة الأشراف ، وعقد الصلح مع أمه سانشا ، وكانت ذات صلة وثيقـة بكثير من الأمراء التابعين ، وكانت تؤلف حزباً لمناوأة العرش ، فـكر فى أن التـاج الأرجونى قد يكسب كثيراً من القدس والاعتبار إذا تسلمه من يد رجل من رجال الدين ؛ وكان بيدرو يشغف بمظاهر البذخ والبهاء ؛ بيد أن ذلك لم يكن وحده هو الباعث على ما اعتزمه من أن يتوج فى رومه ؛ ولـكنه كان يعول بالأخص على أن مثل هـذا التتويج يدحض دعوى الأشراف الأرجونيين فى أنهم أصحاب الحق فى منح التاج ، ويقضى نهائيا على دعاوى ملوك قشتالة ، الذين كانت لهم السلطة العليا على أراجون حتى سنة ١١٧٧ م . وعلى ذلك فقـد سافر بيدرو فى حاشية كبيرة من الأشراف القطلونيين والبروفنسيين ورجال الدين ، إلى مرسـيليا ثم إلى جنوه ؛ ثم غادر وحاشيته جنوه فى خمس سفن بحجة السفر إلى بيزا ليعقد معها حلفاً لغزو الجزائر الشرقية (البليار) ، ولـكنه لم يقف فى بيزا بل رسا عنـد مصب نهر التيبر فى ٨ نوفمبر سـنة ١٢٠٤ ؛ وكان البابا أنوسان الثالث قد رتب كل شىء للاحتفال باستقباله فى رومه .

وفى اليوم الثالث من مقدم بيدرو ، فى يوم القـديس مارتن ، خرج البابا والـكرادلة فى جمع حافل من رجال الدين والأشراف والشعب إلى دير « بنكراتيوس » وهنالك بارك أسقف أوستيا ملك أراجون أمام الجمع الحاشـد ؛ ثم وضع البابا التاج على رأسه ، وقدم إليه شارات الملك . وعلى أثر ذلك ألقى الملك القسم الآتى : « أنا بطرس (بيدرو) ملك أراجون أقسم وأتعهد ، بأن أكون دائما مخلصاً ومطيعاً لسيدى البابا أنوسان وخلفائه ، وأن تـكون مملـكتى على مثل هـذا الإخلاص والطاعة ، وأن أحافظ على دين الـكثلـكة وأقمع كل ضروب الإلحاد ،

وأن أحمى حريات الكنيسة وحقوقها ، وأن أعمل على تحقيق العدالة والسلام فى جميع أراضى المملكة ؛ كان الله والإنجيل فى عونى » .

وبعدئذ سار بيدرو فى ثيابه الملوكية بجانب البابا إلى كنيسة القديس بطرس ؛ ووضع على هيكلها التاج والصولجان ، ورمزاً إلى أنه يقدم مملكته إلى القديس بطرس ، وهنا قدم إليه البابا السيف ، دلالة على أنه يرد إليه المملكة مع خضوعه لأداء الجزية ؛ ووضع بيدرو على الهيكل وثيقة ، يقدم فيها مملكته إلى كرسى القديس بطرس ، ويتعهد هو وخلفاؤه بأن يؤدى إليه جزية سنوية قدرها ستون قطعة من الذهب ، ويتطلب نظير ذلك حماية البابا وتعضيده .

وصدر قرار بابوى يحدد رسوم التتويج لملوك أراجون وملكاتها ؛ وملخصه أنه يجب أن يجرى التتويج فى سرقسطة على يد مطران طركونه باسم البابا ، وذلك بعد أن يطلب الملك الإذن بذلك إلى صاحب السيادة عليه فى رومة .

ولما عاد بيدرو إلى مملكته ، أبدى البارونات والفرسان تذمرهم من خضوعه لأداء الجزية للكرسى البابوى ، وحاول الملك أن يهدئ خواطرهم بتأكيده أنه تنازل عن حقوقه هو ولم يفرط فى شىء من حقوقهم ، بيد أنهم رأوا فى هذا التصرف افتئاتاً على حقوقهم خصوصاً عند اختيار الملك فى حالة انعدام الوارث المباشر ، ورأوا أنه يحمل المملكة فروضاً جديدة لا تعود عليها بأية فائدة . وكذلك رأوا أن هذه الخطوة من جانب بيدرو فى تحرير السلطة الملوكية من نفوذهم تقضى على كثير من ضروب تدخلهم فى حقوق العرش . ذلك أنه لم يكن من المعقول أن يخضع بيدرو الطموح مختاراً لأداء الجزية دون أن يحقق من وراء ذلك مغانم خاصة ؛ وقد كان أهون عليه أن يرتضى الخضوع الأسمى للبابا البعيد ، من أن يرغم على الخضوع لصولة الأشراف الأقربين .

على أن بيدرو لم يحفل لسخط الأمراء التابعين ، يدل على ذلك ما عمد إليه فى العام التالى من اتخاذ إجراءات كان من المحقق أن تزيد فى هذا السخط ؛ ذلك أنه لما كان مثل كثير من أسلافه ، قد بدد ثروات العرش وموارد الدولة بالاغداق

على الكنائس والأديار ، والمبالغة فى البذخ والإسراف ، فقد رأى نفسه مضطرا للقيام بأعبائه الكبيرة ، إلى فرض ضريبة جديدة . وكانت موارد العرش قد أنفق معظمها فى هبات إلى رجال الدين وجماعات الفرسان ؛ ولم يبق من الميسور أن تسد الضريبة العادية كثيراً من المطالب نظراً لأن جميع الأحبار والأشراف والقادة كانوا يعفون من أدائها ، وكانت تعفى منها كذلك مدن بأسرها مثل سرقسطة . ففى نوفبر سنة ١٢٠٥ ، أصدر بيدرو مرسوما ملكيا بفرض ضريبة جديدة عرفت باسم Monedaje ، وبمقتضاه يجب على جميع الأشراف الأكابر منهم والأصاغر ، وكذلك الرعايا الأحرار فى المدن ، أن يؤدوا عن جميع الثروات العقارية والمنقولة ، اثنى عشرة فلساً عن كل ما قيمته جنيه . ولم يستثن رؤساء الجند — الذين كانوا يعفون دائما من الضرائب — من أدائها ، إلا إذا التحقوا بهيئة الفرسان . وقد كان هؤلاء يخدمون فى الجيش باستمرار ، وعليهم أثناء الحرب — فضلا عن الإنفاق على أنفسهم — أن يتحملوا نفقات إنشاء الطرق وأسوار الحصون والأبواب والقناطر وغيرها ، ولهذا كان من الإجحاف أن يعامل هؤلاء مثل غيرهم فى شأن الضرائب .

وما كاد بيدرو يصدر قراره بتلك الضريبة الجائرة ، حتى قامت ضده جميع طبقات الشعب ؛ واتحد البارونات والفرسان ، أعنى أكابر الأشراف وأصاغرهم — وقد كانت مصالحهم تتعارض دائما — على مقاومة الضريبة الجديدة ، بقواهم المشتركة ؛ وحذت حذوهم مدينة سرقسطة التى اتحدت مع المدن الأخرى فى تنفيذ هذه الخطة ؛ واضطر الملك إزاء ذلك إلى تخفيض الضريبة الجديدة ، ولكنه لم يسحب قراره بشأنها ، وهكذا كانت هذه الضريبة ، أحياناً معتدلة وأحياناً جائرة وفقا للظروف والأحوال .

وليس أدل على ما كان يشعر به بيدرو من حاجة إلى المال أحياناً ، من أنه أثناء محاربته لسانشو السابع ملك نافارا (سنة ١٢٠٩م) اضطر بالرغم من سير الحرب فى صالحه أن يعقد معه الصلح ، نظير حصوله على عشرين ألف قطعة من

الذهب ، وأنه فى الحرب التى شهرها على المسلمين ، والتى انتهت بهزيمتهم فى أبدة لم يكن ليستطيع القيام بها ، لو لم يأذن له البابا فى الحصول على قسط من إيراد كنائس المملكة للانفاق عليها . وقد سنت فى ذلك الحين فى قطلونيـة ضريبة أخرى ، فرض أداؤها على كل من يملك ثورين ، وما لبثت أن فرضت فى أرجاء المملكة كلها .

ولما انتهى بيدرو من الحرب فى أبدة (سنة ١٢١٢م) ، استطاع لأول مرة أن يوجه كل عنايته إلى أملاكه فيما وراء البرنيه . وكانت حروب الألبيين قد أثارت فى هذه المنطقة اضطرابات عظيمة . وليس من موضوعنا أن نتحدث عن قيام فرقة « الفلدين » الملحدة[1] وانتشارها فى تلك الأنحاء ، ويكفى أن نقول إن المجلس الكنسى الذى عقد فى « لومبر » فى سنة ١١٦٥م ، قد قضى باللعنة على سكان لانجدوك الثائرين ، الذين عرفوا فيما بعد ذلك بالاجتهاد والسكينة . ولكن لم يوجد فى ذلك الحين من يضطلع بتنفيذ هذا الحكم ، ولم يرغب ملكا إنكلترا وفرنسا فى إجراء هذه المطاردة المنيفة ضد الملاحدة بالسيف . بيد أنه لما أصدرت اللجنة البابوية فى سنة ١١٧٨م ، حكمها ضد إقليم «ألبي» كله ، عمد الكونت روجيه الثانى صاحب بزييه وقرقشونة وألبي ورازيه ، وهو من أتباع الكونت دى تولوز وملك أراجون إلى الدفاع عن رعاياه ؛ فاضطر البابا عندئذ إلى أن يصدر ضد الكونت قرار الحرمان الكنسى ، وأن يرسل إليـه حملة صليبية ولكنه لم ينتج من وراء ذلك شيئاً ؛ والظاهر أن ألفونسو الثانى ملك أراجون لم يكن يرى فى هذه القلاقل الالحادية ، سوى وسيلة لتوطيد هيبته فى لانجدوك ضد الكونت دى تولوز ، ولهذا كان يجتنب كل ما يمكن أن يثير ضده سكان هذه الأنحاء ؛ ولم يكن مع ذلك يحابى الملاحدة ، ولكنه كان من جهة أخرى يقاوم كل إجراء عنيف يحاول وكلاء الكرسى البابوى القيام به ويجمله عبثاً ، وذلك

(١) هم فرقة من الملاحدة مثل الألبيين ، أنشأها بطرس فالدس Peter Waldes وهو تاجر من ليون ، فى سنة ١١٧٦م ، وقد انتشرت فى بروفانس ولومبارديا وشمال اسبانيا .

بالتخلي عن حمايتهم ؛ على أن ابنه وخلفه بيدرو الثانى كان فى ذلك أشد وطأة ؛ ذلك أنه ما كاد يرقى العرش ، حتى أصدر عدة قرارات ضد الملاحدة الذين حرمتهم الكنيسة ، وأمرهم بمغادرة أراضيه ، وإلا كان نصيب المخالفين نزع أملاكهم وإعدامهم حرقاً . ولما زار بيدرو لانجدوك فى سنة ١٢٠٣م ، معتزماً السفر إلى رومة ليتوج هنالك ، أبدى ميله إلى التدخل بحزم فى شأن هذه القلاقل الالحادية ، وحرضه بالأخص بعض الأساقفة الأسبان والقديس دومنيك على أن يستأصل شأفة الالحاد فى الحال بالنار والسيف ؛ ولما زار قرقشونة ، حيث اعتنق جميع السكان تقريباً مبادئ « الفلديين » ، استدعى بعض الفلديين أمام مندوب البابا ليشرحوا مذهبهم ، وليحكم بنفسه على ما إذا كانت مبادئهم تخالف الدين . وقد اقتنع الملك بأن مبادئهم تخالف تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ، وأن التهم التى يرمون بها كانت صحيحة عادلة ؛ وفى حفلة تتويجية فى رومه ، تعهد بيدرو بألا يدخر وسعاً فى مطاردتهم وسحقهم . على أنه لم يتمكن من تحقيق خطته ، نظراً لما نشب بينه وبين سكان مونبلييه من منازعات ، ولما اضطر إليه من تخصيص جميع عنايته لمقاومة الأشراف الثائرين فى أراجون ؛ هذا إلى ما كان يراه من أن محاربة المسلمين كانت أهم وأجدى .

أما عداوته للفلديين ، فتبدو واضحة فى أنه حينما أرسل البابا أنوسان حملة صليبية ضد الكونت ريمون روجيه صاحب بزييه ، والتمس الكونت إلى بيدرو معاونته بوصفه تابعاً له ، أبى بيدرو ، وخربت بزييه وقتل أهلها سواء كانوا ملاحدة أو مؤمنين ؛ وأنقذت أربونة نفسها بالمبادرة إلى الخضوع ؛ وأما قرقشونة التى تولى الكونت بنفسه الدفاع عنها ، فقد أرغمت — بعد أن رفض بيدرو الشفاعة المنشودة فى شأنها — على التسليم من أثر الجوع ؛ وأسر الكونت ، ولبث طويلا فى الأسر ، ثم قتل بطريقة لا نعرفها ؛ ومنح المندوب البابوى أملاك الكونت الأسير إلى الكونت سيمون دى مونفور دون أن يستأذن فى ذلك صاحب الجزية . وغضب ملك أراجون من ذلك أيما غضب ، وأبى إقرار هذا التصرف ،

وشجع فرسان الولاية على الثورة ضد سيمون بأن وعدهم بالتأييد والعون . بيد أنه كان من صفات بيدرو أن لا يثبت فى تصرفاته على حال ، ولا يفى بعهوده ووعوده . ذلك أنه مالبث أن نزل على رغبات البابا ، لكى يحصل بذلك على طلاق زوجه النبيلة مارى دى مونبلييه ، وصادق على تعيين سيمون دى مونفور أميراً (كونتاً) لقرقشونة ، أملا فى تحقيق هذا الطلاق . وفى سنة ١٢١١ م ، تلقى ملك أراجون عهد الطاعة من الكونت ، ووعد فوق ذلك بتزويج ابنه «جايم» أو يعقوب من بنت الكونت ، وأرسل ابنه الطفل مع الكونت ليتربى فى بلاط قرقشونة ، عربونا للوفاء بهذا الوعد .

بيد أنه ما كاد يرضى البابا ، ومطارد الألبيين (يريد الكونت دى مونفور) بهذا التساهل ، حتى عاد فأغضبهما ، بتحالفه الوثيق مع الكونت رعون دى تولوز الذى كان المندوب البابوى وسيمون دى مونفور يعملان لاغتصاب ولايته ، ورأى الكونت رعون أن يعمل على اجتناب ذلك ، فتنازل عن الولاية لابنه الذى زوجه ملك أراجون بأخته سانشا . ولما عمد سيمون دى مونفور إلى حصار تولوز ، ردعنها بخسارة . ولكن سيمون الذى سما ببراعته الحربية ما ابث أن استرد طالعه ، وعاد — ضد إرادة البابا — يتابع بنفسه فتوحاته فى أراضى الكونت دى تولوز ؛ وعندئذ حاول صهره بيدرو أن يسعى لدى البابا بكل ما وسع لعقد الصلح بين الفريقين ؛ فعول البابا على عقد مؤتمر اجتمع فى مدينة آرل فى سنة ١٢١١ م ، تحت رياسة المندوب البابوى ؛ وشهده ملك أراجون والكونت دى تولوز . ولكن طلبت إليهما شروط مهينة فغادرا المدينة آسفين ؛ وأصدر المؤتمر قراره ضد الأضعف أى الكونت دى تولوز ، بالحرمان الكنسى ، ووافق البابا على هذا القرار ؛ وتولى الكونت سيمون دى منفور تنفيذ هذا القرار بنجاح خصوصاً وأن ملك أراجون كان مشغولاً فى ذلك الوقت بمحاربة المسلمين فى موقعة العقاب .

ولما عاد بيدرو إلى مملكته وعلم بما أصاب الكونت دى توز وزه

الكونت دى فوا والكونت دى كومينج من الشدة على يد الحملة الصليبية ، عول على التدخل لدى البابا من أجل أصدقائه مرة أخرى . ولكن كل ما استطاع الوصول إليه هو أن المسألة كلها بحثت فى مؤتمر جديد عقد فى « لافور » ، وحال فيه عنت المندوبين البابويين وتعصبهم دون الوصول إلى أية تسوية ، ورفضت فيه أعدل المطالب بإباء مثير ، بل لم يبلغ فيه التماس الكونتات إلى البابا .

فعندئذ استشاط بيدرو لذلك غضباً ، واعتزم أن يساعد الكونتات المطاردين وأن يحميهم بكل ما وسع ، وأن ينزل ميدان الحرب ضد خصومهم جهاراً ؛ ووجه نقمته بادئ ذى بدء إلى تابعه الكونت سيمون دى مونفور أداة العنف البابوى ، ودعاه إلى النزال ، وأعلن بطلان حق الجزية الذى منحه إياه ؛ فحاول الكونت فى البداية أن يهدىء غضب الملك ، ولكنه لما رأى خيبة مسعاه نهض لمقاومته مع جميع السادة التابعين له وأعلن الحرب ضده جهاراً فى خدمة الكنيسة . ولم تثمر دعوات البابا عندئذ إلى السلم ، ولم يحدث وعيده لبيدرو بالحرمان إذا لم يكف عن حماية الملاحدة أثراً ؛ ذلك أن التعصب والخبث كانا يرميان بالالحاد عندئذ كل مجاهد ضد العنف والظلم والجشع .

ونزل بيدرو ميدان الحرب فى ربيع سنة ١٢١٣ م إلى جانب الكونت دى تولوز والكونت دى فوا والكونت دى كومينج ، معتزماً أن يرد عليهم أملاكهم. ولما وصل إلى قلعة موريه التى تقع على قيد بضع ساعات من تولوز وحاصرها خف سيمون دى مونفور فى جيشه الصليبى إلى لقائه . ولما كان الحلفاء قد أهملوا احتلال المضايق الجبلية التى كانت تحول دون تقدم الجيش الصليبى ، فقد استطاع هـذا الجيش أن يعبر نهر الجارون وأن ينفذ إلى قلعة موريه المحاصرة ، وأن يدعو بيدرو إلى خوض المعركة فى اليوم التالى ، وهو الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٢١٣ ، وكان ملك أراجون فى تصرفه فارساً شجاعاً أكثر منه قائداً حريصاً . ذلك أنه رفض نصح الكونت دى تولوز الحكيم بأن يترك الهجوم للعدو ، حيث يصبح نصرهم فى تلك الحالة أمراً محققاً ، وحملته شجاعتــه وشهوته للحرب أن يستبدل سلاحه

الملكى بسلاح فارس ، وأن يتقدم إلى لقاء العدو فى أول صف ؛ على أنه عرف ، بالرغم من تنكره ، ووجه الأعداء الهجوم إليه ؛ ولكن الملك البطل لم يرعه ذلك ولبث يرد الفرسان الذين ينقضون عليه من كل صوب ، حتى سقط صريعاً ؛ وكان موته ضربة شديدة للجيش المتحالف الذى كان مؤلفاً بالأخص من الجند المشاة ؛ ومع أنه لم يشتبك فى الموقعة بعد — إذ الواقع أن بيدرو كان يقاتل فى نفر من الفرسان ، فرسان الصليبيين بقيادة الكونت سيمون — فإنه لم يلبث أن ركن إلى الفرار بلا انتظام وقد سرى إليه الروع ، وحلت به الهزيمة الساحقة ؛ وزعم خصومه بذلك أن نصرهم كان معجزة ، إذ قالوا إنهم استطاعوا بألف وخمسمائة مقاتل — هم الفرسان الذين اشتبكوا مع فرسان بيدرو — أن يهزموا جيشاً من مائة ألف .

وقد اشتهر بيدرو حتى بين خصومه بالفروسة والشجاعة ؛ وكان يدعمهما ما يتمتع به من قوام ضخم ، وقوة جسمية نادرة . وكانت خلاله مثل معاصره الملك رتشارد الإنكليزى مزيجاً عجيباً من العواطف النبيلة والكريمة والملوكية ، مع الصلابة والقسوة والإسراف والتهتك . وكان شاعراً غنائيا (تروبادرو) — وقد انتهت إلينا قصيدة من شعره — ومغنياً للحب ، وحامياً كريماً للنساء ، ولكنه كان فى تصرفه نحو الأم والزوج قاسياً متجنياً . وكان كثير التقلب فى أهوائه ؛ وقد أراد أن ينفصل عن زوجه النبيلة مارى دى مونبلييه التى اشتهرت بالفضيلة والتقى ؛ والظاهر أن البابا أنوسان الثالث كان يميل فى البداية إلى إجابة مطلبه ، ولعل ذلك من باب السياسة حتى يستميل إليه بيدرو ؛ فلما أعلن بيدرو نفسه حامياً ومدافعاً عن الأمراء المطاردين فى لانجدوك ، أبى البابا نزولا على نصح الكرادلة أن يمنحه الطلاق المرغوب .

الفصل الرابع

تاريخ مملكتي ليون وقشتالة

منذ موقعة العقاب حتى اتحادهما

ما لبثت المنازعات أن ثارت بين ليون وقشتالة عقب موقعة العقاب والنصر على الموحدين، وأضرت بسير الفتوح ؛ ثم اقتضى التزامَ المدنة والقعود عن الحرب لخطٌ مروع، عصف بشبه الجزيرة كلها، ولا سيما قشتالة، وقضى الجوع على حياة ألوف عديدة، واضطر الموسرون أنفسهم إلى تناول أغذية كانوا يأنفون منها من قبل، ومن ثم كان من المتعذر التفكير فى تنظيم حملة كبيرة لمقاتلة المسلمين، وأخفقت الحملات الصغيرة التي نظمت لأن الجيوش كان ينقصها الطعام.

ولم يمض سوى قليل على مقدم ألفونسو النبيل إلى طليطلة عاصمة مملكته، حتى وصلته الأنباء باعتداء ملك ليون على أراضيه . وكان ملك ليون قد احتل القلاع الواقعة على ضفاف دويرة على حدود المملكتين عقب إخلائها من الجند، وادعى أن قشتالة انتزعتها ظلماً من ليون، وشجعه هذا النجاح على إعلان الحرب على ملك البرتغال أيضاً، وكان قد استولى عنوة على أملاك أختيه ؛ وسار ألفونسو ملك ليون من مدينة ردريك وجليقية بجيشين لمحاربة البرتغاليين، وهزمهم هزيمة ساحقة فى « بورتلا دى بالديفر ».

ولم يكن ألفونسو النبيل ملك قشتالة إزاء اضطرام الخصومة بين الأمراء النصارى على هذا النحو ليتوقع نجاحا فى محاربة المسلمين ؛ وكان ألفونسو أقل

هؤلاء الملوك أطماعا ، وكان يرجو مخلصاً أن يسود السلام بين النصارى ، ولهذا لم يكن يتردد فى بذل أية تضحية تقتضيها مصلحة اسبانيا . وقد سعى إلى عقد الصلح بين ليون والبرتغال ، ليستطيع حملهما على التعاون فى حملة مشتركة ضد المسلمين ، وزاد على ذلك أن نبذ كل فكرة فى استرداد الأماكن التى انتزعها الليونيون قسراً على حدود مملكته ، ورأى أن يهدم بعض القلاع المجاورة تطميناً لملك ليون وإزالة لشكوكه ، وفى نظير ذلك وعده ألفونسو ملك ليون بالمعاونة فى الحملة القادمة ضد الموحدين . ولكن ألفونسو ملك قشتالة نزل وحده إلى ميدان الحرب فى أوائل العام التالى فى سنة ١٢١٣ م ، ومع أنه افتتح القصر (أو قصر أبى دانس) وتقدم بجيشه من طلبيرة إلى بسائط أشبيلية ، فان الحملة كلها أخفقت لأن الأمداد الليونية والبرتغالية لم تصل به واستطاع المسلمون فى أشبيلية أن يردوا فرق النصارى الخفيفة ، وأن يغيروا بإمرة قائدهم على أراضى قشتالة ، بيد أنهم عادوا فارتدوا بسرعة أمام أهل طليطلة .

وفى أواخر هذا العام وفى ألفونسو ملك ليون بعهده ، وسار إلى محاربة المسلمين ؛ وزحف إلى القنطرة تعاونه فرقة من الفرسان القشتاليين وافتتحها ، بينما سار ملك قشتالة إلى الأندلس معولا أن يلتقى هنالك بجيش ليون ؛ ولكنه علم أن ملك ليون بعد أن حاصر « كاسيرس » عبثاً ، ارتد إلى أراضيه ؛ فوجه عندئذ جيشه إلى أشبيليه ، وسار إلى بياسه وحاصرها ثلاثة أشهر دون جدوى . ولكنه اضطر من جراء نقص المؤن وتفشى المرض وشدة الإعياء فى جيشه أن يعود أدراجه دون أن يحقق شيئاً يذكر .

والظاهر أن القحط العظيم الذى عصف باسبانيا يومئذ ، قد أرغم قادة الحرب على أن يلتزموا السكينة حينا ، فلا تحدثنا بشىء من أخبار الحرب فى أوائل سنة ١٢١٤م ؛ وفى ذلك الحين سار ألفونسو ملك قشتالة إلى برغش ودعا ألفونسو ملك البرتغال إلى لقائه فى « بلازنسيا » على حدود المملكة ، وربما دعى ألفونسو ملك ليون إلى هذا الاجتماع أيضاً . ومن الواضح أن هذا الاجتماع المدبر كان يرمى أولا

إلى توثيق أواصر السلام بين القصور النصرانية المتجاورة المرتبطة بروابط القربى، وثانياً إلى تنظيم حملة مشتركة ضد أعداء النصرانية ؛ ولكن حدث أثناء هذه التدابير أن مرض ملك قشتالة وهو فى طريقه إلى بلازنسيا ، فى قرية على مقربة من اريفالو . وفى السادس من أكتوبر سنة ١٢١٤ توفى ألفونسو النبيل ، ومن حوله زوجه الملكة الينورا وابنته برنجاريا والمطران ردريك الطليطلى ؛ وتوفى فى الثامنة والخمسين من عمره ، بعد أن حمل لقب ملك قشتالة أكثر من خمسين عاما ، ودفن فى دير لاس ولجاس فى برغش ؛ ولبثت صورته التى ربما رسمها مصور معاصر ، محفوظة — مصراً — فى إحدى كنائس برغش ؛ وهو يبدو فى هذه الصورة متوسط القد بوجه وسيم يفيض حياة ، وجبهة مستديرة ، وشعر أسود ، وعينين زرقاوين ، وأنف أقنى . وتجمع الروايات كلها على مديحه ؛ وكان يتقد حماسة لنشر الدين المسيحى ، ومن ثم كانت غزواته المتوالية ضد المسلمين ، وقد ضحى فى هذا السبيل بما لم يضحه أى ملك أسبانى آخر فى هذا العصر ؛ وكان بذله للكنائس والأديار ، وعطفه على الفقراء ، وعدله الشامل ، وشهامته نحو الأعداء ، وشجاعته فى الحروب ، تكسبه احترام الأحبار والفرسان والشعب ، وكذلك احترام المسلمين . وقد عمل بالأخص على رفع شأن الطبقة الوسطى لتكون عضداً جديداً للعرش ضد مطامع أمراء المملكة الأقوياء ؛ وكان نصيراً للفنون والعلوم ، وقد خلد ذكراه بإنشاء أول جامعة نصرانية فى اسبانيا ؛ وأنشئت فى بالانسيا فى سنة ١٢٠٩م ، بناء على اقتراح المطران ردريك الطليطلى — وكان عالماً كبيراً قام بدراسات كثيرة فى باريس وإيطاليا — كراسى لدراسة العلوم الدينية والمدنية ، واستدعى لها الأساتذة من فرنسا وإيطاليا ، وأجريت عليهم الأرزاق السنوية ، وعنيت أيضاً برعاية الفنون على يد أقطاب الفن . ونقلت هذه الجامعة النصرانية الأولى فى اسبانيا فيما بعد إلى بلد الوليد ، وليس إلى شلمنقه كما زعم خطأ بعض الكتاب المحدثين . وكل ما يأخذه المؤرخون الأسبان على هذا الملك العظيم أنه كان يشغف بيهودية حسناء شغفاً مبرحاً ، وأنها لبثت سبعة أعوام تسيطر عليه ،

وفى وسعنا أن ندرك لماذا لزم الحبران المعاصران ، ردريك الطليلى ولوقا التطيلى ، الصمت إزاء هذا الغرام المشين فى هذا العصر .

ولم يعش من أبناء ألفونسو الأربعة من بعده سوى أصغرهم هنرى الأول ، وكان وقت وفاة أبيه فى العاشرة من عمره . وتولت أم الملك القاصر الملكة الينورا الحكم بالوصاية عليه لأيام قلائل فقط ، ثم لحقت بزوجها إلى القبر فى ٣١ أكتوبر سنة ١٢١٤ م .

وعندئذ تولت الوصاية على الملك أخته برنجاريا ، وهى مطلقة ألفونسو التاسع ملك ليون ؛ وكانت كبرى بنات ألفونسو النبيل ، وقد جعلها أبوها الملك فى وصيته وارثة العرش إذا توفى أخوها وعاشت من بعده ؛ أما أخواتها الأصغر منها فكن ، أوراكا زوجة ألفونسو الثانى ملك البرتغال ، وبلانكا زوجة لويس الثامن ملك فرنسا ، والينورا التى تزوجت فيما بعد من يعقوب (جايم) ملك أراجون . وأثار تولى برنجاريا للوصاية أيما قلق ؛ ذلك أن الكبراء القشتاليين الطامعين كانوا يكرهون أن يربى ملكهم المستقبل على يد امرأة ، ويكرهون من جهة أخرى أن تبقى الحكومة حتى بلوغ الملك لرشده — وقد حدد بسن الرابعة عشرة — فى يد غير أيديهم . وكان على رأس أشراف قشتالة ، أسرة لارا الشهيرة القوية ، التى بذلت كل ما فى وسعها لتجعل الملك الطفل فى حوزتها ، لكى تفوز بما فاز به أسلافها وقت حداثة ألفونسو النبيل من القبض على زمام الحكم . ولم تقو الأميرة الوصية برنجاريا لضعفها على مقاومة الأشراف الأقوياء ، الذين كان يظاهرهم رجال الدين وفريق من الشعب ؛ ورأت خشية من أن تزج بقشتالة فى غمار الحرب الأهلية من جديد ، أن تأخذ بالنصح السيء ، وأن تنزل مختارة عن الوصاية ، وذلك فى مجلس عقد فى برغش فى سنة ١٢١٥ م ، وأرغمت أن تعين مكانها فى الوصاية الكونت ألفارو نونيز دى لارا ، ليتولى الحكم وليسهر على تربية الملك الطفل . على أنه ألزم بأن يقسم بين يدى المطران ردريك الطليطلى ، بألا يزاول حقا من حقوق السيادة قبل إخطار الملكة (هكذا كانت تسمى برنجاريا يومئذ نفسها) وموافقتها ، وفى ذلك

ما يدل على أن برنجاريا لم تنزل فى الواقع عن الحكم ، ولكن تخلت فقط من إدارة المملكة وتربية الملك إلى الأشراف وإلى أسرة لارا زعيمة الأشراف . وكان مما احتفظت به برنجاريا من حقوق السيادة ، توزيع الاقطاعات واستردادها ، وإعلان الحرب ، وعقد المحالفات ، ورفع الضرائب والرسوم ؛ فكل هذه الحقوق لا يزاولها القارو نونيز ؛ وكان عليه أن يتولى كل ما يتعلق بشخص الملك وشؤون المملكة ، وأن يترك الجميع فى حقوقهم ووظائفهم ، وأن يعقد السلام مع الممالك النصرانية المجاورة .

وما كاد الكونت القارو دى لارا ، يتسلم الملك بناء على ذلك ، حتى عمد إلى الحكم دون أن يتقيد ذرة بنصوص القسم . بيد أنه يجب ألا ننسى ، أن المصدر الذى نستق منه ما يتعلق بظروف قشتالة يومئذ ، كان من المعارضين صراحة لأسرة لارا ، ولئن صدقنا كل ما يرويه ردريك الطليطلى — وهو يخفى مع ذلك أنه يضطرم بغضاً لآل لارا — فإن الكونت القارو نونيز أثار بطغيانه بغض جميع الطبقات ؛ فطارد الأشراف ، ونهب أموال التجار الأغنياء فى المدن ، واستولى على جزء من أعشار الكنائس بحجة أنه يحتاج إلى هذا المال لمحاربة المسلمين ؛ ولم يمنعه من المضى فى مطاردة رجال الدين سوى القرار الكنسى الذى أصدره ضده المطران .

ولا ريب أن برنجاريا تحمل بعض التبعة فى نشوب الحرب الأهلية . ذلك أنها اضطرمت سخطا لانتزاع الوصاية وتربية أخيها منها ، فسعت إلى تحريض أصدقائها للعمل على إسقاط الوصاية الجديدة ، وإعادة الملك الطفل إلى حوزتها ؛ واجتمع فريق من الأشراف الذين ينقمون تفوق أسرة لارا فى بلد الوليد وقرروا إعادة الوصاية إلى الدونا برنجاريا . ومن ذلك الحين شهر الكونت دى لارا عليها الحرب علانية ، فنزع أملاكها وأمرها بمغادرة المملكة ؛ فلجأت برنجاريا إلى حصن « أوتليو » وشجعت أنصارها على المضى فى المقاومة وبذلك سارت الحرب الأهلية سيرها . وحالت يقظة الكونت القارو دون فرار الملك الطفل إلى أخته ؛

ورأى تمكيناً لسلطانه عليه ، أن يزوجه بالرغم من أنه لم يجاوز الثانية عشرة ، وسافر الكونت بنفسه إلى البرتغال وحمل ملكها ألفونسو الثانى على الموافقة على تزويج ابنته بالملك هنرى ، واصطحب معه الأميرة ، واسمها مافلدا إلى قشتالة وعقد زواجها على الملك . على أن الكونت لم يوفق إلى تحقيق غايته ، ذلك أن الملك الطفل لم يبد ميلاً إلى زوجه . وأعلن البابا أنوسان الثالث ، بناء على طلب برنجاريا ، بطلان الزواج بسبب القرابة الوثيقة ، وذلك على يد أسقف برغش وبالانسيا ، وهكذا عادت مافلدا إلى البرتغال ، وذلك بعد أن حاول الكونت دى لارا عبثا أن يقترن بها .

وحدث أثناء أن كان الوصى يقيم مع مليكه فى بلدة مقوده من أعمال ولاية طليطلة ، أن أرسلت برنجاريا سرا إلى ذلك المكان خادما ليتحرى عن أحوال أخيها وطريقة تربيته ، وربما أيضاً لكى يبحث عن خير الطرق لاختطافه . ولكن الوصى الساهر لم يخف عليه أمر هذا الرسول ، فأمر بالقبض عليه وإعدامه وزعم الكونت أنه عثر معه على خطاب بخاتم برنجاريا وتوقيعها ، وفيه مايدل على أنها كانت تعتزم أن تقتل أخاها بالسم ؛ ولكن قليلاً من الناس آمن بزعم الوصى وكاد الرأى يجمع على تبرئة برنجاريا من مثل هذا التدبير المشين ، ويستشف منه خبث الكونت دى لارا . ولما كان رجال الدين ، وفريق من الأشراف ، وعدة مدن ، يناصرون برنجاريا — وهو ما اضطر الكونت إلى مغادرة ولاية طليطلة والذهاب إلى وبذة للإقامة فيها — فقد رأى الكونت إزاء تفاقم غضب الشعب وازدياد قوة الملكة ، أنه لا بد من معالجة الموقف بسرعة ، والضرب على يد أعدائه قبل أن يظفروا بالتغلب عليه ؛ فأعلن باسم الملك الذى يصطحبه أينما كان ، ويحرسه بكل ما وسع ، أن الذين يناصرون حزب برنجاريا يعتبرون جميعاً عصاة خائنين ، وكان الإحجام عن محاربة الملك عظيما إلى حد أن المدن وجموع الشعب انضوت كلها تحت لواء الوصى ، ولم تستطع حصون الأشراف الذين يعضدون برنجاريا ، أن تقاوم القوى المتغلبة عليها مقاومة ناجعة ، كذلك بدت الملكة وقد فقدت كل

شجاعتها وعزمها ؛ ومع أنها لم تنزل ميدان الحرب ضد الكونت ، فقد كانت جموعها تتناقص كل يوم ، وكانت الحصون الموالية لها تسقط تباعاً فى يد الكونت .

وفى الوقت الذى يئست فيه الملكة برنجاريا من كسب قضيتها وامتنعت مع نفر قلائل من الأشراف المخلصين ببعض الحصون المنيعة ، وأخذ الوصى يمعن فى مطاردة جميع الذين خاصموه ، حدث حادث فجائى حول مجرى الحرب الأهلية إلى اتجاه جديد . ذلك أن الكونت ألفارو نونيز غادر بلد الوليد بعد أن أقام فيها مع الملك حينا ، إلى پالانسيا ؛ وهنالك نزل فى قصر الأسقف ،وقرر أن تكون نفقات البطانة الملكية من أموال الأسقفية ، وفى ذات يوم كان الملك الفتى يلعب فى الفناء مع بعض أقرانه من أبناء الأكابر ، فانطلق أثناء اللعب سهم أصاب أحد أبراج القصر ، فسقطت منه قطعة من الآجر ، فأصابت الملك فى رأسه وجرحته جرحاً بالغاً توفى منه لأيام قلائل ، وذلك فى السادس من يونيه سنة ١٢١٧ م . ولم يكن قد بلغ الرابعة عشرة بعد ، ولم يكن قد مضى على وفاة أبيه سوى عامين وثمانية أشهر ، ثم تبعه إلى القبر .

ولابد أن هذا الحادث المحزن قد اعتبر فى قشتالة توفيقاً عظيما ، ذلك أن الدعامة التى كان يستند إليها سلطان الوصى المستبد الطامع ، وهو الملك الذى يحقق باسمه كل عسف، قد انهارت ، وكان الملك الفونسو النبيل قد سن فى وصية سابقة له أنه إذا توفى دون عقب من الذكور، فإن عرش قشتالة يؤول من بعده إلى كبرى بناته الدونا برنجاريا ، ثم إلى أعقابها الشرعيين ، ولما كان الأحبار والأشراف قد وافقوا على وصية ألفونسو هذه ، ولم يبق كذلك عذر لأنصار أسرة لارا فى رفض الطاعة للملكة ، فقد بويعت بالطاعة فى الحال على يد المجلس النيابى (الكورتيس) المنعقد فى بلد الوليد ، وذلك بالرغم من تخلف الوصى عن الخضوع ؛ وكانت المرأة الذكية ، حالما وقفت على موت أخيها الملك ، وكان الكونت الفارو يجتهد فى إخفاء النبأ — قد أرسلت بعض خاصتها إلى ليون ، حيث أحضروا معهم ولدها فرديناند الذى رزقت به من زواجها بملك ليون ألفونسو التاسع ، وهو الزواج الذى ألغاه البابا .

ولم يرد الكونت دى لارا أن يعقد أى تفاهم ما لم يسلم إليه الانفانت (ولى العهد) فرديناند الذى يرث العرش بعد وفاة أمه ، ليقوم بتربيته وحراسته ، ولكن برنجاريا لم تقبل قط مثل هذا الحل بعد الذى شهدته من عبر التجربة الماضية . وهنا قامت فى البلاد أحزاب ثلاثة ، كان أقواها الحزب الذى ينضوى تحت لواء برنجاريا الملكى ، وكان الأحبار والشعب يخلصون لها ، وكذلك الفرسان من خصوم آل لارا . وكان على رأس الحزب الثانى الكونت القارو نونيز دى لارا ، وتحت يده جيش لا بأس به ، وفى حوزته كثير من الحصون ؛ وإلى جانب هذين الحزبين المتخاصمين ، كان ثمت خصم ثالث هو الفونسو ملك ليون ، زوج برنجاريا السابق ، ووالد ولى العهد فرديناند ، وكان يدعى عرش قشتالة باعتباره أكبر أعضاء الأسرة سنا ، وقد أرسل أخاه سانشو فى جيش كبير إلى قشتالة للاستيلاء عليها . وعندئذ بادرت برنجاريا بمؤازرة القوات والفرسان فى قشتالة الجديدة واسترامادوره ، إلى اتخاذ إجراء حاسم لسحق الحزبين الخصيمين . ولما كانت تعلم حق العلم أن الشعب القشتالى لا يرضى عن حكم النساء ، فقد اعتزمت أن تضحى بنفسها فى سبيل ولدها ، فأعلنت تنازلها عن حقوقها فى العرش لولدها فرديناند — وكان يومئذ قد بلغ الثامنة عشرة من عمره — وذلك فى الميدان الكبير فى بلد الوليد ، وسلمته مقاليد الحكم فى محضر حافل من الناس ، وفى ٣١ أغسطس سنة ١٢١٧ ، تلقى فرديناند الثالث الذى لقب بالقدس فيما بعد ، يمين الطاعة فى كنيسة بلد الوليد الكبرى . وحملت هذه الخطوة الحاسمة ملك ليون والكونت دى لارا على الاتحاد ، وذلك بعد أن حاول الكونت عبثاً أن يحرض فليب الثانى ملك فرنسا ووالد خلفه لويس الثامن زوج الأميرة بلانكا أخت برنجاريا الصغرى ، على غزو قشتالة والاستيلاء عليها . وبينما سار الفونسو التاسع ملك ليون فى قواته إلى برغش متناسياً صالح أسرته إلى حد أنه تحالف مع الثائرين وشهر الحرب على ابنه الذى جعله وارث العرش من بعده ، كان الكونت القارو يحاول بمؤازرة إخوته وأنصاره أن يضرم نار الحرب الأهلية فى جنوبى قشتالة .

وحاولت برنجاريا فى البداية بالرجاء والإقناع أن تحول دون تحالف قوات ليون وقوات الثوار ، وتوسط أسقفا برغش وبلنسية لدى زوجها السابق فى هذا السبيل ، ولكن الملك الطامع المتحفز لم يرد أن يصغى إلى شىء من هذا الرجاء — وقد كان يضطرم سخطا ، لأنهم رفعوا ابنه إلى العرش دون إذنه ، مع أنه هو صاحب هذا العرش فى زعمه ، فمضى فى توغله فى قشتالة ، وأسرع إلى برغش عاصمتها القديمة يحاول افتتاحها ، ولكن ما اتخذته برنجاريا من الإجراءات الحكيمة وما أبداه فرديناند من الحزم والشجاعة ، وما أبداه سواد الشعب القشتالى من الغيرة فى مؤازرته ، مالبثت أن حملت ملك ليون على أن يعود أدراجه إلى أراضيه ، ذلك أنه شهد حين محاصرته لبرغش ، كيف يتفانى القشتاليون فى الدفاع عنها ، وآنس فى جيشه القصور والعجز ، فبادر بالعودة إلى ليون قبل أن تحل به الهزيمة وهو ساخط أشد السخط لأن الكونت دى لارا خدعه بتصوير ميول الشعب القشتالى على غير حقيقتها .

ولما زال الخطر الداهم من ناحية ليون بسلام ، وحطم أنصار الكونت دى لارا بالعنف والبطش ، عمد فرديناند إلى الاحتفال بدفن رفات سلفه الملك هنرى ، وكان جثمانه لا يزال فى حوزة أعدائه ، فدفن فى المقبرة الملوكية فى برغش بأعظم تكريم .

وبدأ فرديناند حكمه فى ظروف صعبة ، بالرغم من المزايا التى حققت . ذلك أن كثيراً من الحصون فى ولاية ريوجا وفى قشتالة القديمة ، وكذلك على ضفة نهر دويره اليمنى كانت لا تزال فى أيدى آل لارا ؛ بل إن برغش نفسها لم تكن فى مأمن ؛ وعاث الثوار أعا عيث فى أنحاء مختلفة من قشتالة دون أن يتمكن فرديناند من قمع غزواتهم ؛ وكانت أسرة لارا تحتكم على أموال طائلة ، وفى وسعها أن تحشد من الجند ماشاءت ؛ أما ملك قشتالة ، فكان بالعكس فى أشد الحاجة إلى المال ، حتى أن والدته اضطرت أن تبيع جميع حلاها للمعاونة فى نفقات الحرب ، وهكذا كان فرديناند عاجزاً عن متابعة الحروب ؛ وهنا حدث حادث فى غاية

التوفيق ، وهو أن الكونت دى لارا وقع أسيراً فى يد فرسان الملك ، فى الوقت الذى كان يتأهب الفريقان فيه لخوض المعركة على مقربة من بالانسيا Palencia ؛ فألفى الثوار أنفسهم بلا زعيم ، واضطر الكونت لكى يفتدى حريته ، أن يقطع عهداً بالخضوع ، وأن يسلم الحصون التى يحتلها أنصاره . ولم يمض قليل حتى اضطر أخوا الكونت ، وهما فرديناند وجوانزالو ، إلى الخضوع أيضاً وتسليم ما بيدهما من الحصون . والظاهر أن وعيد البابا هونوريوس بأن يقضى بالحرمان على كل ثائر ضد حكومة فرديناند كان له أثر عميق فى إخماد الحرب الأهلية فى قشتالة (سنة ١٢١٨ م) . ومن ذلك الحين ساد سلطان فرديناند فى أرجاء قشتالة كلها .

ولكن آل لارا الثائرين لم يخلدوا إلى السكينة طويلا . فلم يمض نصف عام حتى ثاروا من جديد وزحفوا على منطقة بالانسيا بقوات كبيرة وخربوها كما يفعل الأعداء . ولما سار فرديناند فى جيش كبير لمحاربة الثائرين مرة أخرى ، ورأى آل لارا أن قواتهم دون قوات الملك ، ساروا إلى ليون ليطلبوا المدد منها وأفلحوا فى تحريض الأب على محاربة ابنه مرة أخرى ؛ وما كاد الجيش الليونى يعبر حدود قشتالة حتى أرسل فرديناند قوة إلى ليون لتعيث فى منطقة شلمنقة ؛ ولما التقى الأب والابن وجها لوجه ، حاول بعض الأساقفة والكبراء التوسط بينهما لعقد الصلح قبل الالتحام فى المعركة ، وعاون مرض الكونت دى لارا الفجائى على ميل ملك ليون إلى إيثار الصلح ، وعقدت الهدنة فى الحال بين الفريقين . وما لبث الكونت المريض أن توفى وهو يضطرم سخطا لأنه لم يكن فى سعيه لتحطيم عرش فرديناند أكثر توفيقاً . وارتدى الكونت قبيل وفاته ثياب جماعة شنت ياقب ، ودفن فى اقليش على نفقة الملكة برنجاريا التى كان فى حياته أشد الناس خصومة لها ، ذلك أن الكونت أنفق كل ماله فى الحرب وتوفى فقيراً . وهكذا عقد السلام الدائم بين قشتالة وليون ؛ واقتنع ملك ليون أخيراً بأنه ليس من اللائق أن يعضد الثائرين على ولده ، وعاونه على محاربة آخر زعيم لأسرة لارا وهو الكونت فرديناند شقيق القارو ، حتى اضطر إلى الفرار من المملكة (سنة ١٢١٩ م) ، ثم عبر البحر إلى

مراكش ملتجئاً إلى المسلمين ، ولم يلبث أن توفى هنالك مرتديا قبيل وفاته ثياب فرسان الاسبتارية .

ولما استتب السلام فى المملكة ، احتفل فرديناند فى برغش بزواجه بالأميرة بياتريس ابنة القيصر فيليب فون هو هنشتاوفن . وقبل عقد الزواج أعلن الملك نفسه فارساً وارتدى ثياب الفرسان بعد أن باركها له أسقف برغش ، وشهد هذا الحفل كبراء المملكة مع نسائهم ، ونواب الطبقات ، وعدد كبير من الفرسان .

وحدثت فى الأعوام التالية فى قشتالة وليون ثورات عديدة قام بها بعض الأشراف المغامرين ، ولكن الوئام لبث بالرغم من ذلك سائداً بين ملكى قشتالة وليون ؛ وكان يقوم بهذه الثورات فى قشتالة دائما أنصار آل لارا ، وكان زعماء الثورة إذا ما رأوا فشل جهودهم فروا عادة إلى المسلمين . وحدث فى مملكة ليون خلاف بين الملك وأخيه سانشو فرنانديز ؛ ذلك أن سانشو جمع أربعين ألف مقاتل بحجة أنه سيقودهم إلى مراكش لخدمة سلطان الموحدين ، ولكنه لما عبر حدود ليون إلى الأندلس ، كشف عن حقيقة مشروعه ، وهو أنه يريد أن يؤسس له مملكة مستقلة فى اسبانيا ، فانفض عنه معظم الجند ، ولكنه امتنع بمن بقى على ولائه فى جبال الشارات (سييرا مورينا) حتى توفى فى سنة ١٢٢٠ م فى حفلة صيد كان يطارد فيها دبًّا .

وفى الأعوام التالية ، كان الأب والابن يسيران فى قوات قشتالة وليون كل عام تقريباً لمحاربة المسلمين . كذلك كان ملكا أراجون والبرتغال يسيران لمحاربة المسلمين كلما سمحت بذلك أحوال بلادهما المضطربة ، وكانت قشتالة وليون تعملان بالأخص على استغلال ما تجوزه الأندلس من الاضطراب والفوضى بسبب انحلال سلطان الموحدين . فكانا يبيعان عونهما للأمراء المسلمين الثائرين تباعاً ، وكانا فى نفس الوقت يحاربان ابن هود[1] الذى خرج على الموحدين وانتزع منهم معظم بلاد

(١) هو محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن أحمد بن سليمان المستعين بن هود ، وهو الثائر على دولة الموحدين فى أوائل المائة السابعة كما سيجىء .

الأندلس ، ويبثان بذلك فى بلاد المسلمين أعظم ضروب الاضطراب والروع ؛ وسوف نتحدث فيما بعد عن الحروب التى خاضها الليونيون والقشتاليون إلى جانب الموحدين كلفاء لهم ، ولهذا نغفل ذكرها هنا ؛ ونكتفى بأن نقول هنا إن ألفونسو التاسع ملك ليون حقق لنفسه فى تلك الحروب شهرة عظيمة ، وإن فرسان القنطرة عاونوه خير معاونة ؛ وكان قسم من فرسان قلعة رباح قد اتخذوا من القنطرة مركزاً لهم ، وجعلوا من أنفسهم جماعة خاصة وأطلقوا عليها اسم هـذه القلعة وذلك فى سنة ١٢١٩ م ؛ وكانت معظم حروب ألفونسو التاسع ضد ابن هود ، المتغلب على معظم أرجاء الأندلس . ولما افتتح ألفونسو ماردة من المسلمين فى سنة ١٢٣٠ م (٦٢٧ هـ) ، سار المسلمون إلى محاربته فى جيش ضخم قوامه ستون ألفاً من المشاة ، وعشرون ألفاً من الفرسان ؛ فلم يرعه تفوق الأعداء فى العدد ، واشتبك معهم فى معركة أحرز فيها نصراً باهراً ، وكان هذا النصر مثار الدهشة حتى أن بعض الروايات الدينية المعاصرة نسبته إلى عون شنت ياقب (القديس يعقوب) وفرقة من الملائكة ؛ وترتب على هذا النصر أن سقطت بطليوس فى يد الليونيين .

وكان هذا النصر آخر عمل حربى قام به ألفونسو التاسع ملك ليون . وحدث أثناء رحلة قام بها ليحج إلى قبر شنت ياقب وليقدم إليه صلاة الشكر عما أحرز من نصر ، أن مرض وتوفى فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٢٣٠ م بعد حكم دام اثنين وأربعين عاماً ؛ ودفن فى بلدة شنت ياقب حيث يرقد أبوه أيضاً ؛ ومع أنه اشتهر بالعدالة والتقوى ولا سيما على يد معاصره الأسقف لوقا التطيلى ، فإن التاريخ يقص علينا الكثير من أعماله مما يتنافى مع هذا المديح ؛ وكان ألفونسو يبز فى الفروسة جميع الأمراء التابعين له ؛ وكان كثير البذل لرجال الدين ، يهب كل ما يغنمه من الحروب تقريباً إلى الأديار ؛ كثير البر بالمساكين والعطف عليهم ؛ بيد أنه كان كثير القسوة والبطش نحو الفرسان الناهبين ، يلقى بهم من فوق الأبراج أو يغرقهم فى البحر ، أو يشنقهم أو يحرقهم فى ماء يغلى ، أو يسلخهم أحياء . وقد استطاع بهـذه الوسائل الفظيعة أن يحقق السلام والعدالة فى مملكته حسبما يقول مؤرخ معاصر . وكان لسوء الحظ

كثير الإصغاء لوشاية الناصحين المغرضين ؛ بيد أنه كان من صالح المملكة أن كان يصغى إلى رجاء زوجه برنجاريا واقتراحاتها مما أدى إلى تهذيب بعض القوانين القديمة وإصلاح بعض العيوب . وكان شغوفاً بالأبنية الفخمة ، وقد شيد منها الكثير فى مملكته ؛ فأنشأ فى ليون قصراً عظيما ، وملجأ لإقامة الساكين من الوافدين لزيارة شنت ياقب ؛ وبنى أبراج ليون التى أزالها المنصور أو هدم بعض أجزائها ؛ وأنشأ بجوار شنت ياقب كنيسة فخمة ، كما أنشأ كثيرا من الأبراج والحصون فى مختلف أنحاء المملكة ، وشحنها بالسكان والمقاتلين .

كذلك أصلح ألفونسو الطرق وعبدها ، وابتنى القناطر على الأنهر وأبدى حبه وتقديره للعلوم بتأسيس جامعة شلمنقة الشهيرة فى سنة ١٢٢٣ م . وقد ظن البعض خطأ أن الجامعة النصرانية التى أنشئت من قبل فى بالانسيا ، قد نقلت فيما بعد إلى شلمنقة ؛ على أن ذلك لم يكن من الميسور يومئذ ، إذ كانت ليون وقشتالة كل منهما منفصلة عن الأخرى ؛ ومن الواضح أن الملك ألفونسو التاسع ، قد احتذى فى عمله مثل جامعة بالانسيا القشتالية ، وأبدى بذلك أنه لا يقل فى مملكته تقديراً لأهمية العلوم عن مملكة قشتالة .

وقد تزوج ألفونسو التاسع مرتين ؛ ورزق من زواجه الأول بالأميرة البرتغالية الدوناتريزا ، بابنتين هما سانشا ودولشا ، وابن يدعى فرديناند توفى رشيداً فى سنة ١٢١٤ م . ورزق من زواجه الثانى بالأميرة القشتالية برنجاريا ، بأربعة ، ابنين هما فرديناند وألفونسو ، وابنتين هما برنجاريا وقسطنطينة ؛ ومع أن الزواجين قد ألغيا على يد البابا بسبب القرابة الوثيقة ، فإن الأولاد الذين أعقبوا منهما قد اعترف بصحة نسبهم ؛ وبذا كان فرديناند الذى ولى عرش قشتالة ، عند وفاة أبيه أيضاً صاحب الحق بمولده فى عرش ليون ، وبالرغم من أنه كان أصغر بعض أخواته ، فإنه لم يكن لهؤلاء سوى حقوق على التاج ، متى توفى والدهن دون عقب من الذكور ؛ ومع أن الفونسو التاسع كان قد عهد بالعرش من بعده إلى ولده فرديناند فقد ظهر عند فتح وصيته أن يجعل ابنتيه سانشا ودولشا وارثتين لمملكته .

وكان فرديناند ، حينما تلقى نبأ وفاة أبيه ومضمون وصيته ، يخوض الحرب ضد المسلمين ، ويشغل بحصار مدينة جيان . وانقسمت مملكة ليون إلى فريقين ، أحدهما وعلى رأسه الأساقفة يؤيد ولاية فرديناند ، وهو الذى أقسموا له يمين الطاعة من قبل باعتباره ملكهم المستقبل ؛ والآخر يؤيد نصوص الوصية الملكية ويعتبر الأميرتين هما صاحبتا العرش ؛ وكان الفريق الثانى قويا بالأخص فى سموره وجليقية واشتوريش ؛ وكانت مدينة ليون نفسها تنقسم على هذا النحو ، حتى عمد حاكمها الكونت ديجو دياز ، بعد أن رغب بالمال والوعود ، إلى تأييد حزب فرديناند . وبادر فرديناند إلى ليون دون تأخر ، وفقاً لنصح أمه الحكيمة بلا ريب ؛ وهنالك بعد أن أقسم باحترام حقوق المملكة وحرياتها ، تلقى فى الكنيسة الكبرى يمين الطاعة من رجال الدين والأشراف ونواب الطبقات ، وذلك بالرغم من أن معظم البلاد كانت فى قبضة خصومه ؛ وأسرعت والدة الأميرتين وليتى العهد ، الملكة تريزا من البرتغال إلى ابنتيها فى جليقية لكى تشهر الحرب على فرديناند بأقصى ما يستطاع ، واعتزم فرسان قبرشنت يافب ، وأشراف جليقية وأشتوريش أن يؤيدوا دعوى الأميرتين ؛ ولاح أن حربا أهلية جديدة ستجتاح الممالك الأسبانية ؛ ولكن الملكة برنجاريا وفقت بحكمتها واعتدالها إلى التدخل لوقف الحرب ؛ فدعت الملكة تريزا إلى مقابلتها فى « بلنسية »[1] الواقعة على نهر منهو ؛ وهنا استطاعت أرملتا الملك ألفونسو التاسع أن تسويا فيما بينهما النزاع القائم بين أولادهما ؛ واتفق على أن تتنازل الأميرتان وليتا العهد عن حقوقهما فى التاج ، وأن تعترفا بفرديناند ملكا شرعيا على ليون ؛ وفى نظير ذلك تحصلان مدى الحياة على إيراد سنوى قدره ثلاثون ألف قطعة من الذهب .

وعلى أثر هذا الاتفاق أعلن فرديناند ملكا على جميع أنحاء مملكة ليون . ومن ذلك الحين تتحد مملكتا قشتالة وليون — ومعها إسترامادوره وجليقية واشتوريش — نهائيا . ومع أنه لم يصدر يومئذ مرسوم باتحادهما ، فإنه يجب أن

(١) هى غير ثغر بلنسية المعروف .

نعتبر من ذلك الوقت (سنة ١٢٣٠ م) ، أنه قد اتخـذت بالفعل قرارات هامة فيما يتعلق بوراثة العرش خلاصتها أن قشتالة وليون هما مملكة واحدة لا مملكتان ، وأن العرش فيها يؤول إلى أكبر البنين ، فإذا لم يوجد عقب من الذكور ، آل إلى الفرع النسوى . وقد أسند عندئذ إلى ألفونسو أخى فرديناند الأصغر نصيب فى حكومة ليون . واتحاد قشتالة وليون هـذا هو أعظم حادث فى تاريخ اسبانيا ، فى القرن الثالث عشر ؛ وكان نذيراً بإتمام انحلال سيادة المسلمين فى اسبانيا ، والحجر الأساسى للفتوحات العظيمة التى قام بها فرديناند فى الأندلس .

الفصل الخامس

اضمحلال وسقوط سلطان الموحدين
فى الأندلس

لم تكن موقعة العقاب سبباً فى تحطيم قوى الخليفة محمد النـاصر بالأندلس فقط ، ولـكنها أفضت فوق ذلك إلى تحطيم سلطان الموحدين فى المغرب . وإذا كان النصارى لم يوفقوا إلى استغلال ظفرهم فى موقعة العقاب بما كان على الذكاء وضعف العدو ، فإن الخلافة الموحدية التى جردت منه كل قواها لم تنهض من هزيمتها قط ، ولم ينقطع ألفونسو النبيل ملك قشتالة طول حياته عن الخروج إلى محاربة المسلمين ، ولـكنه كان مفرق القوى بسبب خصومته الجديدة لليون . وكان أشـد من ذلك اضطراب الممالك الأسبانية ، وهو ما أدى إلى تأخير غزو المسلمين بضعة أعوام ؛ ويرجع ذلك إلى ما حدث فى نحو عامين من وقوع ثلاثة عروش نصرانية تحت سلطان الوصاية ؛ وكان يشغل عرش قشتالة وأراجون ، — وهما أهم ممالك شبه الجزيرة — أميران قاصران ؛ أما البرتغال فـكان يشغل عرشها ملك يغلب لديه الدهاء والطمع أكثر مما تغلب الشجاعة وصفات الفروسة . وبينما كانت الممالك النصرانية — وهى تتمتع عندئذ بقسط عظيم من القوة والمنعة — تنحدر على هذا النحو إلى الاضطراب والفوضى ، فى ظل الوصايات المخربة ، وما يترتب عليها من حروب أهلية تضطرم خلالها أطماع الأشراف ، والبغضاء والتنازع والحقد ، وقرارات « الحرمان » ، والقتل والتخريب ، إذا بسلطان الموحدين

ينهار فى الأندلس أولا ، ثم ينهار بعد ذلك فى المغرب ، وتقوم على أنقاضه أسر جديدة ، ولكنها لا تضارع الموحدين فى قوتها ومنعتها .

غادر محمد ميدان الحرب الذى غص بالقتلى من جنده مسرعا إلى إشبيلية ؛ وهنالك سحق فى بادرة من غضبه جميع أشياخ الموحدين المحليين ، وكذلك لم يسلم من سخطه زعماء الأندلس الذين كانوا فى مقدمة الفارين من الموقعة ، والذين ينسب إليهم هزيمته ؛ فقتل منهم عدة ، وعزل منهم من كان يلى مناصب النفوذ والثقة . بيد أنه لم يذكر أن البغض يثير البغض ، فبعد أن صب جام غضبه على الأندلسيين كالنمر المفترس ، عاد إلى إفريقية لا لكى يحشد جيشاً جديداً يسترد به هيبة الموحدين الحربية ، ولكن لكى يحاول نسيان كدره وهزيمته بالانغماس فى ملاذه وشهواته . ولم يقم يومئذ بشىء من شؤون الحكم سوى أن عين لولاية عهده ولده أبا يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله[١] ، وكان يومئذ طفلا فى العاشرة من عمره ؛ ولما انتهى من هذا التعيين ، ترك شؤون الحكم كلها للطفل ووزرائه واعتكف فى قصره وحدائقه بمراكش ، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه . وقضى هذا الأمير الذى كان يشغف بالحرب والجهاد ، أمداً قصيراً ، لا يجاوز العام ، فى هذا اللهو الصاخب ؛ ثم دس له خدمه السم ، فانتزعه من مسراته ، وأودى بحياته ولما يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره ، وذلك فى الحادى عشر من شعبان سنة ٦١٠ ﻫ (٢٥ ديسمبر سنة ١٢١٣ م)[٢]. وقد حكم خمسة عشر عاما وبضعة أشهر. أما الرواية التى يقول بها مؤرخ عربى ، ومفادها أن محمداً كان يشتغل بحشد جيش آخر لكى يمحو هزيمته ، وأنه توفى أثناء أهباته بمدينة سلا ، فهى خلط ظاهر

(١) فى روض القرطاس أنه لقب بالمنتصر بالله (ص ١٦٠) ، ولكن فى ابن خلدون (ج ٦ ص ٢٥٠) وفى الحلل الموشية (ص ١٢٢) أنه المستنصر بالله .

(٢) إن ما يورده المؤلف عن أيام الناصر الأخيرة ووفاته يتفق مع رواية صاحب روض القرطاس (ص ١٦٠) بيد أنه يقول لنا إن الناصر توفى مسموما بأمر وزرائه ، حيث دست له إحدى الجوارى السم فى قدح من الخمر ، لأنه كان قد عزم على قتلهم ، فعاجلوه بالقتل . وجاء فى الحلل الموشية أنه توفى هما وغما (ص ١٢٢) .

بما حدث فى وفاة عبد المؤمن . ومع أن الناصر كان بطبيعته يتمتع بخلال بديعة فإنه منذ ولى الحكم ، ترك إدارة الشؤون لطائفة من الوزراء المكروهين ومنهم من هو عاطل من كل كفاية ، فكان ذلك من الأسباب القوية التى أدت إلى تصدع سلطان الموحدين من أسسه ؛ ومما يستحق الذكر أيضاً أن محمداً هو سلطان المغرب الذى بعث إليه جون (يوحنا) ملك إنجلترا فى سنة ١٢١٣ م ، بسفارة ، يقدم إليه فيها ملكه وحياته ، ويتعهد بدفع الجزية ، ونبذ النصرانية واعتناق الإسلام ، إذا أمده بالجند ؛ ولكن سلطان الموحدين لم ير فى ذلك العرض غنما يذكر ، فرفض مقترحات الملك جون بكبرياء وازدراء .

وإذا كانت دولة الموحدين قد بدأت من قبل دور انحلالها ، فإنها أخذت فى ظل الحكومات اللاحقة تنحدر سراعا ، حتى أنه لم يكن من الميسور بعدُ على وصى أن يعمل لإنهاضها ؛ وليس أخطر على دولة ممزقة من حكم صبى قاصر ؛ بل إن الدول القوية المنظمة ، كثيراً ما تنهار من جراء ذلك فى أعوام قليلة ؛ فما بالك بدولة قد أخذت منذ حين تتمزق إلى عناصر خصيمة .

وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف المستنصر بالله ، الملقب أيضاً بالمنصور بالله ، — حينما تولى الملك بعد وفاة أبيه — دون الحادية عشرة من عمره ؛ وكان أضعف من أن يتولى مقاليد الحكم بنفسه ، فتركها لأعمام طامحين ، ووزراء ذوى أثرة وخلال سيئة ، لا يبحثون إلا عن مصالحهم وسلطانهم ، ويسومون الشعب فى القاطعات التى يحكمونها الخسف فى سبيل مطامعهم المضطرمة ؛ وكان يحكم الأندلس أربعة من أعمام المستنصر لاحد لسلطانهم ، هم السيد أبو محمد عبد الله بن المنصور ويحكم بلنسية ودانية ، وشاطبة ومرسية ؛ والسيد محمد ويحكم قرطبة ؛ والسيد أبو على ويحكم إشبيلية ، والسيد أبو عبد الله ويحكم جنوبى الأندلس . وأقطع السيد أبو على حكم القاطعات والمناصب بالمال وفقا لأهوائه ونصح معاونيه ؛ وبذلك أبعد الرجال الأكفاء ، ولاسيما الأندلسيين ، فقد ساءهم ذلك ، واضطهدوا صراحة ؛ واختنق العدل بتاتاً ، لأن القضاة الذين اضطروا إلى شراء مناصبهم ، حاولوا

— باضطهاد الشعب وظلمه — أن يستردوا ما خسروا أو يضاعفوه.

فأثار هذا الاستبداد بين مسلمي الأندلس — وقد كانو يرون فى الموحدين ظالميهم — أيما سخط على المغاربة، حتى كانت تكفى شرارات قلائل لتضرم من جديد نار الحرب الأهليـة فى جنوبى اسبانيا؛ وقد أدى إليها بالفعل سير الحرب المشئوم ضد النصارى؛ وبالرغم من أن الدول النصرانية كانت يومئذ عاجزة — من جراء الحرب الأهليـة والقحط والتفرق — أن تقوم باستمدادات كبيرة لمحاربة المسلمين، فإنها مع ذلك لم تمتنع بتاتاً عن محاربة عدوها التاريخى؛ وكانت الغزوات المتفرقة التى قام بها ألفونسو ملك ليون، وفرسان قلعة رباح وسنت چوليان (فرسان القنطرة)، والبرتغال، والمطران ردريك الطليطلى مع فرسان قشتالة، تستغرق نشاط الحاميات الموحدية وجند الحدود كله، حتى إنه لم يكن بوسعها أن تعنى بحركات الثوار فى الداخل عناية كافية؛ وفقد الموحدون هيبتهم تباعاً، ولم يعد يبث اسمهم ما كان يبث من قبل من الخوف والروع؛ وسقطت عدة من القلاع والحصون فى يد النصارى؛ ففى يوليه سنة ١٢١٣ م، افتتح ألفونسو النبيل ملك قشتالة حصن القصر، ونفذت القوات القشتالية الخفيفة حتى ظاهر إشبيلية؛ وفى العام التالى، استولى ألفونسو التاسع ملك ليون عنوة على حصن القنطرة، وهو الحصن الذى اتخذه فيما بعد (سنة ١٢١٩) فريق من فرسان قلعة رباح مركزاً لهم، وتسموا باسمه؛ وثبتت عندئذ مدينتا القصور (كسيرس) وبياسة بعد أن حاصرها الليونيون والقشتاليون دون طائل؛ وحالت الحرب الأهلية التى اضطرمت فى قشتالة وليون بين سنتى ١٢١٥ و ١٢١٨ م، وهى التى أثارت ضرامها أسرة لارا القوية، دون قيام النصارى بغزوة كبيرة ضد المسلمين، ولكن جماعات الفرسان ورجال الدين لم ينقطعوا عن القيام بغزوات فى أرض الأندلس، وقلما كانت تلحقهم الهزيمة؛ وزاد فى جرأتهم ما كانوا يصيبونه من الغنائم الكبيرة، فكان الغزاة يتقدمون حتى أبواب إشبيلية وقرمونه، وهم يخربون وينتسفون كل أرض وطئتها أقدامهم، ولم تكن قسوتهم الوحشية قاصرة

على المحاربين من خصومهم ، بل كانت تشمل النساء والأطفال والشيوخ ؛ فكان الخوف والروع يتقدمان الغزاة النصارى ، أينما حلوا ، وكان الموحدون يقاتلون قتال اليائس وقد فقدوا فى النهاية كل شجاعة وكل ثقة فى قوتهم ومنعتهم .

وعجل باضمحلال سيادة الموحدين فى اسبانيا عود السلام بين قشتالة وليون ، واضطرام الخصومة حول العرش فى أسرة الموحدين الملوكية . وقد عقد ألفونسو الأول ملك ليون الصلح مع ولده فردينـاند ملك قشتالة ، وحشد الاثنان قواتهما المتحدة لمحاربة العدو المشترك ، ولبثا كل عام تقريبا يقودان فرسانهما الظامئين إلى القتال إلى غزو الأراضى الإسلامية واقتناص الغنائم ؛ وفى تلك الأثناء كان سلطان الموحـدين المستنصر ، خلافاً لأسلافه المحاربين ، يعتكف فى قصره بمراكش ، منغمسا فى اللهو والترف ، لا يحيط به سوى العبيد والجوارى ، ولا يفكر إلا فى ملاذه ؛ وبدلا من أن يعنى بشؤون الحـكم ، كان يلهو بما لا يليق بأمير من رعى الأبقار وتربيتها ؛ ومع أنه لم يجاوز الحادية والعشرين ، فقد ذبلت صحته وتحطمت من جراء اللهو العنيف ، ودنا سراعاً من القبر ؛ ولقيت حياته العابثة نهاية غير مجيدة ؛ فقد توفى بين أبقاره وهو يروضها ، إذ هجمت عليه بقرة شرود منهن وضربته بقرنيها فى موضع القلب ، فتوفى لساعته ، وذلك فى الثالث عشر من ذى الحجة سنة ٦٢٠ هـ ، الموافق ٦ يناير سنة ١٢٢٤ م (١) .

والواقع أن المستنصر نفسه لا يحمل تبعة خلاله السيئة وفشله فى الحـكم ؛ ذلك أن أقاربه ووزراءه كانوا يدفعون به إلى غمر اللهو ويجملونه غير أهل لأى عمل جدى ، وذلك لـكى ينتزعوا مقاليد الحـكم لأنفسهم من هذا الفتى القاصر ، وقد حققوا غايتهم ؛ ولـكنهم دفعوا فى نفس الوقت بالمملـكة إلى براثن الفوضى والحرب الأهلية .

ومهدت وفاة المستنصر الفجائية دون عقب ، لأقاربه الذين كانوا يحكمون مقاطعات المملـكة مستغلين فرصة واسعة لمحاولاتهم وأطماعهم ؛ وسرعان ما أفضى

(١) روض القرطاس ص ١٦١ .

النزاع حول العرش الى اضطرام الحروب الأهلية . وقام فى الحال بالأمر فى مراكش عم أبى المستنصر ، أبو مالك عبد الواحد ، وكان يعيش من قبل عيشة الترهب والتبتل ؛ وقام بالأندلس ابن أخيه عبد الله أبو محمد وهو ولد يعقوب المنصور ، وأعلن نفسه أميراً على مرسية باسم العادل بالله ، واعترف أخوه أبو على إدريس والى إشبيلية بسيادته ؛ ولم يكتف العادل بما أحرزه من الاستقلال بالأندلس ، فأوعز إلى أصدقائه وأنصاره فى مراكش بالثورة على أبى مالك عبد الواحد ، وكان منكبا على لهوه وملاذه ، فخلع فى ١٣ صفر سنة ٦٢١ هـ (٨سبتمبر سنة ١٢٢٤م) ، ثم قتل بعد ذلك بثلاثة أيام ، ولم يطل حكمه سوى ثمانية أشهر . بيد أن العادل لم يستقر فى عرشه الملطخ بالدماء سوى القليل ، ثم أسقطه أولئك الذين رفعوه ؛ ذلك أنه حاول أن يحد من غطرسة الولاة والقضاة والأشياخ وأطماعهم ، وأن يقيم العدل والنظام ثانية فى تسيير الشؤون ، وأن يرد هيبة السلطان كما كانت من قبل ، ولكنه لقى معارضة من كل جانب ؛ ووقع الانفجار فى الأندلس بادئ ذى بدء ، حيث رفع أقارب العادل من السادة الموحدين — وهم محمد صاحب قرطبة ، وأبو على صاحب إشبيلية ، وعبد الرحمن صاحب بلنسية ، ومحمد والى بياسة — علم الثورة ؛ وتحالف محمد مع الجند القشتاليين الذين نفذوا إلى الأراضى الإسلامية ، ضد من بقى على إخلاصه من جند العادل ، واستطاع فرديناند ملك قشتالة بذلك أن يحتل حصون بياسة وأندوجار ومرطوس ، وأن يحصل على ربع مواردها . ورأى العادل خشية من أن يفقد الأندلس كلها أن يعقد حلفا مع ملك قشتالة ، وعين محمد والى بياسة [1] قائداً عاما لقوات الموحدين بالأندلس ، وحصل فرديناند فى الحال على أهم الحصون الواقعة على الحدود ؛ وانتهز خصوم العادل هذه الفرصة فشهروا به لدى الشعب ، وأبى قائد حصن كابيلا أن ينفذ أمر العادل وأن يسلم المدينة إلى ملك قشتالة ؛ ورأى أهل قرطبة أن النصارى قد أحاطوا بهم من كل صوب . وأخذوا يتوقعون سقوط المدينة فى أيديهم . وأخذ السخط يشتد تباعاً من

(١) ويسمى البياسى لأنه قام ودعا لنفسه بمدينة بياسة (روض القرطاس ص ١٦٤) .

جراء المعاهدة المعقودة مع النصارى ، ورأى الناس فى العادل خارجاً على الإسلام ، وحذف اسمه من خطبة الجمعة ، وجهر الناس بالدعاء عليه فى المساجد ، واعتبروه عدوا لله ومغتصباً للعرش بلا حق ، وانتهى الأمر بأن كسب الثوار الحرس إلى جانبهم ؛ وفى ذات يوم اقتحموا القصر وطلبوا إلى العادل أن ينزل عن العرش مختاراً ، فأبى وصرح بأنه لن ينزل بأى حال عند مطلبهم ، فقبضوا عليه ، ووضعوا رأسه فى حوض نافورة مملوء بالماء ، وأقسموا بألا يخرجوه منه حتى يعلن تنازله ؛ فأصر العادل على رفضه بشدة ؛ فوضعوا عمامته فى عنقه ، وأخذوا فى خنقه ورأسه مغمور فى الماء ، وهكذا توفى هذا الأمير ضحية لصرامته وأطماع أقاربه وكبراء مملكته ، وذلك فى الحادى والعشرين من شوال سنة ٦٢٤ هـ ، الموافق ٥ أكتوبر سنة ١٢٢٧ م ، بعد حكم دام ثلاثة أعوام وثمانية أشهر وبضعة أيام . وحدث فى نفس الوقت أن قتل محمد صاحب قرطبة غيلة ؛ وحاولت مدينة بياسة التى منح قلعتها كبير فرسان قلعة رباح ، أن تطرد النصارى ، ولكن جهودها ذهبت كلها عبثا . ولما استولى فرديناند على حصن كابيلا بعد أربعة أشهر ، استطاع أن ينقذ فرسان قلعة رباح المحصورين فى قلعة بياسة ، وأن يأخذ المدينة نفسها ؛ وغادر المدينة سكانها ، واحتل النصارى هذا المركز الهام ، وقد كان دعامة ذات شأن لما تلا من الفتوح فى الأندلس .

وكان مدبر الفتنة ورأس المؤامرة التى فقد فيها العادل عرشه وحياته ، أخا العادل ، أبا على إدريس والى الأندلس المتقدم ذكره ؛ وكان مقامه من قبل فى إشبيلية ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مالقة ، وابتنى له بها قصرا فخماً ، وعمل على استغلال سخط الزعماء فى الأندلس للحط من هيبة أخيه ؛ ولما تم له ذلك فى الأندلس ، سهل عليه أن يقوض سلطان العادل فى المغرب ، وأن ينزعه من عرشه ، ويقضى على حياته ؛ وكما أن العادل استطاع أن يرق العرش بطريق الثورة والخيانة والقتل ، فكذلك كان سقوطه ؛ ولم يوفق أخوه أبو على الذى أعلنه الثوار ملكا باسم المأمون ، إلى أن يفوز بحكم أهدأ من حكمه ، وحمله فقد كل نظام وطاعة على أن

يحكم بيد من حديد ، ولما كان مجلسا الخمسين والسبعين اللذان أنشأهما أمراء الموحدين وفقاً لتعاليم المهدى ، قد أصبحا أكبر عضد للإخلال بالنظام والفوضى من جراء سوء استعمال السلطة ، فقد حاول المأمون قبل كل شيء ، أن يحطم من سلطة هذين المجلسين ، وأن يردها إلى سابق حالتهما كهيئتين استشاريتين فقط ، وأن يلغيهما إذا استطاع ؛ وكان يؤازره فى ذلك وزيره الأكبر الأمير أبو زكريا ابن على ، وكان من رأيه أنه يجب لإقامة حكومة قوية رشيدة ، أن يكون ثمة شريعة غير شريعة الله ، ورأى الأمير ؛ وكتب المأمون أو كتب وزيره المذكور باسمه بهذا المعنى وثيقة يعارض بها شريعة المهدى ونظام حكومته ، ويبين فيها عيوب هذا النظام وسوء إدارته ، ويعرب عن رغبته فى العمل على إصلاح دستور الدولة المهدية . فرأى الزعماء فى تصريح الأمير ، ورأى فيه أعضاء المجلسين بالأخص تهديداً لامتيازاتهم ، وحاولوا أن يعارضوا بكل قواهم ذلك النظام المطلق الذى يريد أن يقيمه المأمون ، والذى هو فى الواقع نظام الحكم المعتاد فى الدول الاسلامية ، لما فيه من حد لحقوقهم ؛ فلم تزد هذه المعارضة المأمون إلا نشاطا فى تنفيذ مشروعه الإصلاحى ، وسرعان ما استحال هذا الصراع فى سبيل الحياة أو الموت بين السلطتين إلى حرب أهلية ، وعوقب مجلسا الدولة أعنى مجلسى الخمسين والسبعين من جراء معارضتهما بالحل ؛ ومع ذلك فقد أعلن المجلسان قيامهما ، وأعلنا بطلان حكومة المأمون ، وزعما لأنفسهما الحق فى اختيار خلف الحكومة العادل ، ونادبا فى الحال بولاية أبى زكريا يحيى ، ولد الخليفة السابق محمد الناصر وهو صبى فى الرابعة عشرة من عمره[1] ، وأقسما له يمين الطاعة ، فتلقب بالمعتصم بالله ، وبادر أنصاره الذين رفعوه إلى العرش بإرساله إلى الأندلس على رأس قوة من الجند ، ليعمل على إسقاط المأمون عن العرش ، وكان يومئذ بالأندلس ، وما كاد المأمون يقف على مقدم خصمه المعتصم حتى سار إلى لقائه فى جيش ضخم يعاونه بعض الجند القشتاليين ، وهزمه فى معركة شديدة نشبت بينهما فى شذونة ،

(١) فى روض القرطاس أنه كان يومئذ فى السادسة عشرة من عمره (ص ١٦٥) .

وفر الأمير المنهزم فى فل جيشه القليل إلى مفاوز جبال البشرات ، حتى تسنح الفرصة مرة أخرى لمنازعة خصمه المأمون . ولما كان النصارى قد انتهزوا فرصة الحرب الأهلية بين المسلمين للقيام بغزوات عديدة فى الأندلس ، وعبروا الحدود الاسلامية ظافرين من كل صوب ، فقد آثر المأمون أن يتحول إلى مقاتلة النصارى على أن يمضى فى مطاردة فلول المعتصم فى أعماق الجبال ؛ فانقلب فجأة إلى مقاتلة القشتاليين ، وكانوا يومئذ قد اجتاحوا أراضى الأندلس حتى ظاهر غرناطة وضربوا الحصار عند عودتهم حول جيان ، وأخذهم على غرة ، فانهزموا وركنوا إلى الفرار بعد أن تكبدوا خسائر فادحة ؛ وكان من ثمار هذا النصر الذى وقع فى سنة ١٢٢٨ م (٦٢٥ هـ) أن أنقذت جيان ، واستردت عدة من حصون الحدود المفقودة ، وأصاب المسلمون غنائم عظيمة .

وبعد أن حصن المأمون حدود الأندلس للموحدين على هذا النحو ، بادر بالعودة إلى المغرب ليعاقب الزعماء الذين دبروا خلعه أو الذين تخلفوا عن بيعته ، فركب البحر من إشبيلية فى أسطول ضخم ، ولما وصل إلى مقربة من سبتة حاول إبراهيم بن غانية أمير البحر من قبل المعتصم ، أن يعترض نزوله إلى البر ، فقاتله وهزمه ، وترك المأمون جنده المشاة ، وسار فى قوة من الفرسان فقط ، فوصل إلى مراكش بسرعة عظيمة ، حتى أن أحداً من خصومه لم يجد وقتاً للفرار ، وسقط أعضاء المجلسين الذين بالغوا فى خصومته جميعاً فى يده أسرى ، فقضى عليهم بالإعدام بتهمة الخيانة ، وقام فى الحال حرسه بتنفيذ هذا الحكم .

ولم يقتصر الأمر على العاصمة ، بل تناول القاطعات أيضاً ، وجد المأمون فى مطاردة جميع أنصار النظام القديم ، ونفذت أوامره الدموية بمنتهى الصرامة ، حتى أنه لم يمض سوى القليل حتى أرسلت زهاء خمسة آلاف من رؤوس القتلى إلى مراكش ، وعلقت على أسوارها ؛ وبثت حكومة المأمون الصارمة الذعر والروع فى كل مكان ؛ وألفى المأمون فى حرسه من الأندلسيين والسود أداة قوية مستعدة لتنفيذ أوامره ، وفقد زعماء الموحدين الذين استطاعوا الفرار من الموت

كل شجاعة وكل عزم ، ومع أن مجلسى الخمسين والسبعين لبثا قائمين بالاسم . فان أعضاءهما الجدد كانوا من صنائع المأمون ، ولم يسمح لهم بالتدخل فى شأن من شؤون الدولة ، وكل ما هنالك أنهم كانوا يعاونون وزير العدل ، وكان عليهم أن يصادقوا دون جدال على كل خرق للشرع والقانون . ولكى يعدل دستور دولة الموحدين من أساسه ، أعلن أن مؤسسه المهدى مخاتل ومحتال ، ومحى ذكره من الصلاة ومن المنابر ، وأبطلت جميع النقود والنقوش التى تحمل اسمه ؛ وكان طبيعيا أن يعتبر الشعب المأمون إثر ذلك ملحدا ومرتدا وكافراً ، وألا يحول دون انفجار الثورة العامة عليه سوى بطشه وقوة حرسه ؛ ومن ثم فقد اضطر المأمون إلى المضى فى هذا الحكم الرهيب ، ولم يتح له أن يستبدله بغيره ، بالرغم من أنه قد أفنيت فى ظله الألوف ، ولم ترفع رؤوس القتلى عن جدران المدينة بالرغم من أنها كانت تسمم الهواء من جراء اشتداد الحر ؛ وكان المأمون يقول : « ها هنا مجانين هذه الرؤوس أحراز لها ، وروايحها عطرة عند المحبين كريهة عند المبغضين . . . وأنا أعرف بما يتطلبه الخير العام[1] » .

وبينما كان المأمون يحكم المغرب بيد من حديد ، ويرد أنصار خصومه بعد أن هزمهم غير مرة ، إلى أعماق جبال الأطلس ، إذا بمعظم أراضى الأندلس يخرج عن قبضة الموحدين ؛ ففى منطقة مرسية قام أبو عبد الله محمد بن يوسف سليل بنى هود أمراء سرقسطة السابقين ، وسرعان ما ألفى العربى النبيل فى بغض عرب الأندلس للمغاربة الموحدين أكبر عضد ؛ كذلك لم يكن ينقصه تعضيد الفرسان النصارى الذين كانوا — كما كان السيد الكنبيطور — يخرجون للحرب والفتوح ؛ واستولى محمد بن هود على مرسية دون كبير مشقة ، ونادى بنفسه أميراً لها باسم المتوكل على الله ، وحاول أن يكسب الأندلسيين إلى جانبه بسرعة ، وأن يؤلبهم على قتال الموحدين فأذاع أنه يسعى إلى تحريرهم من نير المغاربة المرهق ، وأنه لن يفرض عليهم سوى

(١) وردت هذه التفاصيل جميعها عن حكم الإرهاب الذى بسطه المأمون فى الحلل الموشية ص ١٢٤ و ١٢٥ ؛ وقد نقلنا قوله الأخير عن الرؤوس منها ما عدا العبارة الأخيرة .

الضرائب الشرعية ، وأن يعمل على إقامة شرائع الإسلام الحقة ، وأعلن المتوكل أن الموحدين كفار ، وأمر أن يحتفل بتطهير المساجد التي دنسها فقهاؤهم وارتدى السواد بهذه المناسبة ، وأمر الزعماء بارتدائه ، لا باعتباره شعار الحداد كما يقول ردريك الطليطلي ، ولكن لكي يميز حزبهم من غيره ، وذلك لأن المتوكل ، رأى أن يعترف بسيادة بني العباس خلفاء بغداد ، وشعارهم السواد ، لكي يستعين بذلك على قتال الموحدين .

ولم يمض سوى قليل ، حتى سارعت — بعد مرسية — معظم بقاع الأندلس إلى طاعة ابن هود ، ومبايعته ، ومنها مدن جيان وقرطبة وماردة وبطليوس ؛ وزاد في قوته وسلطانه ما أعلنه من أنه عدو لدود للنصارى ، وأن الخليفة العباسي قد أقر إمارته على الأندلس ؛ واضطر المتوكل في بدء إمارته أن يخوض مع ألفونسو التاسع ملك ليون معارك شديدة ؛ واستطاع ألفونسو أن يفتتح عدة حصون على الحدود في مقاطعة استرامادوره ، وأن يهزم جيش المتوكل الضخم في معركة هائلة انتهت باستيلاء الليونيين على ماردة ، وهي مدينة عظيمة على ضفة وادي يانة ، وعلى بطليوس وهي إحدى الحصون المنيعة ، وذلك في سنة ١٢٣٠ م (٦٢٧ هـ) .

ولم يدخر المتوكل وسعاً في العمل على إسقاط المأمون ، أو معاونة منازعه على العرش المعتصم يحيى بن الناصر ، الذي أرسل من جديد جنوداً إلى الأندلس لمحاربة جند المأمون ؛ كذلك لم يفته أن يحسن الانتفاع بثورة أخي المأمون ، أبي موسى بن المنصور ، والي سبتة ؛ ولم يكن من الصعب عليه — وقد حظي بمؤازرة الشعب الأندلسي كله — أن يهزم زعيم الموحدين ، بعد أن كان التوفيق يحالفه في عدة معارك دموية ، وأن ينتزع منه حصن غرناطة المنيع (سنة ١٢٣٠ م) ؛ وفقد الموحدون مدينة بعد أخرى ، ومقاطعة بعد أخرى ؛ ولم يروا أمامهم سبيلا للاحتفاظ بما تبقى سوى عون النصارى الأسبانيين ؛ وكما حاول الأمويون ، ثم المرابطون من بعدهم ، في آخر أيامهم أن يحتفظوا بسلطانهم المضطرب بمعاونة المرتزقة

النصارى ، فكذلك شأن الموحدين[١] .

وهكذا اتخذ أمير المؤمنين اثنى عشر ألفاً من المرتزقة القشتاليين فى خدمته ، وأرسلوا إلى المغرب لحماية العاصمة مراكش وإقليم المغرب من عدوان منافسه يحيى وأنصاره ، ونزل لقاء ذلك إلى ملك قشتالة عن عشرة من حصون الحدود ، ودفع إليه مبالغ طائلة من المال ، وسمح بإقامة كنيسة للنصارى فى مراكش ، وتعهد بألا يتعرض أحد فى مملكة الموحدين كلها للنصرانية والنصارى بسوء ، وأن يؤذن للنصارى فى الأندلس بقرع النواقيس فى كنائسهم . أما ما قيل من أنه اشترط فى معاهدة الصلح بين الملكين ، أنه إذا اعتنق الاسلام نصرانى ، فان إسلامه يكون باطلا ، وأنه إذا اعتنق النصرانية مسلم فلن يتعرض له أحد بشىء ، فما يشك فيه كل الشك ، كما أنه يشك أيضاً فى صحة ما نسب إلى المأمون من أنه قال فى خطبة ألقاها فى الشعب ، إن المهدى مؤسس الدعوة المهدية وحكومة الموحدين مخادع مضلل ، « وإنه لا مهدى إلا عيسى ابن مريم عليه سلام الله وبركاته » ، ذلك أنه إذا كان المأمون ، كما يبدو صديقاً للنصرانية ، فانه لم يكن باستطاعته أن يجاهر بذلك دون أن يفقد فى الحالة عرشه وحياته[٢] .

ولم يدخر المأمون وسعاً فى تحطيم خصومه ؛ ومع ذلك فقد كان يرى — والألم يحز فى نفسه — كيف ينهار سلطانه يوماً بعد يوم ، وذلك بالرغم من أن حلفاءه النصارى كانوا ينشطون إلى معاونته بالغزوات المستمرة والمعارك الظافرة ضد محمد ابن هود ؛ ولكن الأندلسيين لم تكن لترضيهم محالفة النصارى ، بل كانت بالعكس

(١) تحدث ابن خلدون عن ثورة ابن هود على الموحدين وحروبه معهم باسهاب فى الجزء الرابع ص ١٦٨ و ١٦٩ .

(٢) يورد صاحب روض القرطاس جميع هذه الشروط ، التى اشترطها ملك قشتالة على المأمون نظير إمداده بالجند القشتاليين ومنها إقامة الكنيسة بمراكش ، وعدم الاعتراف باسلام النصرانى إذا أسلم ، وعدم التعرض للمسلم المرتد . كذلك يقول لنا إن المأمون خطب الناس بجامع المنصور ، ولعن المهدى وقال : « أيها الناس لا تدعوه بالمعصوم وادعوه بالغوى المذموم ، إنه لامهدى إلا عيسى ، وإنا قد نبذنا أمره النجس ... الخ » (ص ١٦٧) ويؤيد ابن خلدون هذه الرواية فى بعض تفاصيلها (ج ٦ ص ٢٥٣) .

حافزاً لهم على معاونة خصوم المأمون . وحدث أيضاً أن فقدت مقاطعة بلنسية الخصبة الغنية . ذلك أن واليها السيد أبا عبد الله محمد أخا المأمون ، لجأ فى حماية سلطانه من المتوكل والأندلسيين الثائرين إلى طلب العون من جايم الأول ملك أراجون ، وتعهد بأن يؤدى له الجزية ، وأن يكون تابعاً له ، فاشتد لذلك سخط البلنسيين ، والتفوا حول أحد زعمائهم وهو أبو جميل زيان بن أبى الحملات مدافع ابن أبى الحجاج الجذامى سليل آل مردنيش أمراء بلنسية السابقين ، وطردوا الأمير المرابطى ، ونادوا بزيان أميراً عليهم ؛ فلم يجد السيد أبو عبد الله أمامه سوى الالتجاء إلى ملك أراجون يطلب حمايته ، وأجابه جايم إلى سؤله باعتباره تابعه سيما وقد اعتنق السيد وبنانه النصرانية [1] ، وألفى جايم عندئذ حجة لغزو بلنسية ، مؤملا أن يحظى بالتأييد والعون من أنصار الأمير الموحدى فيها .

وفى تلك الأثناء ثار والى سبتة السيد أبو موسى أخو المأمون ، وانضم بقواته إلى ثوار الأندلس ؛ واستطاع يحيى الناصر بالرغم من الحامية النصرانية أن يفتتح مراكش ، وهدم الكنيسة التى أقيمت فيها ، ونهب النصارى واليهود وقتلهم [2] . فعندئذ رأى المأمون أن يترك الأندلس إلى مصيرها ، وإلى حلفائه النصارى ؛ وركب البحر من إشبيلية — وهى المدينة الوحيدة الهادئة التى بقيت للموحدين فى الأندلس — إلى إفريقية ، لكى يسترد مراكش قبل كل شىء ؛ ومن النادر أن تقص سيرة أسرة على شفا الانهيار بوضوح وصدق ، فالمؤرخ الذى ينتسب إلى هذا الحزب أو ذاك يقص حوادث هذا العصر المضطرب فى الغالب وفقاً لما يهوى ؛ ومن ثم فانه ليس من المحقق ما إذا كان المأمون قد توفى بالصرع قبل أن يصل إلى مراكش ، أو أنه خاض مع يحيى الناصر معركة وهزمه ثم أصابه الموت فجأة وهو يدبر الأمر لاسترداد الأندلس ؛ وقد توفى فى الثلاثين من شهر ذى الحجة سنة ٦٢٩ هـ (١٦ أكتوبر سنة ١١٣٢ م) ، بعد حكم دام

(١) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ .

(٢) راجع روض القرطاس ص ١٦٩ .

خمسة أعوام ، كدرته الحروب المستمرة مع الثوار ؛ وكان موته نذيراً بانهيار سلطان الموحدين فى المغرب بعد أن تم انهياره فى الأندلس قبيل موته ؛ وبقيت فى المغرب من سلطان الموحدين أنقاض لبثت بعد ذلك زهاء نصف قرن ، ونحن نقص هنا سيرتها بإيجاز ، وإن كانت لا تكاد تمت بصلة ما إلى تاريخ الأندلس .

وبعد وفاة المأمون حاول الحزب الذى رفع ابن أخيه أبا زكريا إلى العرش ، أن يحصل لمرشحه على المبايعة العامة ، ولكن الحزب المعارض كان أقوى ، فعمل بتأييد الحرس النصرانى على تولية ولد المأمون أبى محمد عبد الواحد ؛ وهو صبي فى الرابعة عشرة من عمره ، وتلقب بالرشيد ؛ واعترف بولايته معظم أقطار المغرب ، وقسم من الأندلس يشمل إشبيلية والجزيرة ؛ أما يحيى فقد استمر أربعة أعوام أخرى يخوض معارك دموية كان يهزم فيها دائماً ، ثم توفى على مقربة من فاس ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٦٣٣ هـ (يونيه سنة ١٢٣٦ م) ، ولكن لم تنقطع بوفاته دسائس الأحزاب المختلفة ، وهى دسائس جد عبد الواحد فى قمعها ؛ وهكذا استمر يعيش محوطاً بالقلاقل والفتن ، حتى وقع حادث سيء أودى فجأة بحياته ؛ ذلك أن جواده جمح ذات يوم وركض به إلى بركة أو نافورة فى حديقة فغرق ، وتوفى فى التاسع من جمادى الثانية سنة ٦٤٠ هـ (٤ ديسمبر سنة ١٢٤٢ م) ، وذلك بعد أن حكم عشرة أعوام وبضعة أشهر ؛ ولم يجاوز عند وفاته الرابعة والعشرين من عمره ؛ وفى أثناء حكمه فقد المسلمون فى الأندلس قرطبة وإشبيلية وأراضى كثيرة أخرى ، استولى عليها النصارى من محمد بن هود وزيان بن أبى الحملات .

وعلى أثر وفاة عبد الواحد نادى الموحدون بأخيه أبى الحسن على — الملقب بالسعيد — سلطاناً عليهم ، وكان حكمه أحفل بالمصائب من حكم أسلافه ؛ وألفى الموحدون خصوماً جدداً فى بنى زيان وبنى مرين ، الذين أخذوا ينازعونهم السيادة فى المغرب ؛ وكان السعيد أكثر توفيقاً فى محاربة بنى مرين ، إذ هزمهم فى معركة شديدة بمعاونة المرتزقة النصارى الذين فى خدمته ؛ بيد أنه هزم بعد ذلك

فى موقعة نشبت بينه وبين يحيى بن زيان أمير تلمسان ، وقتل أثناء القتال ، ولما يمض على حكمه ستة أعوام بعد ، وكان مقتله فى ٢٩ صفر سنة ٦٤٦هـ (٢٤ يونيه سنة ١٢٤٨م) . وفى أثناء حكمه حاصر النصارى مدينة إشبيلية ، وهى آخر قاعدة كبيرة بقيت بيد الموحدين بالأندلس ، ولم يستطع أن يمدها بالمعاونة الكافية ، فسقطت فى يد فرديناند الثالث ملك قشتالة .

وخلفه فى حكومة مراكش عمر بن أبى إبراهيم إسحاق ، وهو من أحفاد أبى يعقوب يوسف ، وتلقب بالمرتضى ؛ وكان أميراً عاقلاً حسن الخلال ، فنشط لمقاومة خصوم أسرته مزوداً بجميع الوسائل والقوى خلا حسن الطالع : ولم تفد جهوده — لإعادة نظم المهدى وتعاليمه إلى سابق مكانتها بعد أن أبطل المأمون بعضها — شيئاً فى توطيد سلطانه ؛ ذلك أنه متى انهارت أسس دولة من الدول فإنه لن تحول دون سقوطها دعامات قديمة مقوضة ؛ ولم يتأثر الشعب ذرة بحج المرتضى إلى قبر المهدى فى تينمال ، جريا على سنة الأوائل من خلفاء الموحدين ؛ ذلك أنه لم يكن يرى فى مؤسس دولة الموحدين بعد نبيا ورسولاً ، بل اعتاد أن يرى فيه — وفقاً لأقوال حكومة المأمون — محتالا مخادعاً . وهكذا فإنه بينما كان المرتضى يحاول عبثاً رد القديم أن يقيل المملكة من عثارها ، كانت النواحى تخرج عن قبضة الموحدين واحدة بعد أخرى ؛ وكانت أنقاض سيادتهم فى الأندلس تؤول إلى أمير غرناطة محمد بن الأحمر ، أو إلى قشتالة والبرتغال ؛ ونشبت فى سبتة ثورة لم يقو المرتضى على إخمادها ؛ وسقطت فاس فى يد المرينيين ؛ وتفاقم الخطب بخروج أمير من أمراء الموحدين ، هو أبو العلاء إدريس بن أبى حفص بن إبراهيم ابن عبد المؤمن الملقب بأبى دبوس ، وكان خروجه فى ٢٥ محرم سنة ٦٦٥ هـ (٢٥ أكتوبر سنة ١٢٦٦م) وحاول أن يعمل لإسقاط عمر ، وانتزاع الملك لنفسه ، فتحالف مع بنى مرين ، وسلمهم مدينة مراكش بطريق الخيانة فاحتلوها ، وفر عمر المرتضى ناجيا بنفسه ، منبوذاً من جميع أصدقائه ، فهام حينا على وجهه حتى قتله عبده المرافق له غيلة ، وذلك فى ٢٢ صفر سنة ٦٦٥ هـ (٢١ نوفمبر سنة ١٢٦٦م)

بعد أن حكم تسعة عشر عاما إلا بضعة أشهر ؛ وحسن ذكره فى الناس فيما بعد فكانوا يحجون إلى قبره كما يحجون إلى قبر قديس .

وعلى أثر ذلك ولى إدريس أبو دبوس — بمعاونة المرينيين — ذلك العرش المضطرب ، الذى عاون هو على تقويضه ؛ وقبض على أبناء سلفه وزجهم إلى السجن تأميناً لحكومته ، بيد أنه لم يمض سوى القليل حتى أدرك إدريس معاونة المرينيين على حقيقتها . ذلك أنهم طلبوا إليه أن يحكم باسمهم باعتباره تابعاً لهم ، فأبى إدريس مغضباً ؛ وعندئذ نشبت الحرب بين الفريقين ؛ فحشد إدريس كل ما تبقى له من قوى الموحدين ، وبعد أن دام القتال بينهما حيناً ، وكان النصر بينهما سجالا ، التحم الفريقان فى العام الثالث ، فى الثانى من محرم سنة ٦٦٨ ﻫ (أول سبتمبر سنة ١٢٦٩ م) ، فى معركة دموية على ضفاف نهر وادى الغفير ؛ فقتل إدريس وهو يقاتل بمنتهى البسالة ، وذلك بعد أن مزق جيشه وسحق فى كل ناحية وقتل معه سواد الموحدين فى ميدان الحرب ؛ وكانت هذه المقتلة ، هى مقتل سيادة الموحدين ؛ فانهارت دولتهم ، بعد أن قامت مدة واحد وخمسين ومائة عام ، وانتهت بالرابع عشر من أمرائهم ، وهو إدريس أبو دبوس ، لكى تعقبها دولة بنى مرين .

الفصل السادس

نزاع جايم الفاتح مع عميه وحروبه ضد المسلمين في الجزائر الشرقية ومملكة بلنسية حتى خضوع هذه المملكة لسيادة أراجون

كان نبأ موت بيدرو نذير اضطرام فتن شديدة بين أشراف أراجون وقطلونية ؛ كذلك نهض أخوا الملك المتوفى وهما سانشو وفرناندو في الحال مطالبين بالعرش ، منكرين صحة مولد جايم (خايم) أو يعقوب ، لأن بيدرو نفسه كان يعتبر زواجه من ماريا باطلاً ؛ ولكن البابا كان قبيل وفاة بيدرو قد أعلن صحة هذا الزواج ، ولذلك أعلن معظم رجال الدين ، وفريق كبير من الفرسان تأييدهم لجايم ، باعتباره وارثاً للعرش ؛ وأرسلوا سفيراً إلى البابا أنوسان الثالث ، وحصلوا بمعاونته على استلام وارث العرش من الكونت سيمون دى مونفور ؛ وأحضر « جايم » وهو طفل في السابعة من عمره إلى أراجون برفقة بطرس مطران بنفنت والكونت ريمون برنجار صاحب بروفانس ، وذلك سنة ١٢١٤ م ؛ وفي مجلس النواب الذي عقد في لارده ، وشهده رجال الدين ، والأشراف والفرسان ، وكذلك عشرة نواب عن كل مدينة ، أعلن جايم ملكاً شرعيا للبلاد ؛ ولما كان العمان قد استطاعا أثناء غياب جايم عن أراجون أن يحشد كل منهما فريقاً كبيراً من الأنصار ، ولم يحضرا مجلس النواب ، فقد رأى المطران أن يطلب إلى الحاضرين أن يقسموا يمين الطاعة في الحال للملك ، وهو ما لم يحدث قط من قبل في أية تولية سابقة .

وأصدر المجلس قراراً بأن تسند تربية الملك الطفل وحراسته إلى أستاذ فرسان الداوية فى مملكة أراجون وهو وليم دى مونريدون ، وهو من أشراف قطلونية الذين امتازوا بوافر عنايتهم وفروسيتهم وثقافتهم ، وأن يسند حكم البلاد إلى ثلاثة من حكام المقاطعات ، منهم اثنان عن أراجون ، والثالث عن قطلونية ؛ وأسندت الوصاية إلى سانشو كونت روسيون حتى لا تهضم حقوق المدين .

ولكن هذه الإجراءات لم تنجع فى قمع الفتنة من البلاد ، بل زادتها اضطراماً ؛ وكانت أطماع عمى الملك اللذين لم ينزلا عن دعواها فى العرش ، أهم أسباب القلاقل فى البلاد ؛ وكانا يعملان فقط لتحقيق مصالحهما الخاصة ، وينفقان موارد البلاد فى سبيل أغراضهما ، وترتب على ذلك أن انهارت موارد البلاط المالية ، وكانت قد اضمحلت من جراء إسراف بيدرو ؛ وكان القضاة الملكيون يبيعون العدالة ليحصلوا قوتهم ؛ وبذا كان كل شىء ينذر بانحلال المملكة . وهنا نهض الشيخ الأمين الموقر كينو كورنل ، فعمل على إنقاذ المملكة من السقوط ، وعلى تأمين العرش لجايم ، الملك الذى يعانى نوعا من الأسر ؛ ذلك أنه عقد حلفاً بين المخلصين من مواطنيه ؛ وعمل هؤلاء على تسهيل الفرار للملك الفتى من حصن مونزون حيث كان سجيناً تحت إشراف عمه الطموح سانشو ، وأحضروه إلى سرقسطة ، وذلك فى سنة ١٢١٧ م ؛ ومع أن جايم لم يكن فى ذلك الوقت يجاوز العاشرة من عمره ، فإنه كان يبدو من حيث نموه الجسمى والعقلى فوق سنه ؛ وكان يعنى بشؤون الدولة بمعاونة بعض الوزراء الأكفاء ؛ وفى العام التالى استدعى مجلساً نيابيا فى لارده ، وفيه اتفق مع عمه سانشو ، على أن يقطعه أملاكا شاسعة ، ودخلاً حسناً ؛ ولقاء ذلك نزل سانشو عن الوصاية ، وعن دعواه على العرش ، وأقسم يمين الطاعة المنشود .

وهنا ظهر العم الآخر فرناندو ، وغدا أخطر عدو للملك . وكان أقوى الأمراء الإقطاعيين يضطرمون عناداً ومعارضة ويرفضون الإذعان للأوامر الملكية ، وسرعان ما شهروا على الملك الفتى حربا شعواء ؛ فانتهز فرناندو هذه

الفرصة ليعمل على نزع ابن أخيه عن العرش ، والتف حوله الخوارج والثوار ؛ وحاول كل حزب أن يحصل على شخص الملك لكى يستطيع الحكم باسمه ؛ وهكذا وقع چايم فى يد آل مونكادو وآل آمونى ، وهما أسرتان قويتان ، لم يلبثا أن استأثرا بجميع السلطات ؛ وكان فرناندو يشترك فى جميع هذه الحوادث ، وقد استطاع أن يسيطر على مدن سرقسطة ووشقة وجاقه وأن يحملها على الانفصال عن المملكة ؛ ولكن الخلاف والحسد اللذان دبا إلى الحلفاء ، وخلقا منهم أحزاباً جدداً ، ونصرف چايم الحكيم فى جميع المآزق ، قضت على عمل الأطماع والخيانة ؛ وكلما اعتقد فرناندو أنه أوشك على تحقيق الغاية بعدت عنه ؛ واستطاع چايم أن يوثق أواصر تحالفه مع قشتاله بزواجه من الينور ابنة ألفونسو النبيل (سنة ١٢٢١ م) ، وعاون ذلك على تسوية الخلاف بين الأحزاب الخصيمة لمدى قصير ؛ ولكن سرعان ما عاد فرناندو وأنصاره الأقوياء إلى غطرستهم ؛ وفى سنة ١٢٢٥ م ، استطاع چايم أن يفر من قبضة خصومه الأقوياء مرة أخرى ؛ وحاول — باشهار الحرب على المسلمين — أن يسترد هيبته الملكية ، ولكنه لم يوفق فى البداية ، إذ لم يتبعه إلى ميدان الحرب سوى القليل من البارونات والفرسان ؛ على أن الملك الفتى لم يهن عزمه من قلة أعوانه والصعاب المحدقة به ، وما زال مصرا على تأييد حقوقه بالسيف ضد جمهرة الخوارج عليه ، وقد أبدى فى ذلك من الاقدام والجرأة والجلد ، مثلما أبدى من البراعة فى الحرب ، والذكاء ، وضبط النفس . وكانت معظم المدن قد انحازت إلى فرناندو ، وانحاز إليه أيضاً فريق من رجال الدين ، وأعلن معظم البارونات والفرسان خصومتهم للملك ، وتبع الكثيرون منهم فرناندو ؛ وكانت مدن سرقسطة ووشقة وجاقة المرتبطة معا برباط التحالف الوثيق تعتبره حاميها والمدافع عنها . ولكن چايم استطاع فى النهاية ، بمفاوضات بارعة مع الأحزاب ومصانعة زعماء الحزبين الكبيرين فى قطلونية ، وما أبداه من العزم والحزم ، أن ينزع سلاح خصومه ؛ وما لبث أن انفض عن فرناندو معظم أنصاره فجأة ، فخارت عزائمه ، وبادر بالخضوع لچايم

والتماس عفوه ورأفته ، وذلك فى مدينة طرطوشة فى سنة ١٢٢٧ م . ولم يرد الملك أن يدفع بالقسوة خصومه إلى صراع اليأس ، فلم يكتف بالعفو عن عمه ، بعد أن بايعه بالطاعة وأقسم له يمين الاخلاص ، بل زاد على ذلك أن أقطعه ثلاثين ضيعة من ضياع الفرسان ، وشمل بعفوه جميع أنصاره ؛ وعهد بقمع الفتن الباقية إلى مطران طركونة وأسقف لاردة ، وأستاذ فرسان الداوية فى أراجون ؛ وهكذا تمت تهدئة البلاد بسرعة بعد أن عصفت بها الحرب الأهلية طويلاً ؛ واحتفل بعود السكينة إلى البلاد بتنظيم مواكب الشكر والحفلات الشعبية .

وما كاد يستتب الهدوء الداخلى ، ويطمئن چايم إلى توطد عرشه حتى عاوده شغفه القديم الذى لازمه منذ الصبا فى مقارعة أعداء دينه ، واعتزم أن يخصص كل عنايته لمحاربة المسلمين ؛ ولا ريب أنه كان حكيما بعيد النظر حينما بادر بعد قمع الفتن الداخلية ، إلى أن يفتح للبارونات والفرسان الظمئين إلى الكفاح ميدانا للحرب ، يستطيعون أن يخصصوا فيه حياتهم للحرب والقتال دون إضرار بالوطن . ذلك أن غزوات چايم ضد المسلمين كانت إلى حد ما وسيلة لاجتناب الحرب الأهلية ، وكان قد حاول أن يقوم بمثل هذا الدور فى صباه ؛ بيد أن الوقت لم يكن قد حان يومئذ للقيام به ، إذ كان لا بد من تحقيق وحدة البلاد بادئ ذى بدء . وقد أنشأ چايم فى بداية حكمه جمعية عرفت بجماعة الرحمة لكى تعمل على افتداء النصارى من أسر المسلمين ، وعين لرياستها أحد مؤدبيه ، وهو الشيخ الورع بيدرو نولاسكو ، وربما كان لهذا الشيخ كبير أثر فى كون چايم قد خصص حياته كلها لمحاربة المسلمين .

وفى سنة ١٢٢٨ م ، حينما كان چايم يعقد بلاطه فى طركونة ، وبرفقته جمهرة كبيرة من البارونات والفرسان ، تقرر فى إحدى المآدب أن تنظم حملة ضد جزيرة ميورقة ؛ ومن قبل چايم حاول بضعة من ملوك أراجون افتتاح الجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، وكانت ولاية قطلونية أيضاً قد استطاعت أن تشهر عليها مدى حين حروباً موفقة . وأثار بيدور مارتل وهو بحار مجرب من طركونة ،

أطماع الحضور وغضبهم ، بما قصه عليهم من غنى الجزيرة وخصبها ، وما يقوم به سكانها من آن إلى آخر من سبي النصارى ، وما يضمره أميرها للأرجونيين من البغضاء والعداوة . وعندئذ طلب الحضور إلى الملك أن يشهر الحرب على الأمير المسلم — وكان هذا الأمير يعامله أيضاً بصلف واحتقار — فأعلن الملك استعداده للمبادرة إلى ذلك . وأقسم أنه لن يعتبر نفسه ملكا شرعيا قبل أن يتم افتتاح ميورقة .

ولما كان أهل قطلونية نظراً لما يزاولونه من التجارة البحرية يهتمون بهذا المشروع أعظم اهتمام ، فقد رأى چايم أن يعتمد بالأخص على معاونتهم . وفى ديسمبر ١٢٢٨ م عقد مجلس نيابى فى برشلونة ، تقرر فيه أن يوطد السلام الداخلى قبل كل شىء . وصرح نواب الطبقات للملك بأن يجبى « ضريبة الماشية » عن كل زوج من الثيران بصفة استثنائية ، وهى الضريبة التى كانت فيما بعد تجبى مرة واحدة عند ولاية كل ملك ؛ وأوضح كل من الحضور نوع المساعدة التى يعتزم تقديمها إلى الملك فى هذه الحملة . ووعد چايم — من جانبه — بأن يقسم جزءاً مما يفتح على جميع الذين ساهموا فى هذا الفتح كل بنسبة ما قدم من عون ؛ وندب لتحديد هذا الجزء والجزء الذى يخصص له لجنة من أسقف برشلونة وبعض الأشراف ؛ ولم تنس الكنيسة ورجال الدين ، إذ خصص لهم جزء لا بأس به ؛ وبعد أن تم التفاهم على تقسيم الأرض المفتوحة على هذا النحو ، تقرر أن يكون ثغر سالو مكان الاجتماع ، وأن يبدأ فى تنفيذ المشروع فى نهاية مايو سنة ١٢٢٩ م .

وكان انحلال سيادة الوحدين السريع قد انتهى يومئذ إلى حالة يرثى لها مما عهد لنجاح مثل هذا المشروع . وكان السيد أبو عبد الله محمد المنصور ، أخو المأمون والحاكم على بلنسية والجزائر الشرقية ، قد نزع من ولايته قبل ذلك بقليل على يد الأمير زيان بن أبى الحملات ، وأخرج من أرضه ؛ وفر السيد المعزول إلى ملك أراجون ، وكان قد تعهد له من قبل بأداء الجزية وسأله أن يحارب مغتصب ولايته ، وأن يعيد إليه أرضه ؛ فأكرم چايم وفادة الأمير الفار ، ووعد بأن ينظم حملة من أجله ؛

وأوهمه بأن الحملة التى كانت أعدت من قبل لغزو ميورقة ، إنما أعدت من أجله وفى سبيل معاونته .

وفى الوقت المحدد اجتمع الجيش الذى اتخذ الصليب شعاره ، وأبحر فى مائة وخمسين سفينة كبيرة ، وعدد كبير من الزوارق الصغيرة ، وانضم إلى الحملة كثير من الجنويين وأهل بروفانس .

وكانت جزيرة ميورقة يومئذ تحت حكم واليها أبى عثمان سعيد بن حكم بن عمر القرشى وأصله من طبيرة بغرب الأندلس وبها ولد ، وكان يحكمها من قبل الأمير أبى جميل زيان بن مدافع . وكان قد علم بأمر الحملة التى تهدد الجزيرة منذ البداية فحشد جيشاً ضخماً ، رتبه فى الأماكن التى يخشى أن ينزل منها الجيش المهاجم ؛ وبلغ عدد الجند المسلمين يومئذ نحو اثنين وأربعين ألف مقاتل . ومع ذلك فقد استطاع النصارى النزول إلى الجزيرة فى منتصف الليل بسلام ، قبل أن يستطيع المسلمون ردهم ، واستولوا على الشواطىء . على أن هذه البداية الموفقة ، لم يعقبها ما كان منظوراً من النجاح ؛ ذلك أن النصارى كانوا يلقون فى كل خطوة يتقدمونها داخل الجزيرة صعاباً ويتكبدون خسائر . ويلقون فى كل مكان كميناً ومعارك يأس ومقاومة باسلة ؛ وقد سقط كثير من قادة الجيش الصليبى فى المعارك الدموية قبل أن يستطيع التقدم إلى عاصمة الجزيرة ويتاح له أن يحاصرها . ونهض عندئذ راهب دومينكى اسمه مجويل يلقى فى الجند مواعظ ملتهبة لكى يستبقى حماستهم وشغفهم بالقتال ، ويحفزهم إلى الجلد والاستبسال ؛ هذا إلى ما كان يذكى همهم من أمل الحصول على ثروات المدينة وكنوزها ؛ وهكذا سار الحصار فى طريقه بالرغم من بطئه وما كان يحيط به من الصعاب . ولكن حدث بعد أن سلم بعض زعماء الأرض السهلة ، وأبدت المدينة المحصورة رغبتها فى التسليم وعقد الصلح ، أن هب مسلمو الجزيرة جميعاً إلى المقاومة من جديد ؛ والظاهر أنهم كانوا يتوقعون نزول الأمطار ودخول الشتاء ؛ عندئذ لم يتردد خايم فى أن يهاجم المدينة للاستيلاء عليها ؛ وكان من المحتوم عليه يومئذ أن يجد مخرجاً موفقاً للحملة كلها ،

إذ كان من المتعذر عليه أن يبقى طويلاً فى جزيرة لا تتسع إلا لحرب صغيرة . ففى آخر يوم من سنة ١٢٢٩ م (صفر سنة ٦٢٧ هـ) قاد چايم جنوده لمهاجمة المدينة ، بعد أن شهدوا القداس وتزودوا للموت ، وهزم المسلمين الذين خرجوا للقائه ، وطاردهم ، واستولى على المدينة عنوة ، وغادرها المسلمون فارين ، وامتنع الوالى سعيد بن حكم بالقلعة أياماً أخر ، ولكنه لما لم ير أملاً فى الإنقاذ ، استسلم للظافر ، وبايعه بالطاعة على أداء الجزية[1] .

ومع ذلك فقد استطاع فريق كبير من المسلمين أن يظل محتفظاً باستقلاله ، معتصما بكهوف الجبال ومغاورها . واضطر چايم أن يعود إلى الجزيرة مرتين ، فى سنتى ١٢٣٢ و ١٢٣٣ ، وذلك لكى يحارب الزعماء الذين لم يقدموا طاعتهم ويطاردهم فى معاقلهم ، ولكى يحمى الجزيرة أيضاً من غزوات مسلمى تونس ، وقد حاولوا العمل على استردادها من النصارى ؛ وجد چايم فى إخضاع الجزيرة ، وكان قد أقر من قبل واليها السابق سعيد بن حكم حاكما عليها ، معتقداً أن فى ذلك ما يخفف وطأة سيادة النصارى على الشعب المغلوب ؛ ولكن المنازعات اضطرمت

(١) تختلف الرواية العربية فى أمر والى ميورقة وقت سقوطها فى يد النصارى فيقول ابن أبى سعيد إنه كان عندئذ أبو يحيى بن أبى عمران التينملى ؛ وقال المخزومى فى تاريخ ميورقة إن أميرها يومئذ كان محمد بن على بن موسى ، وقد وليها منذ سنة ست وستمائة ؛ وقد حقد عليه ملك النصارى بتكرر اعتدائه على السفن التابعة له فى مياه الجزائر الشرقية فجهز حملة لمحاربته ، واستولى على ميورقة فى يوم ١١ صفر سنة ٦٢٧ هـ ، وأسر الوالى وعذب ومات من العذاب بعد ذلك بيسير (راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٤) . وأما سعيد بن حكم ، فقد كان عندئذ والياً لجزيرة منورقة ثانية الجزائر الشرقية . فلما سقطت ميورقة فى يد النصارى ثار بجزيرته ، ثم تصالح مع النصارى على أداء الجزية (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٥) . وذكر ابن الأبار فى الحلة السيراء ، وهو معاصر لهذه الحوادث ، رواية أخرى مفادها أن سعيد بن حكم تغلب على ميورقة قبل سقوطها فى يد النصارى بقليل ، وعين من قبل واليها وهو يومئذ القاضى أبو عبد الله محمد أحمد بن هشام والياً لمنورقة ؛ ثم ثار بالقاضى وانتزع منه ميورقة وانفرد بحكمها منذ سنة ٦٣١ هـ ؛ ولما كان ابن الأبار يتفق مع باقى الروايات فى أن سقوط ميورقة فى يد النصارى كان فى صفر سنة ٦٢٧ هـ ، فمعنى ذلك أن القاضى كان واليها وقت سقوطها ، وأنه تصالح مع ملك النصارى ثم ثار به سعيد بن حكم وحل مكانه فى حكمها مع تعهده بأداء الجزية للنصارى (الحلة السيراء ص ٢٥٥) .

داخل الجزيرة بين المسلمين ، ووقع التفاهم بينهم وبين مسلمى إفريقية ؛ ولذلك رأى چايم حينما ذهب إلى الجزيرة للمرة الثالثة فى سنة ١٢٣٣م ألا يبقى المسلمين من ضروب الحرية سوى القليل ؛ وحصل البارونات والفرسان القطلونيون الذين ظهروا فى هـذه الحرب ، على معظم الأرض المفتوحة بطريق الإقطاع ، وكذلك خضع المسلمون فى جزيرة منورقة لسيادة النصارى ؛ وقدم زعماؤها طاعتهم لملك أراجون واعترفوا بسيادته . ولم يكن من الصعب على مطران طركونة أن يفتتح أصغر الجزائر الشرقية ، وهى جزيرة يابسة التى أقطعها الملك لكنيسته ، وقد استولى عليها فى سنة ١٢٣٥ م بمعاونة البارونات والفرسان القطلونيين ؛ ثم إن الأمير بيدرو البرتغالى — الذى عاش فيما يبدو مدى حين منفيا فى مراكش ، وجاء بعد ذلك إلى قطلونية وحصل على إمارة ولاية أورقلة (أورجل)[1] بزواجه من صاحبتها الكونتة — استولى على جزيرتى ميورقة ومنورقة من چايم بدلاً من ولايته .

وعلى أثر فتح الجزائر الشرقية ، وقع فتح أهم ، هو فتح بلنسية . وكان السيد أبو عبد الله محمد ، الذى يسميه النصارى « زيت أبو زيت »[2] قد فر منذ سنة ١٢٢٩ م ملتجئاً إلى ملك أراجون ، ليعاونه على محاربة مغتصب أرضه أبى جميل زيان ، فوعده الملك بتحقيق مطالبه وعقد معه حلفا بذلك ؛ وتعهد السيد من جانبه بأن ينزل إلى أراجون عن ربع الأراضى التى يستردها ؛ وفى الوقت الذى شغل فيه چايم بفتح ميورقة ، أخذ السيد محمد بمعاونة الفرسان الأرجونيين ، ولا سيما بمعاونة بيدزو فرناندز دى أزاجرا ، وبلاسكو دى الوسون ، يشهر الحرب على خصمه ؛ ولكن السيد لم يوفق فى هذه الحرب ، إذ كان يعتمد على قوى قليلة ، وكان الدفاع عن الأراضى المغزوة قويا منيعاً .

(١) هى بالافرنجية Urgel ، وهى ولاية صغيرة تقع فى شمال غربى قطلونية فى سفح جبال البرنية .

(٢) وأصله بالعربية أبو زيد وهو كنية السيد .

بيد أنه لما انتهى جايم من إخضاع ميورقة فى سنة ١٢٣٣ م (٦٢٧ ﻫ) واشترك بنفسه فى الحرب ضد بلنسية ، أخذ التوفيق يحالف الغزاة . وأرغمت بُريّانة (١)، الواقعة على البحر ، بعد حصار دام شهرين ، على التسليم ، بالرغم من دفاعها المجيد ؛ وسقطت من بعدها عدة من الحصون ، وكذلك حصن بنيسكولا ، وكلها حصون أمامية لحصن بلنسية الكبير . وبذل الأمير أبو جميل زيان كل جهد مستطاع ليقف تقدم الأرجونيين ، بل حاول فوق ذلك أن يقوم بغزو أراضيهم ؛ وعقد فى هذا السبيل حلفا مع محمد بن هود ، الذى يسيطر على غرناطة ومرسية وجزء كبير من الأندلس ؛ وشجعه أمله فى أن يبادر ابن هود إلى نصرته بجيش ضخم ، على أن يسير لمحاصرة حصن شنتمرية ابن رزين (شنتمرية الشرق) وهو من أهم الحصون الأرجونية ؛ بيد أن التوفيق لم يحالفه ؛ واستطاعت الحامية النصرانيـة التى كان يقودها بيدرو فرنانديز دى أزاجرا بكثير من الشجاعة والجلد أن تحطم كل جهود زيان ، فاضطر بعد محاولات عقيمة أن يعود أدراجه إلى بلنسية .

واجتمعت عدة عوامل لتعاون ملك أراجون فى مشروعه لغزو بلنسية ؛ فقد استطاع فى مجلس النواب الذى عقد فى مونزون فى أكتوبر سنة ١٢٣٦ ، أن يخمد منازعات الأحزاب التى عادت إلى الظهور فى أرجون ، وأن يحقق حريات البلاد ، بحيث أتيح له أن يدعو جميع البارونات والفرسان الإقطاعيين وكذلك المدن إلى الانضمام إلى الجيش . وكذلك عمد البابا جريجورى التاسع إلى تأييد المشروع ، وأعلن فى جميع أمم الغرب النصرانية ، أن الحرب ضد بلنسية هى حرب صليبية ؛ وكان من أثر ذلك أن قدمت فيما بعد جموع من فرنسا وإنكلترا لتشترك فى هذه الحملة . وقرر جايم عزمه الأكيد على أن يفتتح بلنسية ، وأقسم ألا يعود إلى مملكته إذا لم يفز بفتحها ؛ وحذا حذو الملك كثير من البارونات والفرسان ، وكان لذلك وقع حسن فى الجيش كله .

---

(١) هى بالأفرنجية Burriana وهى ثغر صغير يقع شمال بلنسية .

وفى سنة ١٢٣٧ م زحف چايم على مملكة بلنسية ينذرها بالويل ، بجيش يقدره النصارى بألف من الفرسان وستين ألفا من المشاة ، وتقدره الرواية العربية بأكثر من ثمانين ألفا . وكان الأمير زيان فى حالة سيئة ، خصوصاً وأن حليفه محمد بن هود ، الذى كان يعتمد على عونه أيما اعتماد ، وكان عندئذ يدبر إمداده بأسطول وجيش ، قتل عندئذ فى ثغر المرية ، وغاض كل أمل فى الانتفاع بقوانه . وهنا حاول زيان أن يتقى العاصفة التى تنذره ، بأن يعرض تسليم جميع الحصون الواقعة بين طرطوشة ونهر الوادى الكبير ؛ ولكن چايم أراد أن يغتنم الفرصة السانحة بأكملها ورفض كل عرض من هذا القبيل .

وبذل فرسان زيان — وهم كثرة — كل ما استطاعوا ليحولوا دون تقدم الجيش النصرانى . واشتبكوا معه فى معارك مستمرة ؛ ومع ذلك فلم يكن من الميسور أن يردوا جيشاً يفيض حماسة للقتال فى سبيل دينه ، ويغريه أمل الحصول على غنائم عظيمة ؛ وهكذا سقطت جميع القلاع والحصون الواقعة حول بلنسية تباعاً ، وأحاط النصارى بالمدينة من البر والبحر ، وذلك فى السابع عشر من رمضان سنة ٦٣٥ هـ (مايو سنة ١٢٣٨ م) ومع ذلك فقد لبث أبو جميل زيان يؤمل النجدة ، وقد أرسل فى طلبها إلى الأندلسيين ، وكذلك إلى أقربائه بنى زيان فى إفريقية ؛ ولكن الأندلسيين كانت تشغلهم الحروب الأهلية ، ويهددهم نصارى قشتالة ، فلم يكن بوسعهم أن يلبوا النداء ؛ وأما بنو زيان فى إفريقية فقد جهزوا أسطولاً صغيراً ، وحاولوا النفاذ به إلى ثغر بلنسية ، ولكن حال دون بغيتهم الأسطول المحاصر ، والعواصف الشديدة ، فعادوا إلى إفريقية من حيث أتوا ، دون أن ينفعوا البلنسيين بشىء (١).

---

(١) راجع فى سقوط بلنسية ، نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ — ٥٨٠ وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ و١٨٣ ، وكان الأمير زيان حينما حاصر النصارى بلنسية وتوقع سوء المصير ، قد استعان بصاحب إفريقية (تونس) الأمير أبى زكريا بن أبى حفص ، وأوفد إليه كاتبه الشهير أبا عبد الله بن الأبار القضاعى صاحب كتاب التكملة (تكملة الصلة لابن بشكوال) ، وأعقاب الكتاب ، والحلة السيراء وغيرها ، سفيراً يرجوه العون والإمداد ، وأنشد ابن الأبار بهذه =

ولما طال الحصار واشتدت وطأته ، وبلغ الإعياء بالمسلمين مبلغه من المحجات المستمرة ، ويئس زيان من الانجاد ، اضطر أن يفاوض النصارى فى تسليم المدينة ؛ وعقدت معاهدة التسليم بين الفريقين فى الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٢٣٨ م (١٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ) ، وذلك بالرغم من سخط البارونات والفرسان ، إذ كان يحدوهم أمل الغنيمة والنهب . واشترط أن تسلم بلنسية إلى ملك أراجون ، على أن يؤمن جميع سكانها فى أنفسهم ، وأن تكفل لهم حرية الهجرة بجميع أموالهم إلى حيث شاءوا ، وأن من آثروا البقاء فى بلنسية منهم ؛ كفلت لهم الحرية فى مزاولة شعائرهم وشرائعهم وعاداتهم ، وألا يدفعوا من المكوس أكثر ما يدفع رعايا ملك النصارى الآخرون ؛ وأنه يجب فى ظرف عشرين يوماً أن تسلم إلى ملك أراجون جميع الحصون والمواقع الواقعة على ضفة نهر شقر اليسرى ؛ وفى نظير ذلك يمنح ملك أراجون إلى زيان ورعاياه المسلمين الهدنة لمدة سبعة أعوام . وفى اليوم المحدد دخل ملك أراجون ثغر بلنسية فى موكب فخم ؛ وفى الحال حول مسجدها

= المناسبة بين يدى السلطان أبى زكريا قصيدته الشهيرة التى تعتبر من غرر القصائد فى رثاء دولة الإسلام بالأندلس ، ومطلعها .

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا	إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست	فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها	فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا	للحادثات وأمسى جدها تعسا
فى كل شارقة إلمام بارقة	يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة أجحاف نائبة	تثنى الأمان حذارا والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم	إلا عقائلها المحجوبة الانسا
وفى بلنسية منها وقرطبة	ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسما	جذلان وارتحل الايمان مبتئسا
وصيرتها العوادى العائثات بها	يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

وهى طويلة وبها روائع من البيان المؤثر . وبادر الأمير أبو زكريا الحفصى إلى إغاثة أهل بلنسية ، وبعث إليهم فى سفنه بالجند والمؤن ، ولكن ذلك لم ينقذ بلنسية من قضائها المحتوم . ولما سقطت بلنسية رجع ابن الأبار بأهله إلى تونس واستقر بها ، ولابن الأبار رسالة بليغة مؤثرة فى رثاء بلنسية أوردها صاحب نفح الطيب (ج ٢ ص ٥٩٧ وما بعدها) . وفى روض القرطاس أن سقوط بلنسية فى يد النصارى كان فى سنة ٦٤٢ هـ ، وهو خطأ واضح (ص ١٨٣) .

الجامع على يد أسقف طركونه إلى كنيسة للنصارى ؛ وغادر المسلمون المدينة ، وهم زهاء خمسين ألف نفس فى نحو خمسة أيام ، وهاجروا إلى ما وراء نهر شقر ، لأنهم اعتقدوا أنهم أصبحوا غير آمنين فى ظل حكم النصارى ؛ هـذا إلى ما شهدوه من أن عدالة ملك النصارى وحدها كانت تحميهم من غضب فرسانه ؛ وقسمت منازل المدينة ومناطقها بين رجال الدين والبارونات والفرسان ، وأهل المدن التى اشتركت فى الفتح بنسبة ما اشتركت به الجند ؛ وكان أغلب الفرسان الذين أحرزوا الأملاك فى بلنسية ، وعددهم ثلاثمائة وثمانون من أهل قطلونية ؛ وكان هؤلاء أكثر ميلاً من أهل أراجون إلى البقاء فى تلك الأراضى البديعة الخصبة التى سميت بحق حديقة كبرى ؛ وقد أسندت إليهم بالأخص مهمة الحراسة والحرب ، ورتب منهم مائة فارس يبقون دائماً تحت السلاح ، ثم يستبدلون بغيرهم كل أربعة أشهر . ونظراً لكثرة النازحين من القطلونيين ، كانت القوانين واللوائح التى يسنها جايم لبلنسية تصدر باللغة القطلونية ، وهو ما كان يثير سخط الأراجونيين .

ورأى جايم أن عمله يكون ناقصاً إذا لم يتم الاستيلاء على مملكة بلنسية كلها ، وخصوصاً على المنطقة الواقعة على الضفة اليمنى لنهر شقر ، وعلى حصونها الهامة . كذلك كان جايم يود أن يسبق قشتالة التى أخذت فى الإغارة على أراضى مرسية ، قبل أن تستولى على هذه المنطقة . ولما كان الأمير زيان لا يزال قائماً بمحاربة معظم زعماء هذه النواحى ، فقد كان بوسع جايم فى البداية أن يقوم بحملاته وفتوحه ضد المسلمين دون أن ينتهك نصوص الهدنة التى عقدت بينه وبين زيان . وفى الوقت الذى كان فيه زيان يحاول فى جموع المسلمين التى هاجرت من بلنسية أن يعتاض عما فقده من مملكته بغزو أراضى مرسية ، والاستيلاء على بعضها بالفعل ، عبر فرسان الداوية والقديس يوحنا وكثير من الفرسان القطلونيين نهر شقر ، وتوغلوا فيما وراءه حتى ظاهر شاطبة ، وافتتحوا عدة من الحصون ، وأحرزوا على جموع المسلمين الكثيفة عدة انتصارات نسبت إلى المعاونة الإلهية أكثر ما نسبت إلى قوتهم وشجاعتهم ؛ ولم يمض قليل على ذلك حتى طرح جايم جانباً كل اعتبار يتعلق باحترام نصوص الهدنة ، وعمد إلى افتتاح باقى أراضى مملكة بلنسية بكل

ماوسع من عزم وقوة ؛ واحتج المسلمون وأميرهم زيان بشدة على هـذا الانتهاك وهذه الخيانة ، وقالوا إنهم لم يسلموا إليه بلنسية إلا مقابل عقد الهدنة لبضعة أعوام ، وكان أشق ما في هذه الغزوة الاستيلاء على حصن شاطبة المنيع بموقعه ، ولم يكن من الميسور أن يتقدم النصارى في فتوحهم دون الاستيلاء عليه . وكان النصارى قد حاصروا شاطبة عبثاً في سنة ١٢٤٠ م (٦٣٨ هـ) ، واضطر جايم أن يترك الحصار ، ومع ذلك فإنه لم ييأس ولم تفتر همته ، ولجأ إلى جميع الوسائل من الخديعة والإقناع والوعيد والعنف ليحقق بغيته بالاستيلاء على المدينة . وقد وفق بعد جهود طالت أربعة أعوام إلى أن يكسب حاكم شاطبة — وهو من أنصار الموحدين — بالوعود المغرية ؛ وكان قد حاول عبثا أن يحصل على معاونة القشتاليين ؛ واستولى جايم على شاطبة في سنة ١٢٤٤ م (٦٤١ هـ) ، وكان لذلك وقع أليم في نفس ملك قشتالة إذ كان يود أن يفتتح المدينة لنفسه ؛ واشترط أن يبقى المسلمون في شـاطبة في أملاكهم آمنين ، بل استمرت إحدى قصبات المدينة في قبضتهم زهاء عامين ، وحصل حاكمها لنفسه ولأنصاره على حصني مترزه ، وبلاّده .

وفي نحو هذا التاريخ — قبله أو بعده بقليل — استولى جايم على ثغر دانية ؛ وكان صاحبها الزعيم الباسل يحيي بن محمد عيسى أبو الحسين ، أحد أنصار الأمير المتوكل محمد بن هود ؛ وقد أبدى في الدفاع عن المدينة كثيراً من الشجاعة والبراعة ، ولـكنه اضطر أخيراً إلى التسليم ، بعد أن ضربها ملك أراجون من البر والبحر بالمنجنيقات ؛ ودخل جايم ثغر دانية في مستهل ذي الحجة سـنة ٦٤١ هـ (مايو سنة ١٢٤٤ م)

وكان المسلمون لا يزالون كثرة في هذه الأنحاء ، يثورون ضد النصارى كلما سنحت الفرصة ؛ ولهذا لم يهدأ بال جايم ، ولم يعتبر فتحه كاملا ، قبل أن يطرد جميع السكان المسلمين من المملـكة ، وقد تم ذلك في سنة ١٢٥٣ م (٦٥١ هـ) وتلقت مملـكة غرناطة جميع اللاجئين ، وزاد بذلك سكانها وقوتها ، وأسبغ فتح مملـكة بلنسية على جايم لقب « الفاتح » .

الفصل السابع

فتوح فرديناند الثالث فى جنوبى اسبانيا
ونهاية سلطان الموحدين فى الأندلس

بينما كان جايم ملك أراجون يغزو مملكة بلنسية ، كان فرديناند ملك قشتالة ينتهز فرصة اضطراب مسلمى الأندلس وتفرق كلمتهم ، وينتزع منهم مدنهم واحدة بعد أخرى ، حتى غدا سيد المنطقة كلها . وكان المتوكل محمد بن هود قد استطاع بعد موت سلطان الموحدين المأمون فى سنة ١٢٣٢ م (٦٢٩ هـ) أن يسيطر على معظم قواعد الأندلس ، وكان سلطانه يمتد من مالقة على المرية وغرناطة وقرطبة حتى مرسية ، بينما كان أبو عبد الله محمد بن الأحمر النصرى يسيطر على أرجونة ووادى آش وبياسة وجيان ، ويحكم بعض الأمراء الموحدين إشبيلية وما حولها من النواحى ؛ وكان جميع أولئك الأمراء المسلمين يحقد بعضهم على بعض ويحارب بعضهم بعضاً بشدة ومضاء ، وكان ذلك مما يسهل مهمة محاربتهم على عدو خارجى مثل فرديناند يملك قوات ضخمة ، ويمكنه بانتهاز هذه الظروف الملائمة من أن يسير من فتح إلى فتح .

واستطاع فرديناند فى أعوام قليلة ، بصداقته ومحالفته لهذا الأمير طوراً وخصومته لذاك طوراً آخر ، أن يقوم بفتوح هامة فى الأندلس ، وأن يستولى على عدد كبيرمن الحصون الواقعة على الحدود ، وأن يعيث فى البسائط أعنا عيث ، وأن يقتل ويأسر ألوفا من السكان : أجل كان النصارى الاسبان كلما أمنوا انتقام

خصومهم ، ازدادوا قسوة وعنفاً ، ولم يكن الشيوخ والنساء ، بل الأطفال بمنجاة من سفكهم .

وما كاد فرديناند يوطد عرشه فى ليون ، ويخضع الأحزاب الخصيمة لصولته حتى عمد إلى إشهار الحرب على المسلمين بكل ما وسع من قوة ؛ وسير أخاه الانفانت ألفونسو ، والقائد الشجاع الفاريبريز على رأس جيش إلى منطقة قرطبة ، فاغترا بما أحرزا هنالك من نجاح أيما غرور ، حتى أنهما تقدما إلى إشبيلية ، ثم تجاوزاها إلى فحص شريش على نهر وادى لكة (الجوادليت) ، وهو المكان الذى استطاع طارق أن يقضى فيه على مملكة القوط ، فى الموقعة التى نشبت بينه وبين الملك ردريك (لذريق) . وساد الروع الذى أثاره النصارى بعنفهم وقسوتهم جميع أرجاء الأندلس ، واشتد سخط الشعب على أولئك الأمراء الذين شغلوا بالنضال حول السلطة ، وتركوا البلاد لأعداء الدين يعمنون فيها نهباً وعيثاً دون أن يردعهم رادع ؛ ورأى المتوكل محمد بن هود أن ينزل على صوت الشعب أخيراً وأن يضم بذلك مؤازرته ، فترك الحرب التى كان يخوضها ضد ابن الأحمر ، وأذاع نداء عاما فى الأندلس كلها إلى حرب الجهاد ضد النصارى ؛ وحشدت رغبة الانتقام والحماسة الدينية حول ابن هود جموعا كبيرة ، ووفد من إفريقية ذاتها كثير من المسلمين يدفعهم حب الاستشهاد ؛ وخرج المتوكل على رأس جيش ضخم من المشاة والفرسان ، والتقى النصارى فى فحص شريش على ضفاف وادى لكة حيث كانوا يحرسون غنائمهم وأسراهم ودوابهم ؛ وكان عددهم قليلا لا يعدو ألفاً وخمسمائة مقاتل . وكان من الواضح أنه لا مفر لهم من الهلاك . ذلك أن جيش المسلمين كان من الكثرة بحيث استطاع أن يطوق النصارى تطويقاً تاما ؛ ولكن النصارى لم يسعهم إزاء هذا المأزق السيء إلا أن يجمعوا أمرهم ، وذكر قائدهم الفاريبريز ما أبداه طارق فى نفس المكان من بطولة ، وما أحرزه فى موقعة شريش بجنده القليل من النصر على جيش ضخم ، وحث جنده بنفس الكلمات على أن يخوضوا معركة الموت ؛ وبعد أن أمر بقتل الأسرى المسلمين وعددهم خمسمائة حتى لا تشغله

حراستهم أثناء المركة ، خاطب القشتاليين بقوله : « البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، ولا نجاة لكم إلا بعون الله ، فهيا بنا نفتدى الموت غالياً » . وبعد أن تضرعوا إلى الله والقديس ياقب ، واعترفوا وتلقوا الغفران ، احتشدوا عند بزوغ الفجر فى صفوف متراصة ، وقاد المقدمة الفار ييريز ، وقاد البقية الانفانت ألفونسو ، ووثبوا إلى الهجوم من الجانبين بقوة وعزم ، تحت صوت الأبواق ، وقرع الطبول ، ونفخ القرون ، وصيحة الحرب المروعة يلقيها الجند . وسرعان ما التف الفرسان المسلمون بكثرة حول النصارى من كل صوب ، ولاح هلاكهم محققا ، ولكن القشتاليين واجهوا حراب الأعداء بصفوف متراصة لا تخترق ، وردوا الفرسان المسلمين على أعقابهم ، وشقوا طريقهم إلى صفوف المشاة التى اختل نظامها من جراء ارتداد الفرسان ، وسحقوا كل معارضة فى طريقهم . وهكذا استطاع النصارى بالرغم من خسارتهم الفادحة أن يفروا من الهلاك . ومع أن المتوكل سير جنده لمطاردتهم ، فإنه لم يستطع أن يلحق بهم كبير أذى . ولاح هذا النصر للنصارى كأنه مفاجأة مدهشة ، حتى أنهم نسبوه إلى معونة القديس ياقب ، وزعموا أن القديس ياقب ظهر أثناء المعركة على فرس أبيض ، وكان يقاتل المسلمين ويلقى الرعب فى قلوبهم ، ويلجئهم إلى الفرار . وزعم النصارى فوق ذلك لكى يزيدوا من روعة هذا النصر ، أنهم لم يفقدوا فى هذه الموقعة الدموية سوى رجل واحد ، وأن هذا الرجل قد عاقبه الله بالموت لأنه لم يتصاف قبيل المعركة مع خصومه كما فعل الباقون . وتتفق الروايات النصرانية والإسلامية على أن هذه الموقعة قد حدثت فى سنة ١٢٣٣ م (نهاية سنة ٦٣٠ هـ) .

وفى العام التالى ، حينما حل وقت افتتاح الغزو ، سارت عدة فرق من الجند القشتاليين إلى الأندلس غازية ؛ فأحرزت كلها قسطاً من النجاح . وكان فرسان الجماعات الدينية قد افتتحوا فى أوائل العام بقيادة آدم أسقف بلازنسيا ، حصون تروإله ، ومجسيله ، ومدلين ، والهانجه . وافتتح فرسان القديس ياقب حصن منطيل . وفى الصيف خرج الملك فرديناند نفسه فى قواته ، وطوق مدينة أبده بآلات

الحصار حتى سلمت ودخلها القشتاليون فى سبتمبر سنة ١٢٣٤م (٦٣١هـ)، بعد أن سمح لحاميتها الإسلامية بالانسحاب .

وتلا الاستيلاء على أبده فتح أهم ، هو فتح قرطبة . وكان المتوكل بن هود ، حينما سقطت أبده يسير إلى غرناطة بجيش ضخم لمحاربة ابن الأحمر ، ففى تلك الآونة سار قسم من الجيش النصرانى الذى حاصر أبده مع قوات أخرى إلى منطقة أندوجار ، وعاثوا فى تلك الناحية ، وأسروا كثيراً من المسلمين ؛ وعلموا من هؤلاء الأسرى أن قرطبة فى حالة سيئة ، وقد أهملت وسائل الدفاع عنها ؛ وتطوع من بينهم بعض الخونة لمعاونة النصارى على افتتاح هذه القاعدة الأندلسية الهامة ؛ وعمل النصارى بالمثل القائل : فى الجرأة نصف النجاح ، فسارت الفرقة الصغيرة من الجند النصارى تحت جنح الظلام فى هدوء حتى وصلت إلى قصبة قرطبة الأمامية المسماة بالشرقية (أو شرقية قرطبة) ، وذلك فى ٨ يناير سنة ١٢٣٦م ؛ وساعد هطل المطر على إخفاء حركاتهم .

ووضع النصارى ، بإرشاد الخونة من الأسرى ، السلالم على الجدران ، وصعد عليها عدة من الفرسان المغامرين دون أن يشعر بهم الحرس ؛ ولما اقتربوا من أحد الأبراج التى تأوى بعض الحراس — وكان منهم حارس قد اشتراه النصارى — رد النصارى عليهم نداءهم مخادعين بأنهم من سريات التفتيش ؛ وهكذا دهم النصارى الحراس المخلصين وقتلوهم بسرعة ، وهدموا الجدران دون أن يشعر بهم أحد من المسلمين ؛ واستولوا بذلك على أحد الأبراج المنيعة ، وعلى قسم من السور ، وعلى الباب المسمى باب مرطوس ، وقتلوا حراسه ، وفتحوه ، فدخل منه إلى المدينة زملاؤهم المتربصون فى الخارج ؛ وفاجأ النصارى أحياء الضاحية بالهجوم ، وجرى دم السكان المسلمين غزيرا .

وحينما لاح الصبح علم الناس بما وقع من مداهمة القصبة الشرقية ، وعندئذ بادر نفر من أشجع رجال الحامية إلى مهاجمة المعتدين فى الحال ، وأخرجوهم غير مرة من شوارع القصبة ، وألجأوهم إلى داخل البرج ، ولكنهم لم يستطيعوا

مهاجمة البرج نفسه ، وبقى النصارى بذلك مسيطرين على القصبة ، وجدوا فى تحصينها بجميع الوسائل ، بوضع المتاريس وإقامة العمد وغيرها .

ورأى النصارى أنهم لا يستطيعون بجمعهم القليل غزو مثل هذه المدينة العظيمة ، التى يؤلف سكانها الذكور وحدهم جيشاً بأسره ، فأرسلوا على عجل رسولا إلى قائد هذه المنطقة القار بيريز دى كاستروس ، وكذلك إلى الملك فرديناند نفسه ، راجين إرسال المدد السريع لإتمام فتح قرطبة .

وسار القار بيريز بجميع جند الحدود ممن استطاع أن يقتطعهم من حاميات الحصون ، وانضم إلى الجند الذين ملكوا القصبة الشرقية ، ولكن عددهم لم يكن مع ذلك كافياً للقيام بأعمال ذات شأن . أما فرديناند الذى كان يقيم عندئذ فى مملكة ليون ، فما كاد يقف على هذا النبأ ، حتى اهتم له أعظم اهتمام ، وسار فى الحال فى ثلاثين فارساً فقط ، وأصدر الأوامر بأن تتبعه جموع الفرسان بأسرع ما يستطاع ، وكذلك فرسان الجماعات الدينية والمدن أخذوا يجتمعون بسرعة وينضمون إلى الجيش . ولما كانت الأنهر قد فاضت بماء المطر الغزير ، وكان الوقت مبكراً لم تجر العادة فيه باشهار الحرب ، فقد عاق ذلك سير الجند ، واجتماع الصفوف ؛ ولهذا سار فرديناند فى قوة صغيرة إلى مدينة ردريك ، ثم اخترق ولاية استراماذوره إلى مدينة القلعة ، وبعث ينبيء النصارى المرابطين فى ضاحية قرطبة بمقدمه السريع ، متى اجتمع لديه الجند الذين أمر بحشدهم من كل صوب .

فأذكى ذلك من عزائم النصارى فى قرطبة إلى الذروة . أما أهل قرطبة أنفسهم فقد تولاهم الفزع والروع ؛ واتجه أملهم الوحيد فى النجاة إلى المتوكل محمد بن هود ؛ وأرسلوا إليه الرسل طالبين الانجاد بأسرع ما يستطاع . ولم يكن ابن هود يجهل أى خطر يتعرض له الإسلام فى الأندلس إذا سقط هذا الحصن المنيع فى يد النصارى ؛ ومن ثم فانه لم يتردد فى أن يحشد فى الحال جيشاً ضخما ، وأن يسير على عجل لإنجاد المدينة المهددة ؛ فلما وصل إلى استجة ، علم بأن النصارى بقيادة ملكهم فرديناند قد اقتربوا من قرطبة فى جيش ضخم ؛ وهنا ذكر المتوكل

ما أصابه من قبل فى معارك خاضها مع قوات نصرانية أقل عدداً ، ولم تحقق له الكثرة العددية أى تفوق أو مزية ، وخشى العاقبة إذا اشتبك دون تبصر فى معركة لم يتحقق فيها بعد من قوى قوة أعدائه ؛ ولما عقد المجلس الحربى كان المتوكل من رأى قادته الذين نصحوا بارسال الرسل للتحقق أولا من مبلغ قوى فرديناند ومواقعها الحقيقية ، ولم يوافق على رأى الذين نصحوا بالبحث عن العدو توا ومهاجمته على الأثر .

وكان فى جيش المسلمين فارس جليق يدعى لورنسيوس سوارز ، كان الملك فرديناند قد نفاه من المملكة بسبب أعماله المنيفة ، فخرج منها مع بعض أتباعه من الجند والتحق بخدمة المتوكل ؛ فاستدعاه المتوكل ، وعهد إليه بأن يأتى إليه فى ظرف ثلاثة أيام بمعلومات وثيقة عن جيش فرديناند . وكان سوارز يبحث قبل كل شىء عن صالحه ، فرأى الفرصة سانحة لكى يحصل على عفو الملك فرديناند ؛ وإذن العودة إلى وطنه ؛ فانسل إلى المعسكر النصرانى ، وتوصل إلى مقابلة الملك ، ونبأه بحقيقة مهمته ، وبأنه قد اعتزم مخادعة المسلمين ، وأنه سيقدم إليهم عن قوى النصارى وصفاً لا يجرأون معه على محاولة إنقاذ قرطبة ، وأنه يجب إحكاما لخديعة المسلمين ، وخشية من أن يحصلوا على معلومات أخرى ، أن يأمر الملك بمضاعفة نيران الحرس ليلا .

ولما علم المتوكل من سوارز إثر عوده أن الجيش النصرانى يتفوق بكثرته تفوقا كبيرا ، وأنه حسن الأهبة والتسليح ، ساوره التردد فى أن يشتبك معه فى موقعة ؛ وبينما هو فى تردده وحيرته فيما يفعل ، إذ وصلته أنباء من أبى جميل زيان أمير بلنسية حملته على أن يعتزم أمره ؛ ذلك أن زيان حينما شدد عليه چايم ملك أراجون الضغط أرسل يستغيث بأخيه فى الدين ، ويطالب إليه المدد السريع ، ويعده نظير ذلك بخضوعه وطاعته إليه . وهكذا لاح لابن هود أمل فى الاستيلاء على مملكة بلنسية ، وخشى فى الوقت نفسه أن يكون جنده ما زالوا متأثرين بذكريات معاركه السابقة مع النصارى ، وأن يكونوا غير أهل للاشتباك

مع جيش فرديناند فى معركة ظافرة ، فترك قرطبة إلى مصيرها ، وهو يعزى نفسه وعنها بأن أهل قرطبة ، وهم كثرة حاشدة ، قد يستطيعون رد النصارى ، وأنه حتى إذا سلمت المدينة ، فإنه من الميسور استردادها ، خصوصا وأنه يتعذر على النصارى أن يمكنوا سلطانهم من السكان المسلمين .

وكانت تضطرم فى تلك الأثناء حول قرطبة عدة معارك دموية شديدة ؛ وكان القرطبيون يقاتلون بمنتهى الشجاعة من أجل الوطن والحرية والحياة طالما خالجهم أمل الإنقاذ والغوث ، ويدافعون عن أنفسهم بمنتهى الشدة والبسالة فى الشوارع والميادين ، ويبدون ضروبا رائعة من الجلد والاحتمال ؛ ولكنهم لما علموا بأن المتوكل سوف يتركهم إلى مصيرهم ، وأنه سار بالفعل إلى نجدة أمير بلنسية ، خبت شجاعتهم ، وحل الخور واليأس لديهم مكان القوة والبسالة . وأما فرديناند ، فإنه بالعكس ، فضلا عن استقدام الجند من جميع الأنحاء بعد تحسن الجو ، أخذ يشدد فى حصار المدينة بكل ما وسع ، واستمر يبالغ فى التضييق عليها ، حتى اضطر أهلها إلى البدء فى مفاوضته من أجل التسليم ؛ بيد أنهم لم يحصلوا منه على أكثر من عهد بتأمين النفس والحرية ، ولم يسمح لهم بالاحتفاظ بشىء من أملاكهم وأموالهم ؛ وفى ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ الموافق ٢٩ يونيه سنة ١٢٣٦ م سقطت قرطبة فى يد النصارى بعد أن لبثت تحت حكم المسلمين خمسمائة وخمسة وعشرين عاما[1] .

وما كاد النصارى يستولون على المدينة حتى وضعوا صليبا فوق مسجدها الجامع ، الذى أقامه الخلفاء الأمويون بمنتهى البذخ والبهاء ، ورفعت راية ملك

---

(١) راجع فى حوادث سقوط قرطبة ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ و ١٨٣ ، ويسمى ابن خلدون فرديناند ملك قشتالة المستولى على قرطبة : « هرانده » (ص ١٨٣) مع أنه يسمى فرديناند عادة « بفردلند » (راجع ص ١٨٢) . وكذلك روض القرطاس ص ١٨٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٥ ، ويذكر المقرى هنا أن غرناطة سقطت فى يد النصارى فى ٢٣ شوال سنة ٦٣٦ هـ ، وهو تحريف ظاهر فيما يتعلق بالسنة . والمجمع عليه أنها سقطت فى سنة ٦٣٣ هـ .

قشتالة على أبراج « القصر » ، وانتظم موكب فى طليعته الكهنة المختلفون وفرسان الجماعات الدينية وجمهرة كبيرة من الفرسان ، ودخلوا المسجد الجامع وهم ينشدون أناشيد الحمد والشكر ؛ وفى الحال قام يوحنا أسقف أوسمه بتحويل المسجد إلى كنيسة نصرانية ، وأقام به القداس . ولما عثر فرديناند بالنواقيس التى انتزعها الحاجب المنصور فيما مضى من كنيسة القديس ياقب ضمن غنائمه ، وحملها الأسرى النصارى على أكتافهم إلى قرطبة ، أمر بأن تعاد بالمثل إلى مكانها الأصلى على أكتاف الأسرى المسلمين .

وغادر المسلمون المغلوبون قرطبة بقلوب محزونة ، وتفرقوا فى باقى مدن الأندلس ، واقتسم النصارى الأملاك والدور المهجورة ؛ ولما ذاع نبأ سقوط قرطبة ، خضع كثير من القلاع والحصون . وكان أهمها حصون : بياسة ، وأستجه ، والمدور ، ورتفيله ، وأشتبه .

وفى تلك الأثناء توفى المتوكل ، محمد بن هود ، فجأة ؛ فأثارت وفاته انقلابا كبيرا فى الأندلس ، إذ كان حتى وفاته أقوى الأمراء المسلمين فى جنوبى اسبانيا . وكان بعد أن ترك قرطبة إلى مصيرها قد سار إلى المرية معتزما أن ينقل جنده منها بالسفن كى يصل بسرعة إلى بلنسية ، وينجد زيان ضد الأرجونيين ؛ فاستقبله عبد الرحمن صاحب المرية فى قصره أعظم استقبال ، واحتفل لقدومه بإقامة المآدب والحفلات الشائقة . ولكنه لما آوى إلى غرفته للنوم ، انقض عليه مضيفه الخبيث الغادر ، وقتله خنقا ، وذلك فى ٢٧ جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ (سنة ١٢٣٧ م) . وفى صباح الغد ، أذيعت إشاعة مفادها أن المتوكل توفى بالصرع بسبب الإفراط فى السكر[١] .

(١) كان صاحب المرية يومئذ ، وهو الذى يسميه المؤلف بعبد الرحمن ، هو أبوعبد الله محمد بن عبد الله الأموى الرميمى وزير ابن هود ؛ وكان يدعوه ذا الوزارتين ؛ وقد ولاه حكم المرية . ويذكر لنا ابن خلدون أن ابن هود حينما قدم على وزيره فى المرية توفى فى الحمام ، بيد أنه يشير إلى رواية قتله واتهام وزيره بذلك (ج ٤ ص ١٦٩) . وأورد المقرى تفاصيل أخرى عن علاقة ابن هود بوزيره الرميمى ، وعن وفاته (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨١ و ٥٨٣) .

وقد أنفق المتوكل أيام حكمه كلها فى نضال مستمر ضد الاضطراب والثورة، وضد أطماع الزعماء المسلمين، وغزوات النصارى. ولم يكن من الميسور إزاء هذه الفوضى الشاملة والأخطار العديدة، أن توطد دعائم الحكم، وأن تجتمع له أسباب القوة. وكان المتوكل، وهو عقب بنى هود الذين كانت لهم من قبل دولة قوية فى سرقسطة، يرى آسفاً أن الإسلام فى جنوبى اسبانيا يقترب أيضاً من نهايته. وليس أدل على أهمية شخصه — كعامل فى جمع كلمة الأندلس — من أنه سرعان ما أذيع موته حتى تفرق الجيش الذى كان يقوده، وعبثاً حاول القادة أن يعيدوا الجند إلى الصفوف. وقد أشاد شاعر العصر أبو بكر محمد بن أحمد الصابونى بخلال ابن هود وشجاعته، فى قصائد غراء. واتُّهم المتوكل بأنه لم يكن قويا فى دينه، وأن ذلك كان سبب هلاكه.

وآل تراث معظم الولايات التى حكمها ابن هود إلى محمد بن نصر بن الأحمر، أمير جيان وأرجونه؛ ولم يقتصر الأمر على استيلائه على المرية على يد حاكمها الغادر عبد الرحمن، ولكنه استولى أيضا على غرناطة الحصن الهام، وقاعدة مملكة ابن هود، بدعوة من أهلها، وذلك فى رمضان سنة ٦٣٥ هـ (أبريل سنة ١٢٣٨ م)، وبها جعل مقر حكمه.

وسرعان ما اعترفت بطاعته أيضا مالقة وكثير غيرها من مدن الأندلس. أما إشبيلية وشريش ومدن الغرب (غربى الأندلس) فقد احتفظت باستقلالها أو انضوت تحت حكم الموحدين المحتضر.

وحكم فى باقى أراضى المتوكل — أى فى مرسية — فى البداية — أخوه على بن يوسف عضد الدولة، ونودى به أميراً عليها فى الرابع من محرم سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨م)، ولكن حكمه لم يطل أمده، إذ استولى على مملكته أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد الجذامى، وذلك فى الخامس عشر من رمضان من نفس العام، وأسر، ثم قطع رأسه بعد ذلك بأيام قلائل[1]. وعلى أثر ذلك اختلف الزعماء

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٥٠.

واضطرم القتال بينهم من أجل رياسة المدينة ، وسادتها الفوضى الشاملة[١] .

وفى الوقت الذى كان فيه چايم ملك أراجون يتابع فتوحاته فى شرق اسبانيا بعد أن انتزع قلعة بلنسية من أبى جميل زيان ، وقضى على إمارته فى ولاية بلنسية ، كان محمد بن الأحمر النصرى يزداد فى جنوبى اسبانيا قوة وسلطانا ، وكان ينضوى تحت لوائه كل مسلم يعنيه إنقاذ الإسلام ؛ وكان مولده بحصن أرجونه Arjuna فى أسرة قديمة عريقة فى النبل ، وكان قد ترك فلاحة الأرض (إذ كان كالرومان القدماء يفلح ضيعته بنفسه) ، وهرع إلى ميدان الحرب أيام خليفة الموحدين المأمون ، حينما ساد الاضطراب جميع أرجاء الأندلس ، وسقطت فريسة لغزوات النصارى ؛ وأذكت محاسن الصدف ، وعلامات ونبوءات عرضت له بإحراز السلطان ، شجاعته فى المعارك إلى الذروة ؛ ولما تفاقمت الخطوب على الأندلس من جراء غزوات النصارى المنظمة ، منحه الزعماء المتطلعون إلى العون لقاء شجاعته الرياسة أولاً فى أرجونة ، وهى موطن أسرته بنى نصر ، ثم على المدن المجاورة لها ؛ فوطد فيها رياسته بالرغم من معارضة ابن هود ، وبسطها من بعد وفاته على جزء كبير من جنوبى اسبانيا .

وأخذ محمد بن الأحمر يحشد من حوله جميع المسلمين الذين غادروا البلاد التى افتتحها النصارى ، وسرعان ما غدا عضد الإسلام الوحيد ، وأصبح كل من لم يؤيده ويلتف حوله يعتبر خارجا على الإسلام ؛ ثم دعا الشعب بأسره إلى محاربة النصارى ، وبعد أن حشد جموعا كبيرة من الفرسان ، وكذلك جيشا ضخما من المشاة ، سار إلى أرض النصارى ، وعسكر أمام قلعة مرطوس ، وكاد يتغلب عليها لولا أن قدم لإنجادها جيش من النصارى ، فرفع ابن الأحمر الحصار عنها ، ولكنه لم يحجم عن الاشتباك مع النصارى فى معركة أحرز النصر فيها ،

---

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ و ١٧٠ ؛ وفى روايته أن الذى ولى مرسية بعد وفاة ابن هود ولده أبو بكر محمد الملقب الواثق ؛ وتناوبها من بعده عدة من الزعماء . راجع أيضا نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨١ .

(سنة ١٢٣٨ م — ٦٣٦ هـ) ، وبذلك أعاد الثقة إلى نفوس جنده فى قوة المسلمين .

واستطاع فرديناند بعد غزوات عديدة ، ومهاجمات لبعض المدن الصغرى ، أن يضم بالصلح والتراضي ولاية بأسرها ، هى مملكة مرسية . وكانت مرسية ، منذ مقتل محمد بن هود ، قد اقتسمها رهط من الزعماء ، وأصبح لكل مدينة ، بل وكل قلعة ، حاكم مستقل ، ينحصر نشاطه فى أن ينازع جاره ملكية مدينته أو منطقته ، أو أن يدفع عدوانه عن أملاكه . وهكذا شملت الحرب الأهلية جميع الولاية ، وعانى الشعب أروع الآلام من عسف الزعماء الطامعين المتطلعين إلى الحكم والسلطان . ولما بدا أن أمير غرناطة محمد بن الأحمر يرى إلى أن ينتهز فرصة تفرق الزعماء ، والاستيلاء على بلنسية ، وهو ما كان يرجوه الشعب لكى يتخلص من نير الطغاة الأصاغر ، آثر أولئك الزعماء أن يحتفظوا بسلطانهم كأتباع لملك قشتالة ، على أن ينزلوا عنه لابن الأحمر ، أو أن يتحدوا على مقاومته ؛ ولما نمى إليهم أن ألفونسو أكبر أولاد الملك فرديناند ، قدم إلى حدود الولاية على رأس قواته ، أرسل كل منهم إليه رسولا للمفاوضة وتقرير الشروط التى يرى أن يخضع لملك قشتالة وفقاً لها . وفى « الكراز » وقعت الشروط التى يخضع بمقتضاها محمد بن على بن هود والى مرسية ، وحكام لقنت ، وأريوله ، والحامه ، ولبيط ، وعقيقه ، وجنجاله ، وخلاصتها أن يبقى هؤلاء متمتعين بحكم مدنهم وموارد دخلهم ، وعليهم فى مقابل ذلك أن يدينوا بالطاعة لملك قشتالة باعتباره سيدهم الأعلى ، وأن يؤدوا له الجزية ، وأن يتعهدوا بأخذ جنود من النصارى فى القلاع والحصون . ولكن والى لورقة ، أبا بكر عزيز بن عبد الملك بن خطاب أبى أن يدخل فى هذا الاتفاق ، إذ كان يدعى السلطان على مملكة مرسية بأسرها باعتباره خلفاً للمتوكل محمد بن هود ، بيد أنه لم يستطع أن يحتفظ إلا بثلاث مدن هى لورقة ومولة وقرطاجنة ، وكان ينيب عنه حاكما فى كل من موله وقرطاجنة . كذلك كانت مدينتا شاطبة ودانية اللتان تبعدان عن أملاكه تعترفان بسلطانه ، وقد ولى عليهما أبا الحسين يحيى بن أحمد حاكما من قبله .

وبعد أن تلقى ألفونسو طاعة زعماء « الكراز » وهى مدينة تقع على مقربة من منابع نهرى شقورة والوادى الكبير ، وبذلك كفل لهم الحماية ضد أى اعتداء ، سار فى عدد كبير من الفرسان القشتاليين والزعماء الخاضعين إلى مدينة مرسية ، فدخلها بين مظاهر الاحتفال الفخمة (سنة ١٢٤٣ م — ٦٤١ ﻫ) ، ورتب فى المراكز الهامة ، فى الأراضى الجديدة ، جنوداً كامية تسهر على ولاء المسلمين . وحاول الفونسو عند عودته أن يرغم والى لورقة الذى أصر على رفض الخضوع على التسليم بالسيف ، واستطاع أن يفتتح قلعة مولة الواقعة على نهر شقوره (Segura) . ولكنه أخفق فى افتتاح قلعتى لورقة وقرطاجنة ، واكتفى بالعيث فى أرضهما (سنة ١٢٤٤ م) .

وهنا استطاع فرديناند لأول مرة أن يحارب أمير غرناطة بنجاح . فأرسل ولده ألفونسو مرة أخرى بجيش لافتتاح لورقة وقرطاجنة ، ومن ثم لتهديد غرناطة من هذه الناحية ، وسار بنفسه بجيش آخر من أندوجار إلى جيان ، وخرب هذه المنطقة ، وأرسل قسما من جيشه بقيادة نونيو جونزالز دى لارا إلى قلعه أرجونة لمحاصرتها . ولما كانت أرجونة غير مستعدة لحصار طويل ولم تزود بالمؤن (خصوصاً وقد كان القحط يعصف يومئذ بجنوبى اسبانيا) فقد فتحت أبوابها للنصارى ، وغادرها سكانها الذين أمنوا فى أنفسهم ، إلى أماكن أخرى من أملاك أمير غرناطة ؛ وشجع النصارى هذا النجاح فتابعوا فتوحهم واستولوا على حصون قسطيلة ، وبجالجر ، ومنتجر ، وكارتجز ؛ وفى ربيع نفس هذا العام (١٢٤٤ م) زحفوا على وادى قرطبة ، ولم يلق الفرسان القشتاليون مقاومة تذكر ، حتى وصلوا إلى ظاهر غرناطة ذاتها ، وبدأوا حصارها فى الحال ، ولكن تقدم الوقت وقيام المحصورين بهجمات عنيفة كانت تكبد القشتاليين خسائر فادحة ، وزحفت قوة إسلامية على مرطوس وراء خطوط القشتاليين ، كل هذه حملت النصارى على رفع الحصار ، والارتداد إلى أراضيهم ، وكانت هجمات المسلمين تتوالى عليهم حين العودة . وفى تلك الأثناء خرجت مرسية من قبضة النصارى مرة أخرى ؛

ذلك أن بغض المسلمين لزعمائهم الذين يعتمدون فى تمكين سلطانهم على الجند القشتاليين كان يشتد يوماً عن يوم ؛ فلما سار أبو جميل زيان عقب فقده لبلنسية واستيلاء جايم ملك أراجون عليها ، إلى مدينة مرسية ، وغزا أراضيها بقوة لا بأس بها ، هب المسلمون لتحطيم النير الذى فرض عليهم ، ونادت شاطبة ودانية ، ومدن أخرى بانضوائها تحت لواء أمير بلنسية السابق . وسار عزيز بن عبد الملك والى لورقة فى قواته لمحاربته ، ولكنه هزم وقتل فى معركة دامية (٢٦ رمضان سنة ٦٤٠ هـ — ١٢٤٢ م)[١] ، ومكن هذا النصر زيان من الاستيلاء على لورقة وقرطاجنة وعدة أماكن أخرى ؛ ولم يستطع القشتاليون مقاومته ، فطردوا من كل مكان . ولما كان ملك أراجون يسيّر قواته أثناء ذلك لافتتاح شاطبة ودانية وكلتاهما تقع فى أراضى مرسية ، وتعتبرها قشتالة واقعتين تحت سيادتها ، فقد كان تطور الحوادث على هذا النحو نذيراً باضطرام الخلاف بين المملكتين على حقوق الفتح فى أراضى مرسية .

وفى العام التالى ، أعنى سنة ١٢٤٥م (٦٤٣ هـ) ، اعتزم ابن الأحمر أمير غرناطة أن يشحن قلعة جيان بالمؤن والسلاح ، إذ كان يتوقع أن يهاجم ملك قشتالة هذه القلعة الواقعة على الحدود ، فأرسل إليها قافلة من ألف وستمائة من دواب الحمل محملة بالمؤن والذخائر ، وسارت من غرناطة إلى جيان فى حراسة خمسمائة فارس ، فلما علمت قوات النصارى على الحدود بأمر هذه القافلة ، سارت إلى منطقة جيان مما يلى غرناطة ، وتربصت لمهاجمتها والاستيلاء عليها . ولكن المسلمين علموا بهذا الكمين فى الوقت المناسب ، وعادت القافلة إلى غرناطة . وأدرك النصارى من ذلك أن جيان ليست مزودة بالمؤن الكافية ، فوجهوا عنايتهم لافتتاحها ، وبدأوا حصارها بتخريب جميع المناطق المحيطة بها ، حتى تصبح وقد غاض أملها فى تلقى أى قسط من المؤن ، ومع أن النصارى كانوا متفوقين فى العدد ، فقد

---

(١) راجع فى ترجمة عزيز بن عبد الملك الحلة السيراء ص ٢٤٩ وما بعدها ، وفى رواية ابن الأبار أن وفاته كانت فى جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ :

دافعت الحامية عن المدينة ببسالة نادرة ؛ بيد أنه لما كانت جميع القلاع والحصون القريبة منها قد وقعت فى يد النصارى ، ولم يوفق ابن الأحمر حينما سار فى قواته من غرناطة بسرعة لإنجاد جيان بل هزمه النصارى ، فقد كان من الواضح أنه يتعذر على هذه القلعة التى تنقصها جميع وسائل الدفاع ، أن تصبر طويلا على هجمات القشتاليين ، وأمر فرديناند — الذى أقسم بالاستيلاء على المدينة — قواته بمتابعة الحصار بالرغم من قسوة الشتاء وهطل الأمطار ، خلافاً لما درج عليه النصارى فى غزواتهم .

ولما رأى أمير غرناطة عقم المضى فى المقاومة ، وأدرك أن فرديناند لن يقف فى فتوحه عند الاستيلاء على جيان ، اعتزم أن يقوم بخطوة حاسمة لتأمين أراضيه من عيث النصارى ، بل وحمايتها بمعاونتهم ؛ فسار إلى لقاء فرديناند ، فى معسكره أمام جيان واثقاً كل الثقة فى شهامته ، وعرفه بشخصه وبالغرض الذى أتى من أجله ؛ وقدم طاعته إلى ملك قشتالة باعتباره سيده الأعلى ، وصرح بأنه يحكم كل أراضيه من قبله على أداء الجزية ، ثم قبل يده إيذاناً بالخضوع له ؛ ودهش الملك فرديناند لما رأى من ثقة عدوه بالأمس ومن عروضه ، وأبت عليه شهامته أن يخيب ظن الأمير ؛ وفى الحال نهض لمعانقة ابن الأحمر ، وسماه صديقه وحليفه وصرح بأنه لن يعتدى على شىء من أراضيه ؛ وهكذا عقدت بين الأميرين معاهدة يحتفظ فيها أمير غرناطة بكل أراضيه ومدنه ، ويتعهد بأن يؤدى إليه جزية سنوية قدرها خمسون ألف مثقال من الذهب ، وأن يعاونه كلما طلب بعدد معين من الفرسان لمحاربة أعداء قشتالة ، سواء أكانوا من النصارى أو من المسلمين ؛ وتعهد أمير غرناطة فوق ذلك بأن يشهد اجتماع المجلس النيابى (الكورتيس) أسوة بباقى الأمراء التابعين للعرش ، وأن يشهد كل حفلات البلاط الرسمية ؛ وسلمت قلعة جيان إلى فرديناند رهينة بصدق التعاقد ، ودخلها على أثر عود ابن الأحمر إلى غرناطة ، وذلك فى أبريل سنة ١٢٤٦ م (نهاية سنة ٦٤٣ هـ) ، بعد أن حاصرها عشرة أشهر ، وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، ورتبت بها حامية قشتالية كبيرة.

وكان انتهاء الحرب ضد غرناطة بهذه السرعة الفجائية ، فى نفس الوقت الذى تفتتح فيه الغزوات ، مشجعاً لفرديناند على أن يضطلع بمشروع ضخم آخر . ذلك أن أمير غرناطة قد أصبح صديقاً لملك قشتالة يدين له بالولاء ، وعليه بوصفه تابعاً له أن يعاونه بقواته فى كل حرب يخوضها ؛ وكان فرديناند قد اضطر أن يرجئ افتتاح مرسية — حيث تضاءلت قوى الأحزاب من جراء المعارك المستمرة ، واعترف عدة من الزعماء بسيادة فرديناند — خوفاً من الاصطدام بأراجون ؛ وكان الخلاف على حق افتتاح شاطبة ودانية على وشك الوقوع بالفعل ؛ ولذا كان من الطبيعى أن يوجه فرديناند جيوشه المظفرة إلى ناحية أخرى يستطيع أن يحقق فيها فتوحا أهم ، لا ينازعه فى شأنها أحد من جيرانه النصارى ، تلك هى فياض الأندلس المباركة ، ومدينة إشبيلية الغنية ؛ وقلعتا قرمونة وقسنطينة المنيعتان ، وهى التى يحقق له افتتاحها امتلاك نهر الوادى الكبير كله ، ويقضى على البقية الباقية من سلطان الموحدين فى اسبانيا .

فلم تمض ثمانية أشهر على الاستيلاء على جيان ، حتى كان فرديناند قد رتب فيها كل شىء ؛ ثم خرج فى جيشه ، وبعد أن طلب إلى تابعه الجديد أمير غرناطة أن يسير معه إلى ميدان الحرب فى فرسانه وفقاً لشروط المعاهدة ، انقض على كورة قرمونة[1] ، وعاث فيها أيما عيث وانتسف فيها كل شىء ، وهو تمهيد لحصار المدن الكبيرة حتى يتعذر تموينها لبضعة أعوام . وفى الموعد المحدد حشد أمير غرناطة خمسمائة فارس حسنى الأهبة إلى جانب الجيش القشتالى ؛ وكان أول مكان حاصره النصارى قلعة وديره ؛ ولم يثبت المسلمون — لضعفهم — طويلا ، فبعثوا إلى محمد بن الأحمر وسلموا إليه المدينة ، مؤملين أن يجدوا منه كمسلمين معاملة أفضل ؛ وكاد ذلك يعكر صفو العلائق بينه وبين فرديناند ، ولكن كليهما كان عاقلا مستعدا لتضحية الأقل لاغتنام الأكثر ؛ فسلم ابن الأحمر المدينة إلى فرديناند بدوره فى البداية إلى حليفه كفتح أول . وسهل امتلاك هذه القاعدة الواقعة بجوار

(١) وفى ياقوت قرمونية .

إشبيلية انتساف أراضيها باستمرار ، والتوسع فى تخريب بسائطها حتى شريش وقرمونة ، وكان يحاصرها يومئذ فرسان القديس ياقب وقلمة رباح ؛ وحصل فرديناند على إذن البابا بأخذ أعشار الكنائس ليستعين بها على نفقات الحرب الكبيرة .

وكان من الواجب قبل أن يتمكن النصارى من محاصرة إشبيلية بنجاح أن يتغلبوا على ما حولها ، وأن يستعينوا أيضاً بأسطول يقطع عنها الميرة من جهة البحر . ولم يستطع النصارى تحقيق الشطر الأول إلا فى بداية سنة ١٢٤٧م (٦٤٤هـ) حيث انتسفوا الحدائق والكروم وأعواد الشجر ، وجميع المحاصيل ، فى كل مكان أبدى السكان فيه معارضة ؛ على أن معظم المسلمين آثروا التسليم والانضواء تحت لواء النصارى كرعايا يؤدون الجزية ، وآثرت قرمونه وقسنطينة ولوره ، والقوله ، وهى جميعاً حصون منيعة كان بوسعها أن تحتمل الحصار طويلا ، — بعد أن لبثت أشهراً تنتظر عبثاً ، وعرض عليها النصارى عقد الهدنة — أن تبادر بالخضوع ، فتغنم عطف الظافر ، على أن تتعرض بالمقاومة الشديدة لقسوته ، كما حدث لقلمة قنطلانه التى اقتحمها النصارى ، وقتلوا كل من فيها ؛ واستطاع ابن الأحمر أمير غرناطة أن يحمل — بالنصح والإقناع — عدة حصون على التسليم ؛ وأن يحصل من الملك فرديناند على وعد ، بألا يستعمل العنف حيث لا ضرورة لاستعماله ، وأن يقدم النصارى شروطهم إلى كل مدينة وقلمة قبل أن يبدأوا حصارها . وبذلك استطاع ابن الأحمر أن يحقن كثيراً من الدماء ، واستولى النصارى بمعاونته على عدة من الحصون ، منها جويلانه ، وقلمة ريه ، وجرينة ، وغيرها .

وفى أوائل سنة ١٢٤٧م ، أنشأ النصارى فى ثغر سنتاندر برياسة رعوند بونفاشيوس ، وهو سيد من برغش ، أسطولا من ثلاث عشرة سفينة شراعية ، وسار هذا الأسطول ورسا عند مصب نهر الوادى الكبير ؛ واجتمعت فى الوقت نفسه جميع القوات التى طلب حشدها ؛ وعندئذ شرع النصارى فى تطويق

إشبيلية ؛ وكان أهل إشبيلية قد اختاروا لرياستهم يومئذ أميراً من الموحدين هو السيد أبو عبد الله ، وعهدوا إليه بالدفاع عن المدينة ، ودعا السيد أبو عبد الله ابن أخيه أبا الحسن بن أبى على حاكم قرمونة لمعاونته فى تنظيم الدفاع ، فبادر إلى تلبية دعوته ، لما رأى من أن إشبيلية قد غدت مقصد فرديناند ؛ وتلقت المدينة من إفريقية بعض المعاونة ؛ وأدرك السيدان أهمية المحافظة على طريق البحر وبقائه مفتوحاً ، لكى يتسنى لإشبيلية تلقى المؤن باستمرار ، فاستقدما من الموحدين فى إفريقية أسطولا صغيراً رسا فى مصب الوادى الكبير عن ثغر شنت لقر ليمنع سير الأسطول القشتالى فى النهر .

ولكن الأسطول القشتالى استطاع بعد عدة معارك شديدة أن يحرز النصر ، وأن يغرق أو يعطل عدداً من سفن المسلمين ، وأن يأسر السفن الباقية ، وعمل الجند القشتاليون من جانبهم على إخلاء الشاطئ من الأعداء ؛ وهكذا استطاعت سفن النصارى أن تمخر عباب النهر . ومنذ ٢٠ أغسطس سنة ١٢٤٧م (٦٤٤هـ) كانت إشبيلية قد طوقت من كل مكان من البر والبحر ، واستمر الحصار طوال العام بأسره ؛ وجمع النصارى كل ما يحتاجون إليه ، وأقاموا الخيام فى كل ناحية ، حتى بدا كأن مدينة أخرى قد أقيمت إلى جانب المدينة المحصورة .

وبعد أن لبثت إشبيلية محصورة طول الشتاء ، وقد قطع عنها كل مدد من المؤن ، وكذلك ردت الأمداد التى حاول المسلمون فى غربى الأندلس إرسالها بقيادة محمد والى لبلة ، حشد فرديناند فى أوائل سنة ١٢٤٨ م قوات أضخم ، للاسراع فى افتتاح هذه القاعدة الهامة من قواعد الأندلس ؛ وتنافس الكبراء والفرسان الأسبان فى المساهمة فى هذا الفتح . وفى شهر مارس قدم إلى المعسكر النصرانى ولد الملك وولى عهده ألفونسو فى قوة مختارة من الجند القشتاليين ، وفى صحبته ألفونسو ولى عهد أراجون ، وبيدرو ولى عهد البرتغال ، وصاحب (كونت) أورقلة ، ومعهم جمهرة من الفرسان الأرجونيين والقطلونيين والبرتغاليين ثم وفد من بعدهم لوبيز دى هارو ومعه قوة من جند بسكونية وقشتالة القديمة ؛

وقدم يوحنا مطران شنت ياقب فى قوة مختارة من جند جليقية ؛ كما قدمت قوات من مدينة سالم ومدلين وقورية وغيرها ؛ وقدم معظم الأساقفة وكثير من الأحبار والرهبان من جمعيات القديس دومينيك والقديس فرنسيس والقديس بندكت ، وأخذوا يلهبون بمواعظهم حماسة الجند ؛ وقدم محمد بن الأحمر أمير غرناطة ، — وفق تعهده — بقوة من الفرسان ، وعسكر أمام برج الفرج ، وأدى بحكمته وشجاعته ، وما قدمه من فرسان حسنى الأهبة : لملك قشتالة خدمات جليلة ؛ وإذا صحت الروايات الإسلامية ، فان إشبيلية لم تقطع عن تلقى المؤن من طريق البحر ، وذلك بالرغم من أنه قد نشبت عند مصب الوادى الكبير معارك دموية شديدة ؛ وأخيراً قرر النصارى وفقاً لنصح ابن الأحمر أن يطوقوا المدينة تطويقاً تاما ، وكانوا قد حاصروها مدى ثمانية عشر شهراً ؛ وفى الثالث من شهر مايو سنة ١٢٤٨م نزلوا عند نصح أمير غرناطة ، ونصح أمير البحر ريموند ، وأحرقوا سفن المسلمين فى ميناء إشبيلية ، وذلك بأن دفعوا إليها بحراقتين تحملان آنية محملة بالكبريت والقار وغيرها من المواد الملتهبة ، ثم دفعوا بعض السفن الثقيلة نحو قنطرة السفن بقوة الريح والتيار ، فحطموا سفنها المثبتة معا بسلاسل الحديد ، وقطعوا بذلك المواصلة بين المدينة ، وبين قلعة طريانة ؛ واستولى النصارى على قلعتى طريانه وجوليس ، ثم اقتحموا ضاحية الصفار وباب مقرينة ، ولم يبقوا فيها على أحد ، ومع ذلك فقد دافع المسلمون عن أنفسهم أشد دفاع ، واستعملوا فى قتالهم كثيراً من الآلات القاذفة والمكاحل ، وأنزلوا بالنصارى أضراراً فادحة ، وكانت مقذوفاتهم تشق الجراد المدرع من جانب إلى آخر .

وفى النهاية أضنى الحصار أهل إشبيلية ، ولاسيما بعد أن يئسوا من الإنجاد ، وأخذ شبح القحط يهددهم ، فنزلوا على حكم الظروف مرغمين وبدأوا المفاوضة فى تسليم المدينة ، متمسكين ببعض الشروط . وتقول الروايات النصرانية إن فرديناند لم يقبل أية مناقشة فى الشروط ، وتقول الروايات الإسلامية إنه قبل الشروط مغتبطاً ، لكى يعجل بالاستيلاء على المدينة ، أما شروط التسليم فتتلخص فيما يلى :

أن يكون المسلمون أحراراً فى أن يبقوا فى المدينة أحراراً آمنين محتفظين بمنازلهم وأموالهم لا يؤدون سوى الضرائب العادية ، أو أن يهاجروا منها بعد أن يبيعوا أملاكهم ؛ وأن يمنح الذين يرغبون فى الهجرة شهراً كاملا ، وأن يقوم النصارى بتسهيل رحيلهم سواء بالدواب فى طريق البر ، أو بالسفن فى طريق البحر ، وأن يسمح الملك فرديناند لأبى الحسن والى المدينة (والظاهر أنه كان آخر من ولى الأمر فيها) — وهو الذى يسميه النصارى أورانتس Orantes أن يبقى فى إشبيلية ، وأن يمنحه مبلغاً من المال لنفقته . بيد أنه آثر الهجرة ، وما كاد ينتهى من تسليم مفاتيح المدينة حتى ركب البحر فى نفس اليوم ، أى فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٨ م الموافق ٦٤٦ هـ إلى سبتة وإفريقية حيث لحق بآله ، وكانوا يومئذ يتنازعون مع بنى مرين على السلطان .

وهكذا انتهى سلطان الموحدين فى إشبيلية بعد أن حكموها مائة وبضع سنين ؛ وقد حكمها المسلمون منذ فتح الأندلس خمسمائة وسبعة وثلاثين عاما ؛ وقد غادرها من المسلمين ثلاثمائة ألف ، وسار فريق منهم برفقة فرسان قلعة رباح إلى شريش ، ونزح القليل مع الموحدين إلى إفريقية ، وذهب آخرون إلى لبلة وغربى الأندلس ، وقصد أكثرهم إلى كورة غرناطة حيث وعدهم ابن الأحمر بحسن الوفادة والحماية . ودخل فرديناند المدينة بعد ذلك فى موكب فخم ، وقد حملت أمامه صورة السيدة العذراء ، وركب إلى جانبه ولده وولى عهده ألفونسو ، ومن ورائه باقى أبنائه ، ثم تبعهم ألفونسو ولى عهد أراجون ، وبيدرو ولى عهد البرتغال ، فجميع الأحبار المرافقين للجيش ورؤساء فرسان الجماعات الدينية ، واصطف من حولهم كبراء المملكة والفرسان ؛ وقصد الموكب إلى المسجد الجامع ؛ فقام الأحبار بتحويله إلى كنيسة ؛ ورفع فى الوقت نفسه علم النصرانية وعلم ملك قشتالة على قمة البرج الأعلى للكنيسة الجديدة وهو الذى سمى « بالجيرالدا » Giralda ، وصنع بباقى المساجد ما صنع بالمسجد الجامع ، وشهد المسلمون بأفئدة مكلومة ، كيف أزيلت قبور آبائهم وأجدادهم خلال هذا التغيير .

ولما انتهى النصارى من تحويل إشبيلية إلى مدينة نصرانية رأى فرديناند أن يفتتح أيضاً جميع المدن الواقعة على مصب الوادى الكبير وفى منطقة وادى لكة، واستطاع أن يخضع بالفتح أو بالإرهاب فى سنة ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ)، شريش الفرنتيرة، ومدينة شذونة (مدينا سدونيا) وقلعة الغزال، وباش، وقادس، وشنت لقر، وثغر شنتمرية، وروطة، وأرك وغيرها [1]، بل لقد فكر فرديناند قبل أن يتم إجلاء المسلمين عن الأندلس، فى أن يعبر البحر بأسطول إلى إفريقية ويغزو هنالك ويفتتح؛ وقام أسطول قشتالة بالفعل بقيادة أمير البحر رعوند بونفاشيوس بإحراز نصر على الأسطول المغربى فى سنة ١٢٥١ م (٦٤٩ هـ)، بيد أنه لم يوفق إلى الاستفادة من هذا النصر نظراً لوفاة فرديناند بعد ذلك بقليل

---

(١) هى بالأفرنجية على التوالى Medina — Sidonia ، Xeres de la Fronterra ، Alcala de Gazules ، Velez ، St Lucar ، St Maria del Ponto ، Rota ، Arcos

الفصل الثامن

تاريخ البرتغال من عهد سانشو الأول

حتى افتتاح ألفونسو الثالث لولاية الغرب

١ — سانشو الأول الملقب بالمعمر

كان سانشو الأول قد ظهر منذ عهد أبيه ألفونسو بشجاعته وبراعته فى الحروب. ولما تولى العرش — فى ٦ ديسمبر سنة ١١٨٥ — رأى أن يتبع فيما يختص بعلاقته بالكرسى الرسولى ورجال الدين سياسة أخرى غير التى اتبعها سلفه. وكانت البرتغال بلا ريب مدينة بقيامها كمملكة مستقلة إلى حماية البابا؛ ومن ذلك الحين كف القيصر ألفونسو ريموند يز عن محاربتها وقبل وساطة البابا، ولم ينس ألفونسو هنريكيز طول حياته لمن يدين بعرشه بعد السيف، ولبث على خضوعه نحو الكرسى الرسولى وعلى جوده نحو البابا والكنائس والأديار. بيد أنه لما ولى ابنه سانشو العرش، كانت ظروف اسبانيا قد تغيرت تغيراً عظيما، فشغلت الممالك الاسبانية النصرانية الأربع بقتال بعضها البعض، وقتال الموحدين بلا انقطاع؛ واستطاعت البرتغال أن تحرز من القوة ما أحرزته الممالك المجاورة، وأن تحافظ على استقلالها دون حماية البابا؛ وكان سانشو يغير حلفاءه وفقاً لما تملى به الحكمة والمصلحة؛ وكان — حسب ماذكرنا من قبل — يثابر على محاربة المسلمين دون كلل. وقد افتتح كثيرا من حصون الحدود، وعمرها بالسكان النصارى، وأسبغ عليه التاريخ من أجل ذلك لقب «المعمر» Poplador وكان كأمير مستنير يعمل على تأييد

النظام والسلام والرفاهية فى مملكته ، ثم على تخفيف أعباء الحرب وغيرها من المكوس عن كاهل الشعب قدر استطاعته ؛ وقد شمل جماعات الفرسان بوافر جوده ، وعمل دائماً على توثيق روابطها ومصالحها بالعرش ؛ ومنح كثيراً من المدن والأماكن حقوقاً وحريات خاصة ، فساعد ذلك على تقدمها ورفع شأنها ؛ وشجع الزراعة أعظم تشجيع ، ووزع الأراضى الجدبة والمهملة على فقراء الزراع لزرعها ، وأذكى همم العمال المجدين بالمنح والامتيازات ، وأسبغ الفلاحون البرتغاليون على ملكهم لقب « الفلاح » رمزاً إلى ما لقوا من رعايته وحمايته .

وكانت مدينة شلب بعد أن افتتحها النصارى بمعاونة الجند الصليبيين من جنوبى ألمانيا ، قد سقطت مرة أخرى فى يد الموحدين وذلك نظراً لوقوعها فى قلب الأراضى الإسلامية ؛ ولكن سانشو عاد فافتتحها المرة الثانية فى سنة ١١٩٧ م (٥٩٣ هـ) ، وهدمها حتى غدت قاعاً صفصفاً ، ولبثت قفراً مدى حين ، وفقد المسلمون بفقدها حصناً من أمنع الحصون .

ولم تلق البرتغال فى الأعوام التالية سوى القليل من عدوان المسلمين ؛ ولكن خصاماً نشب بين سانشو وبين البابا سلستان الثالث من أجل زواج ابنته بابن عمها ألفونسو ملك ليون ؛ ثم نشب خصام عنيف آخر بينه وبين خلفه البابا أنوسان الثالث الذى ارتقى كرسى البابوية فى سنة ١١٩٨ م . وكان هذا الحبر أشد صلابة وحرصاً من سلفه على تنفيذ حقوق البابوية ومطالبها ؛ فطالب سانشو بالجزية التى تعهد بأدائها ألفونسو هنريكيز للكرسى الرسولى وقدرها مائة قطعة من الذهب . ومع تسليمه بأن ألفونسو هنريكيز قد دفع من قبل إلى الكنيسة ألف قطعة من الذهب كأثر من آثار ورعه وتقواه ، فإن هذه الهبة لا يمكن أن تعتبر أداء مقدماً لجزية عشرة أعوام كما أراد أن يعتبرها سانشو ، وليس هنالك ما يدل على أن سانشو قد خضع لوجهة نظر البابا ؛ ذلك أنه بالرغم من مصادقة البابا على معاهدة الصلح بين قشتالة والبرتغال ، وإنذاره بمعاقبة المخالف بالحرمان ، وحمايته البرتغال بذلك من نكث قشتالة ، فإن سانشو لم يسلك نحو رجال الدين

مسلكا وديا . أجل لقد سمح للبابا بأن يشرف على تنظيم أحوال الكنائس فى البرتغال ، وأن يرتب علائق جماعات الفرسان الدينية بالأساقفة ؛ ولكنه لم يكن يصبر على أى تصرف من الأحبار البرتغاليين أو البابا يرى فيه مساساً بهيبة العرش .

وهذا ما أثبته سانشو فى فرصتين ، الأولى فى خصام نشب بينه وبين أسقف بورتو ، والثانية فى موقفه نحو أسقف قلمرية ؛ ذلك أن سانشو بالرغم من التجارب المحزنة التى عرفها ملوك اسبانيا النصرانية فيما عقدوه من زيجات لم ترض الكنيسة عنها ، عقد ألفونسو زواج ولى عهده ألفونسو من إحدى قريباته الأقربين هى أوراكا ابنة ألفونسو التاسع ملك ليون (سنة ١٢٠٨ م) ؛ ولكن أسقف بورتو الذى سبق أن غاضبه مراراً من قبل ، وظن مع ذلك أنه أرضاه بجوده وصلاته ، اعترض على هذا القران بشدة ، وأبى أن يبارك العروسين ؛ وزاد على ذلك أنه حينما قدم الملك وولى عهده إلى بورتو لم يقم نحوهما بإجراءات التكريم المادية ، وأعلن قرار الحرمان الدينى ضد الزوجين الجديدين . وهنا استشاط سانشو من الأسقف غضباً ، وأمر بالقبض عليه ، ومصادرة أملاكه وأمواله ، ومعاقبة كل من آثر أن يتبع أقواله على اتباع الأوامر الملكية . نعم أطلق سراح الأسقف بعد ذلك بقليل حينما وعد بأن يسحب قرار الاعتراض والحرمان ، ولكنه لم يف بوعده ، بل فر إلى رومة ليستصرخ البابا . وأمر أنوسان الثالث المبعوث البابوى فى سموره بأن يعمل على تسوية المشكل ، فترد إلى الأسقف جميع حقوقه ويُسحب قرار الاعتراض ، على أن لا يعود الملك إلى التدخل فى شؤون الكنيسة . ولسنا نعرف كيف انتهت هذه الخصومة ، مما يدل على أن سانشو لبث هو الظافر المتغلب ؛ وقد حدث ذلك فى سنة ١٢١٠ م .

وحدث قبل أن تنتهى هذه الخصومة أن نشب خصام أشد بين الملك وبين أسقف قلمرية . وكان الملك كثير العدوان على الحقوق الأسقفية ، هذا إلى ما يعانيه الأحبار من حفلات الصيد الملكية ، واضطرارهم إلى إضافة كثير من الناس والحيوان ؛ وكثيراً ما كان الملك يسخر من رجال الدين ويحقرهم ويبدى

غضبه عليهم ، وفوق ذلك فقد ألقى ببعضهم إلى السجن . واحتج أسقف قلمرية على هذه الأمور لدى الملك أولا ؛ فلما لم تثمر شكواه ، كتب إلى البابا مباشرة متخطياً فى ذلك مطران براغا نظراً لميله إلى الملك ، ووصف له إلحاد الملك وصفاً مثيراً ، وزعم فى كتابه أن الملك يضيف لديه امرأة عرافة تسدى إليه النصح كل يوم . ثم إن الأسقف أعلن قرار الحرمان الكنسى فى دائرته ، ولكن سانشو أراد كعادته أن يأخذ كل شيء بالعنف ؛ فقبض على الأسقف قبل أن يتمكن من الفرار وسجنه . ولما علم البابا أنوسان بما حدث اهتم بأمر الأسقف ، وطالب الترضية إلى الملك ، ولكن سانشو أبى كل ترضية وتمسك بموقفه . بيد أنه لم يلبث أن مرض بعد ذلك بقليل وشعر بدنو أجله ؛ وهنا وهنت إرادته ؛ وساوره الندم وسعى إلى طلب الصفح ، ووعد بالترضية ، حتى يظفر بالغفران من رجال الدين ؛ وعلى أثر ذلك أعلن مطران براغا تبرئته من الحرمان وكل عقوبة أخرى . والواقع أن سانشو قدم الدليل فى وصيته على أنه لم يكن يحقد على رجال الدين ؛ فقد كتب وصيته قبل وفاته بعامين (فى اكتوبر سنة ١٢٠٩ م) بمصادقة ومشهد عدة من الأساقفة والكبراء ؛ وفيها يجزل الصلات للأحبار ويطرح جميع نصوصها لمصادقة البابا ، ويوصى له بمائة سبيكة من الذهب ؛ وقد صادق عليها البابا ولم يجد فيها موضعاً للطعن . ولم يعش سانشو ليشهد مصادقة البابا على الوصية ، وإلغاء قرار الحرمان على يده ، إذ توفى فى ٢٧ مارس سنة ١٢١١ م ؛ وفى السابع من يونيه من نفس العام ، قبل أن يصل نبأ وفاته إلى رومة أقر البابا أنوسان الثالث إجراءات مطران براغا ، وصادق على الوصية ، ووعد بأن يعنى بالعمل على تنفيذها .

٢ — ألفونسو الثانى الملقب بالبادن

عنى سانشو الأول بأن يرتب لجميع أولاده موارد ثابتة ، وعلى ذلك فقد منح فى وصيته لبناته أيضاً أراضى معينة علكنها ؛ وكان ألفونسو قد أقسم بأن يترك

لأخواته ما خصهن به والدهن ؛ ولـكن هؤلاء رفضن أن يعترفن بسيادة الملك على الأراضي المقطوعة لهن ، واعتبر ألفونسو هذا الرفض من الأمور التي لا يمكن التسامح فيها . وكان هـذا سبب الخصام . ذلك أن الأميرات خشية من تهديد أخيهن لهن في حقوقهن حسبما يرينها ، قصدن إلى البابا أنوسان الثالث ، الذي وعد بأن يسهر على تنفيذ الوصية . فأعلن البابا دون درس الموضوع ، أنه حامي الأميرات ؛ ولم يقنع هؤلاء بهذه الحماية فسعين في طلب المساعدة الخارجية خشية من عدوان أخيهن ، وكان ألفونسو التاسع ملك ليون على أهبة لأن يبذل هذه المساعدة . وكان يقيم في بلاطه ولي عهد البرتغال بيـدرو ، الذي غادر المملكة لخصام عائلي ؛ فسار هذا الأمير مع ولد أخته تيريزا وهو فرديناند ولي عهد ليون على رأس القوات المحاربة ، وغزا البرتغال ، وعاث في أرضها ، ليرغم الملك ألفونسو الثاني على أن يرفع الحصار عن الأماكن التي اختص بهـا الأميرات ، بيد أن الجيش الفاتح بالرغم مما لقيه من مساعدة البرتغاليين ، وافتتاحه لبعض الحصون ، وبالرغم من أن مبعوثي البابا أعلنوا قرار الحرمان ضد ملك البرتغال ، لم يستطع أن يحول دون سقوط أملاك الأميرات في يد أخيهن . وهنا فقط أبدى ألفونسو الثاني استعداده للصلح . وفي أثناء الهدنة التي عقـدت سار بيدرو مع القوات البرتغالية للاشتراك في محاربة المسلمين في موقعة العقاب وأبدى شجاعة وبطولة . بيد أنه لم يمض سوى القليل حتى سار إلى مراكش ملتجئاً إلى سلطان الموحدين الذي كان يحاربه من قبل ، ثم حارب إلى جانبه ضد الخارجين عليه في المغرب .

وفي تلك الأثناء نشبت الحرب في البرتغال بين الملك وأخواته من جديد ؛ وأصدر مندوبو البابا الذين عهد إليهم بتسوية النزاع حكماً في منتهى التعسف ، إذ قرروا دون البحث فيما إذا كان ألفونسو الثاني محقاً في محاربة أخواته أم متجنياً عليهن ، أن يلزم بنفقات الحرب كلها ؛ ولما أبى ألفونسو أن يذعن لهذا الحـكم ، صدر ضده قرار الحرمان الديني مرة أخرى ، ولـكن البابا أنوسان كان بعيـد النظر فسارع إلى إصلاح الخطأ ، وقضى بعد بحث جديد لأسباب النزاع بإلغاء

حكم مندوبيه ، وإلغاء قرار الحرمان الذى صدر ضد الملك ، وبأن يعهد بالأماكن المتنازع عليها إلى فرسان الداوية ، وأن يعطى دخلها إلى الأميرات ، وأن تبقى خاضعة لحقوق الملك وسلطانه . أما نفقات الحرب وما ترتب عليها من الأضرار فيقدرها بعض الدول وتوزع على الفريقين بالإنصاف ؛ وصدر الحكم البابوى فى ٧ ابريل سنة ١٢١٦ م فاستقبله الفريقان بالرضى .

وعندئذ فقط استطاع ألفونسو الثانى أن يشهر الحرب على المسلمين ، وكان قد رسا فى تلك الآونة (يوليه سنة ١٢١٧ م) فى مياه اشبونة أسطول من ثلاثمائة سفينة مشحونة بالجند الصليبيين ، القادمين من جنوبى ألمانيا ، لإصلاح ما فسد من السفن أثناء الرحلة ؛ وكانت الحملة تحت قيادة الكونت فلهلم صاحب هولنده ، وجورج فون فيد ؛ فاستجاب معظم رجالها لدعوة رجال الدين البرتغاليين وأستاذ الفرسان ، وحملهم تقدم الفصل ، وأمل الظفر بالغنائم العظيمة ، على التخلف فى البرتغال ، والقيام بحملة ضد المسلمين . ولم يرفض هذا العرض سوى الفرزيين ، فأبحروا إلى فلسطين فى ثمانين سفينة . وسار باقى رجال الحملة مع الفرسان البرتغاليين ، وفرسان القديس ياقب ، وفرسان الداوية والاسبتارية ، وحاصروا قصر أبى دانس ؛ وفى الحال حشد ولاة قرطبة وجيان وإشبيلية جيشاً إسلاميا ضخما ، سار إلى إنجاد القلعة ، ولكن هزمه النصارى ؛ ونسب النصارى نصرهم فى تلك الموقعة إلى معونة فرقة من الملائكة فى صفة الفرسان كانوا يقاتلون إلى جانبهم فى ثياب بيض ؛ وسقط من المسلمين فى تلك الموقعة أربعة عشر ألفاً (١٠ سبتمبر سنة ١٢١٧ — ٦١٤ هـ)[(١)] ولم يتمكن النصارى بالرغم من هذا النصر الباهر من الاستيلاء على القصر إلا بعد ذلك بستة أسابيع ؛ وعوملت المدينة التى فتحت أبوابها للمحاصرين فى ٢١ اكتوبر سنة ١٢١٧ ، معاملة مدينة فتحت عنوة ، فقتل من أهلها كل من كان أهلا لحمل السلاح ؛ وأخذ باقى

(١) وردت تفاصيل هذه الموقعة فى روض القرطاس (ص ١٦١) ، ويطلق على مدينة قصر أبى دانس بالأفرنجية Alcazar do sal .

السكان أسرى ؛ وسلمت المدينة بعد ذلك إلى فرسان شنت ياقب ، لما أظهروه أثناء القتال من شجاعة فائقة ، ولم يسافر الجند الصليبيون إلا في أوائل العام التالي بعد أن قضوا الشتاء في اشبونة ، فغادروا مياه البرتغال إلى فلسطين .

ولم يكن ميسوراً في ذلك الوقت الذي تعقدت فيه شؤون البرتغال الكنسية أن يطول أمد الوئام بين الملك وأساقفة المملكة ؛ فقد طالب الملك الأساقفة بنصيبهم من نفقات الحرب من متحصل أملاكهم الواسعة ؛ ولم يكن يتاح للملك دائماً أن يقمع جرائم رعاياه ، التي كان يرتكب معظمها بسبب النظم السيئة وامتيازات رجال الدين ، كذلك رأى الملك أن يقدم رجال الدين الذين يخالفون قوانينه إلى القضاء العادي ليحاسبهم على مسلكهم ؛ فاحتج اصطفان مطران براغا على هذه الأمور كلها بشدة ، فكان جواب الملك أن نزع منه بعض أملاكه ؛ فاستشاط المطران غضباً ، وأصدر قرار الحرمان والتحريم ؛ فلم يعبأ الملك بذلك ؛ واضطر الأسقف أن يسعى إلى السلامة بالفرار ؛ وحاول البابا هونوريوس في كتابين متتاليين أرسلهما إلى الملك أن يصلح بينه وبين الأسقف ، وحثهما على النسيان والصفح ، فذهبت جهوده عبثاً ، وعندئذ أصدر هونوريوس — بتحريض المطران الفار — قراراً (في ٢٢ ديسمبر سنة ١٢٢١) ، ينذر فيه الملك بأنه إذا لم يبادر إلى إنصاف المطران ، فإنه يصدر قرار الحرمان والتحريم ضد المملكة كلها ؛ ثم يأمر بعزله وتولية أمير آخر على العرش . ثم أصدر البابا أمراً آخر يطالب فيه الملك بالخضوع والطاعة ويكرر وعيده في حالة المخالفة ، ولكن الملك لم يذعن مع ذلك ولم يسلم ، بيد أنه مالبث أن مرض وتوفي في ٢٥ مارس سنة ١٢٢٣ م . وقد عجز ألفونسو في أواخر حكمه عن متابعة الحرب بنفسه نظراً لبدانته المفرطة ، وهي التي أسبغت عليه لقب « البادن » بيد أنه كان مع ذلك يدير شؤون المملكة بكفاية ؛ وقد غير نظم البلاط ومنح حقوقاً خاصة لكثير من المدن ، وعني باصدار طائفة من القوانين الجديدة .

وكان قد دعا عقب توليه العرش ، في العام الأول من حكمه ، المجلس النيابي (الكورتيس) إلى الانعقاد في قلمرية ، وأصدر بموافقته عدة قوانين ونظم عامة ،

أدرجت فيما بعد فى مجموعة القوانين التى أصدرها ألفونسو الخامس . ونص فى هذه القوانين على احترام الحرية الشخصية ، وأصلحت إجراءات المرافعات ، ونص على تأمين الملكية ، وعلى إلغاء المكوس الظالمة ، وتأييد بعض امتيازات الكنيسة ورجال الدين ، كما ألغيت منها بعض الامتيازات المغرقة .

٣ — سانشو الثانى الملقب بذى الثوب الكهنوتى

كان سانشو الثانى فى العشرين من عمره حينما خلف أباه على العرش ، وكانت مهمته الأولى أن يصلح بينه وبين رجال الدين ؛ ففى المجلس النيابى الذى عقده فى قلمرية فى يونية سنة ١٢٢٣ وضع اتفاق ينص على أن يحتفظ رجال الدين بجميع الحقوق التى آلت إليهم فى عهدى الملكين السابقين ، وأن تلغى جميع الحقوق والسلطات التعسفية التى كانت الكنيسة تشكو منها بحق ، وزيد على ذلك أن منح الأساقفة سلطات جديدة على حساب العرش ؛ ومع أن الملك اعتبر حامياً للكنيسة ، فإنه لم يكن يسمح له بأن يقضى فى الخصومات التى تنشأ فيما بين رجال الدين .

وعقد الملك مع مطران براغا اتفاقا خاصا تعهد فيه بأن يدفع له ستة آلاف قطعة من الذهب ، وأن يعوضه عن جميع الأضرار التى نزلت به من جراء النزاع ؛ وقام المطران من جانبه بإلغاء قرار الحرمان والتحريم ، وتبرئة الموتى الذين دفنوا من قبل دون تبريك وفقا لطقوس الكنيسة .

كذلك عقد سانشو الصلح بينه وبين عماته ؛ فنزل لهم عن الأماكن التى وهبت لهم بمقتضى وصية جده . وقرر لهم راتباً سنويا قدره أربعة آلاف قطعة من الذهب ؛ واعترف الأميرات من جانبهن بسلطة الملك ، وأن يقدمن إليه وقت الحرب الجند اللازمين ، وأن تستعمل السكة الملكية فى أملاكهن ؛ وبعد وفاتهن تؤول الأماكن والحصون الهامة التى بأيديهن إلى العرش ؛ أما باقى أملاكهن فتوزع على الكنائس والأديار التى خصصت لها . وفى مقابل ذلك أيضاً رد فرديناند ملك ليون وقشتالة (سنة ١٢٣١) حصن سنت اشتبن الذى استولى عليه

إلى سانشو ؛ وهكذا سوى هذا النزاع الذى طال أمده بين أفراد الأسرة الملكية .

ولما انتهى سانشو من ترتيب جميع الشؤون التى يمكن أن تمس سلام المملكة الداخلى ، وقطع فى الحكم بضعة أعوام يدير الأمور بحزم وفطنة ، عول على أن يشهر الحرب على المسلمين ؛ وكانوا فى تلك الفترة يكثرون من الإغارة والعيث فى أطراف المملكة الجنوبية تارة بقيادة الأمراء الموحدين ، وتارة بقيادة خصومهم . وكان قد استولى عنوة على مدينة الواس فى سنة ١٢٢٦ ، وشحنها بالسكان النصارى الذين أعطاهم حق المشاركة فى احتلال يابره ؛ وفى الأعوام التالية كرر غزواته للأراضى الإسلامية . ولما أخذت دولة الموحدين فى الانهيار وقام ابن هود يحاول إنشاء دولة جديدة فى الأندلس والمغرب ، انتهز سانشو فرصة الاضطراب الذى ساد المملكة الإسلامية ، وعمل على توسيع حدوده الجنوبية ، فافتتح صربا وبورمنها وغيرهما من القلاع ؛ وسر البابا جريجورى الحادى عشر لهذه الفتوح أعظم سرور حتى أنه أصدر فى ٢١ أكتوبر سنة ١٢٣٤ م قراراً وعد فيه جميع النصارى الذين يحاربون مع الملك سانشو ضد المسلمين بغفران ذنوبهم ، كما لو كانوا قد اشتركوا فى الحرب الصليبية فى الأراضى المقدسة ، على أنه يبدو أنه لم يقصد البرتغال يومئذ لمحاربة المسلمين كثير من الصليبيين ، ومع ذلك فقد ضاعف سانشو العزم فى فتوحاته . وكان من أهمها فيما بعد الاستيلاء على مدينة مارتلة ، وهى مدينة كانت لموقعها الحصين تصلح قاعدة لفتوح أخرى ، وقد أعطاها سانشو لفرسان شنت ياقب تمكيناً للمحافظة عليها . وترتبت على هذا الفتح فتوحات أخرى فى الأراضى الإسلامية ؛ وهوجم المسلمون من البر والبحر ؛ وأثار البابا حماسة البرتغاليين بقرار جديد أصدره سنة ١٢٤٠ م ؛ وافتتح الفرسان البرتغاليون طبيرة وهى قلعة هامة فى الغرب فى سنة ١٢٤٣ م ؛ فوهبها سانشو أيضاً إلى فرسان شنت ياقب ، وهى هبة صادق عليها البابا .

وبالرغم من أن الملك بذل جهد استطاعته لإرضاء رجال الدين وجد فى محاربة المسلمين ، ونشر النصرانية ، وبالرغم من أنه كان يستند فى ذلك إلى تأييد البابا

فانه لم يستطع اجتناب النزاع مع جميع أساقفة المملكة ، فلم يكن هؤلاء ليهدأ لهم بال قبل إسقاطه عن العرش .

وقد اضطر سانشو أن ينزل عن هيبته الملوكية إرضاء لطالب يوليان أسقف بورتو ؛ وكان هذا الحبر قد شكا منذ أوائل حكم سانشو إلى البابا ، بأن الملك يبسط سلطته القضائية على أسقفية بورتو ، وأبى الأسقف بيدرو خاف يوليان أن يسمح للملك أن يكون له اختصاص فى قضايا الأفراد الماديين أو المنازعات التى تقع بين رجال الدين ، أو أن يسمح لرعايا الأسقف بأن يؤخذوا للقتال مع الملك . ولو سلم الملك بهذه المطالب لغدا الأساقفة فى دوائرهم كالأمراء المستقلين .

وقدم الأسقف شكواه فى رومه إلى البابا ، فتولى الوساطة بينه وبين الملك ، وعقد اتفاق (فى سنة ١٢٠٣ م) يتعهد الملك بمقتضاه باحترام الحريات والحقوق الكنسية ، ولكنه يتمسك مقابل ذلك بأنه إذا نشبت الحرب ضد المسلمين فعلى أسقف بورتو وكذلك أساقفة المملكة الآخرين أن يقدموا إليه الجند المعونة ، وبأن يكون للقضاة الملكيين وحدهم حق الفصل فى الخصومات التى تقع بين الأفراد الماديين وبين رجال الدين ؛ على أن هذا الاتفاق لم يكن حاسماً للنزاع لأن البابا لم يصادق على هذه النقطة الأخيرة .

وسرعان ما اضطرم النزاع من جديد بين المدنيين ورجال الدين فإنه لم يمض سوى القليل على تسوية النزاع مع أسقف بورتو ، حتى أخذ الموظفون الملكيون يتدخلون فى الشؤون الدينية حسبما زعم مطران براغا . ولما لم يحقق الملك رغبة المطران فى عمل الترضية اللازمة ، أصدر المطران قرار التحريم ضد أولئك الموظفين الملكيين ، وتوجه بشكواه إلى البابا ؛ ويدل مضمون هذه الشكوى بوضوح على أن منح الامتيازات المفرقة لطبقة من الطبقات مما يحمل الطبقات الأخرى على أن تستعمل وسائل العنف والضغط لتفوز بنوع من المساواة ؛ وقد كانت الشكوى فى مجملها ضد الموظفين الملكيين أعنى ضد الملك الذى يعملون ويقضون باسمه وبأمره ، بيد أنها تضمنت أيضاً شكاوى معينة ضد الملك ذاته ، منها أنه أثناء

سفرائه يرهق الأديار والضياع الكنسية بطلب المال والمؤن ، وأنه يقبض إيراد الكنائس الخالية لحسابه ويولى أمرها للمدنيين ، وأنه يدعى حق الحماية على بعض الكنائس الحرة ، ويسلمها إلى أشخاص من السفلة ؛ وأما الشكاوى التى قدمت فى حق الموظفين ، فأهمها أنهم يرهقون المطران ورجال الدين بالغرامات المالية لحملهم على الاشتراك فى الحرب ، وينفقون على إطعام رجال الملك وخيله من أموال الكنائس ، ويرغمون الأحبار على اتباع النظم الدنيوية ، ومن ذلك إرغامهم على الحضور أمام القضاة المدنيين فى قضايا النزاع على الملكية ، ومنعهم أن يتقبلوا الهبات أو الأوقاف من الأتقياء متى وصلت أملاكهم إلى حد معين ، وأنهم كثيراً ما يمنعون المطران من معاقبة القساوسة المذنبين ، وكثيراً ما يدخلون منازل القساوسة لأوهى الأعذار فيهينونهم ، ويسرقون أموالهم .

وفى ١٥ أبريل سنة ١٢٣٨ أصدر البابا قراراً بوجوب إلغاء هذه المساوى ، وخول للمطران فى حالة ما إذا أصر الملك على موقفه ، أن يجدد ضده قرار الحرمان ؛ فإذا لم يكف هذا الإجراء ، لجأ البابا إلى وسائل أخرى ؛ ولم يجد سانشو فى المرسوم البابوى ما يمس حقوقه الملكية بصورة مباشرة ، فوافق على تنفيذ النص الخاص بحرية الكنائس كما ورد فى المرسوم ومراعاته ؛ وبذلك استطاع أن يجتنب العاصفة مرة أخرى .

على أن استسلام الملك لم يرق فى أعين فريق كبير من الأشراف . ذلك أنه كلما ارتفعت مرتبة رجال الدين وزادت امتيازاتهم زاد عبء المعونة العسكرية ونفقات الحرب على الأشراف . وكان الأشراف قد اعتادوا أن يحصلوا بالعنف والغصب من رجال الدين ما كان يخلق بهم أداؤه مختارين لو وزعت الحقوق والواجبات بصورة عادلة ، بحيث كانت امتيازات رجال الدين ، امتيازات اسمية أكثر منها فعلية . وكان على رأس خصوم الأحبار ، أخ فتى للملك هو الأنفانت فرديناند صاحب صربا ؛ وكان قد ارتكب ضد الكنائس والأديار كثيراً من ضروب العسف ، حتى أن مطران براغا جمل قرار الحرمان

يشمله . ووُجه اللوم إلى الملك كرة أخرى لأنه لم يقمع عدوان آله وصحبه ؛ واضطر الأنفانت فرديناند أن يذهب إلى رومه (سنة ١٢٣٩م) ليقدم ضراعته إلى البابا وليحصل على عفوه ؛ فعفا عنه البابا مقابل تعهده بألا يعتدى بعد على شيء من حقوق الكنيسة . ولكن سانشو لم يكن باستطاعته أن يرغم جميع أشراف مملكته الذين يرتكبون العسف ضد الكنيسة ، على مثل هذا الخضوع .

واستمر سانشو مدى أعوام أخرى يبذل أعظم الجهود فى أداء واجبات الحاكم اليقظ ، يتابع الحرب ضد المسلمين بنجاح ، ويكافح داخل المملكة ضروب الإخلال بالنظام والعسف أينما ظهرت ، ويدير دفة الحكم بمنتهى العناية والحرص ؛ بيد أن الصعاب كانت تتفاقم فى سبيله ، فقد بدأ الأشراف بالتحرك ، وكان أخص أقاربه على تفاهم معهم ، وكان رجال الدين يبغضونه ، ويترقبون الفرصة لإسقاطه ؛ ولهذا لم يكن غريباً أن ينحدر سانشو بعد هذه الأعوام الطويلة التى قضاها فى جهود عقيمة إلى نوع من السأم والخمول ، وأن يعمد أعداؤه إلى انتهاز هذا الظرف لإسقاطه ؛ واضطر سانشو أن يقف الحرب ضد المسلمين بعد أن تخلف عن طاعته فريق من الأشراف ، وحتى الحدود غدت دون دفاع كاف ضد غزوات المسلمين ؛ وعمد الأحبار — بدلا من البحث لدى الأشراف المخالفين عن سبب اضمحلال سير الحرب ، ومحاولة إقناعهم بالخضوع — إلى اتهام الملك بالإهمال والتواكل ، وتعريض المملكة بذلك إلى الخطر ، وانحازوا خفية إلى الثائرين .

وقد كان اضطرام أية ثورة ينذر سانشو بالويل . ذلك أن أخويه الفونسو وفرديناند ، وعمه بيدرو كانوا عمالئون الحركة الثورية ، وكان لكل منهم حزب من الثوار ؛ وكان الجمود الذى لزمه سانشو يومئذ ، وخضوعه المطلق لنفوذ زوجه السيء ، وهى الملكة ماريا لوبيز دى هارو ، مما يثبط همم أقرب أنصاره ويشجع خصومه على اتخاذ خطوات سريعة حاسمة .

ولما كان سانشو دون ولد ، فقد كان ذلك يحفز الأمراء إلى الاهتمام بأمر المملكة ؛ وكانت أطماعهم تتفق مع أمانى الثوار فى خلع الملك عن عرشه . وكان

المتقد أنه لا ينقص مثل هذه الخطوة سوى موافقة الكنيسة ؛ ولهذا اتجه الثوار وعلى رأسهم الأحبار بشكواهم إلى البابا أنوسان الرابع ، وكان يومئذ يعقد فى ليون مجلساً كنسيا (سنة ١٢٤٥م) لخلع القيصر فردريك الثانى ؛ فأصدر كتاباً إلى الملك بأن يعمل على تلافى أسباب الشكوى ، وأن يقدم الترضيات اللازمة ، وإلا اضطر الأب المقدس إلى أن يتخذ فى حق ملك البرتغال ومملكة البرتغال خطوات شديدة أخرى .

وذهب فى تلك الآونة أيضاً إلى المجلس الكنسى فى ليون أسقفا بورتو وقلمرية ومطران براغا ليعرضوا شكواهم شخصيا على البابا ؛ وكان يصحبهم عدة من الأشراف البرتغاليين كسفراء للملك يدافعون عن حقوقه ، بيد أنه تبين فيما بعد أنهم خائنون لقضية مليكهم ؛ وما كاد الأحبار والأشراف البرتغاليون يصلون إلى ليون حتى قدموا شكواهم ضد مليكهم ، وطلبوا عزله عن الملك ، وتولية أخيه الأنفانت الفونسو مكانه ؛ وكان هذا الأمير قد غدا بزواجه من الكونتة ماتيلده صاحبة بولونيا ، أميراً لهذه الولاية ؛ وكان قد توثقت صلاته بالكنيسة منذ أعوام ، وكان يعد بأن يقود جيشاً إلى المشرق لمحاربة الغزاة التتار ، وأن ينظم حملة صليبية ضد مسلمى الأندلس ؛ وكان الأحبار والأشراف الخوارج يرون فيه أداة لينة لتنفيذ خطتهم . واستجاب البابا أنوسان الرابع لرغبات هؤلاء النفر القلائل ، وقبل أن يصله من البرتغال جواب كتابه السابق ، أصدر فى ٢٤ يوليه سنة ١٢٤٥م قراراً بعزل الملك سانشو الثانى ، محتجا بأنه اغتصب بعض الأملاك الكنسية ، وترك الفوضى تغمر البلاد بعجزه وإهماله ، وتنصيب أخيه الأنفانت الفونسو صاحب بولونيا مكانه فى الحكم ، وقد كان من حقه أن يخلف سانشو فى الملك إذا توفى دون عقب ؛ وكان القرار يحمل بألفاظه معنى إقامة الفونسو وصيا لا ملكا ، ولكن تبين فيما بعد أن المقصود هو العزل الحقيقى . وكان الفونسو يومئذ فى باريس لدى خالته الملكة بلانكا والدة القديس لويس ، فانقلب عائداً إلى البرتغال . بيد أنه اضطر أن يقطع فى البداية لزعماء الأحبار الذين

ذكرناهم عهداً بأن يحترم جميع امتيازات رجال الدين ، وأن يبذل لهم امتيازات وحقوقا أخرى ، وأن يؤيد كل القوانين العامة والحقوق الخاصة ، بل تعهد لهم بأن يعطيهم نصيباً فى حكم المملكة .

قطع الفونسو على نفسه هذه العهود فى سبتمبر سنة ١٢٤٥م مشترطاً مع ذلك ألا تضر بحقوقه أو حقوق المملكة ، ثم ترك لزوجه إدارة الإمارة ، وركب البحر مع الأحبار والأشراف البرتغاليين ، عائدا إلى البرتغال ، فوصل إلى ثغر اشبونه فى نهاية سنة ١٢٤٥م ؛ وفى الحال أقبل الشعب على مبايعته بالطاعة والخضوع .

وكان تطور الحوادث على هذا النحو مفاجأة لسانشو ، فما تصور قط أن تفضى الأزمة إلى مثل هذه النهاية ، ولم يفكر فى الاستمداد لمحاربة خصمه وإخضاعه بقوة السيف . ذلك أن الفونسو كان معه رجال الدين وفريق من الأشراف ؛ ولم يكن لرأى الشعب يومئذ قيمة فى تأييد هذا أو ذاك ، ولكنه كان ينحاز حتما إلى الجانب الذى تؤيده الكنيسة والأشراف . هذا إلى أن مطران براغا وأسقف قلمرية ، قد استصدرا من البابا مرسوما يخولها أن يوقعا العقوبات الكنسية على كل مخالف لحكومة الفونسو ، وهكذا اضطر سانشو أن يبحث عن سلامة نفسه ؛ ففر إلى قشتالة ، ولجأ إلى ملكها فرديناند الثالث « القدس » ، فاستقبله فى طليطلة ، ووعده — عملا بنصح الأساقفة وبعض الأشراف — بالمعاونة والتأييد ضد ثوار مملكته الذين نزعوه من العرش .

وخرج سانشو على رأس جيش جهزه له ملك قشتالة ، ومعه ألفونسو أكبر أبناء فرديناند الثالث ، وزحف على البرتغال ، بيد أن محاولته كان مقضيا عليها بالفشل . ذلك أن ألفونسو الثالث أمير البرتغال الجديد ، بادر إلى استمالة كثير من أنصار سانشو المترددين ، بالوعود والمطايا ، وإلى إرهاب أولئك الذين أصروا على معارضته وإخضاعهم ؛ ولم يبق إلى جانب الملك القديم سوى عدد من القلاع التى ثبت أصحابها على ولائهم ؛ فلما غزا الجيش القشتالى الأراضى البرتغالية ، لقيه ألفونسو فى قوى ضخمة ؛ بيد أنه قبل أن يشتبك معه فى القتال ، حاول أن يقنع

القشتاليين بالحسنى أن يعودوا إلى بلادهم ؛ وبعث إلى الأنفانت ألفونسو يطلعه على القرار البابوى ، وكيف أنه تلقى الحكم من الأب المقدس ، وأن كل من يقف فى سبيله يعرض نفسه لعقوبة الحرمان ؛ كذلك حث الأحبار الأنفانت على العود ؛ ورأى الأمير أنه لا يستطيع أن يحمل من تلقاء نفسه تبعة خطوة قد تعرض عواقبها قشتالة ذاتها للخطر ، فعاد بالجيش إلى قشتالة دون أن يشتبك مع البرتغاليين فى موقعة ما . وربما رأى سانشو فى تصرف القشتاليين من الحكمة وبعد النظر ، أكثر مما أبدوا من وفاء بعهودهم . ومع ذلك فقد آثر أن يعود ليعيش فى قشتالة على أن يحاول أن يجوز تقلبات الحرب فى مملكته . وقد كان أنصاره المخلصون يسيطرون على كثير من القلاع ، وكان فى وسعهم أن يهددوا حكومة ألفونسو أعواماً أخرى ، ولكن سانشوا آثر فيما يظهر دعة الحياة الخاصة ؛ وعاش الأمير الذى كان ولوعاً بالحرب ثلاثة أعوام أخرى كما يعيش الرهبان ، بين الاستغفار والصلاة وأداء الصدقات ؛ وهو أكثر اتصالا بالعالم الآخر منه بهذا العالم . وقد نعتقد أن لقبه وهو « ذو الثوب الكهنوتى » اشتق من هذه الحياة التى عاشها فى أعوامه الأخيرة ؛ ولكنا نعلم فى الواقع أن هذا اللقب يرجع إلى أن والدته كانت قد ألبسته وهو طفل — على أثر مرض خطر أصابه — ثوب راهب تبركا بالقديس أوغسطين ووفاء لنذر نذرته متى شفى . وتوفى سانشو فى طليطلة فى يناير سنة ١٢٤٨ م .

ومع أن سانشو قد نبذ عرشه ، وترك أنصاره إلى مصيرهم ، فانه مضت أعوام أخرى قبل أن يوطد ألفونسو سلطانه فى سائر أنحاء المملكة ، وقد اضطر إلى أن يحاصر كثيراً من القلاع مدداً طويلة ؛ ولم يستطع تغلباً عليها إلا بالجوع . وكانت قلعة قلمرية ما تزال تقاوم حتى موت سانشو ؛ وكان حاكمها مارتن دى فريتاس يدافع عنها وهو يعانى كل ما يفرضه حصار أعوام من ضروب الضيق والإرهاق ؛ بل لقد أبى أن يسلمها حتى بعد أن جاءت الأنباء بوفاة سانشو ، وطلب أن يتحقق بنفسه أولا من صدق الخبر ؛ فأعطاه ألفونسو أماناً وإذناً

بالسفر ، فسافر إلى طليطلة ؛ وطلب أن يفتح قبر سانشو ، وهنالك وضع بين يديه مفتاح قلعة قلمرية . ولما اطمأن إلى أنه أدى واجب الولاء لمليكه تاما ، عاد إلى القلعة ، وسلمها إلى ألفونسو .

٤ — فتوح ألفونسو الثالث فى ولاية الغرب

لم يتخذ ألفونسو الثالث لقب المُلك إلا بعد وفاة سانشو ، وعلى أثر ذلك دعا نواب الطبقات الثلاث إلى الاجتماع ، فبايعوه بالطاعة باعتباره « أميراً ملكا » ؛ أما قبل ذلك فكان يلقب فقط بالقائم بشؤون الدولة أو نائب الملك .

وما كاد ألفونسو يطمئن إلى توطد عرشه ، حتى أخذ يفكر فى استئناف الفتح فى ولاية الغرب (غربى الأندلس) ؛ وكانت الظروف يومئذ أشد ما تكون موافقة لإعلان الحرب على المسلمين ؛ ذلك أن سقوط إشبيلية فى يد فرديناند الثالث فى ذلك الحين قد أثار الروع فى باقى الأراضى الإسلامية . وكان سانشو الثانى قد افتتح معظم ولاية الغرب ، واستولى على عدة من القلاع الواقعة على ضفة وادى يانة اليسرى مثل موره وصربا ويامونت ، فلم يبق على تتمة إخضاع الأراضى الواقعة غربى مصب وادى يانة سوى الاستيلاء على بعض الحصون .

وكانت دولة الموحدين قد انهارت تمام الانهيار ، وساد التفرق بين مسلمى الأندلس ، وغدا أقوى أمرائهم ، أمير غرناطة من أتباع ملك قشتالة ، فلم يكن من الممكن أن تستمد الحصون الإسلامية فى ولاية الغرب على أية مساعدة من الخارج ؛ وكان فى وسع الفونسو أن يطمئن إلى نجاح غزوته ؛ وقد بدأ بحصار قلعة فارو الواقعة بين شلب وطبيرة ، فطوقها من البر والبحر ؛ وسرعان ما اقتنع المسلمون بعبث المقاومة ، وجنحوا إلى تسليم المدينة (١٢٤٩م — ٦٤٧هـ) واُتفق على أن يحتفظ المسلمون الذين لم يرغبوا فى الهجرة بأموالهم ، بدينهم وأموالهم وشرائعهم ، وأن يكونوا رعايا الملك البرتغال ، يؤدون إليه من الضرائب ما كانوا يؤدونه فعلا إلى أمرائهم المسلمين ؛ وتلا الاستيلاء على فارو ، سقوط

المدن المجاورة بسهولة ؛ وكانت البفيره قد أخذت قبل ذلك بقليل ؛ ولم تستطع لوله وما جاورها أن تقوم بمقاومة تذكر ، فلم يأت منتصف سنة ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) حتى سقطت ولاية الغرب كلها فى أيدى البرتغاليين . وفى العام التالى عبر البرتغاليون نهر وادى يانه ، ومضوا فى فتوحهم على ضفته اليسرى فى قلب الأندلس ، واستولوا على قلعتى أروشه وأرسينه الواقعتين على مقربة من لبلة ؛ وشجر الخلاف من أجل هذه الفتوح بين ملك البرتغال وملك قشتالة ، وسوف نقص فيما بعد كيف سوى هذا الخلاف بين الملكين ، وكذلك ما تبقى من سيرة الفونسو الثالث .

وهكذا غدت مملكة البرتغال — التى لم تكن عند قيامها فى عهد مؤسسها الملك الفونسو هنريكيز (ابن الريق) سوى الرقعة الممتدة بين نهرى منهو ومنديجو — بفضل جهود البرتغاليين وشجاعتهم ، فى ظرف قرن فقط ، ضعف ما كانت عليه ؛ وكان الملك الفونسو الأول قد استطاع خلال عدة حروب موفقة أن يدفع حدود المملكة إلى ماوراء نهر التاجه ، وأن يفتتح العاصمة أشبونه ؛ ثم غزا ولده سانشو الأول ولاية الغرب ، وافتتح منها عدة حصون ، بيد أن هذه الفتوح لم تكن ثابتة نظرا لبعد هذه الحصون وعزلتها ؛ ولم يمهد طريق الفتوح الثابتة فى الغرب إلا بعد أن افتتح الفونسو الثانى بمساعدة الجند الصليبيين قصر أبى دانس ؛ ثم جاء سانشو الثانى فأبدى همة مضاعفة ، وقام بفتح بعد فتح ، من الفاس إلى يامونت وطبيره ، وافتتح كل الأراضى الواقعة على ضفتى نهر وادى يانه الأسفل حتى مصبه ، ومهد بذلك السبيل إلى إتمام افتتاح ولاية الغرب ، وكان هذا الفتح من نصيب أخيه وخلفه الفونسو الثانى ، فى منتصف القرن الثالث عشر . ولم تزد مملكة البرتغال حتى يومنا فى حجمها على ما كانت عليه فى بداية حكم الفونسو الثالث .

الفصل التاسع

أحوال الدول الاسبانية

حتى وفاة فرديناند الثالث

يستمد فرديناند الثالث شهرته وعظمته فى التاريخ الاسبانى بالأخص من فتوحه ؛ ذلك أنه لم يوفق ملك اسبانى فى القرن السابق من العصور الوسطى إلى ما وفق إليه من اجتناب جميع المنازعات مع جيرانه من الملوك ، حتى لا يشغل فى حروبه ضد المسلمين ؛ ولم يكن ثمة ريب فى أن الحماسة الدينية لنشر النصرانية كانت أهم البواعث التى حملته على خوض الحرب مع المسلمين بلا انقطاع ، بيد أنه لم يغفل مع ذلك مصالح المملكة السياسية ، فقد بقى مثلا على ارتباطه الوثيق مع أمير غرناطة . أما موقفه إزاء چايم ملك أراجون ، فقد كان بحيث يخشاه هذا الملك دائماً نظراً لما كان ينشب من خلاف بينه وبين أكبر أولاده وكثير من أشراف مملكته ؛ على أن فرديناند لم يكن ليخشى من أراجون شيئاً على سلامة أراضيه ؛ ذلك لأن فتوح چايم فى مملكة مرسية لم تكن لتهدد قشتالة فى شىء . وليس هناك ما يدل على أن فرديناند كان يطمح إلى امتلاك ناڤارا عقب وفاة ملكها سانشو السابع بلا عقب ، وقد كان الناڤاريون والأرجونيون يقاومون معاً مثل هذا التوسع من جانب قشتالة ؛ ولكن فرديناند كان أعقل من أن يقدم على مثل هذه الخطوة العقيمة ، التى كانت لتحول بلا ريب دون فتوحه فى الأندلس ؛ ومع أن ملك قشتالة كان قليل التدخل فى شؤون البرتغال الداخلية ، فإنه مع ذلك تولى حماية سانشو الثانى

حينما فقد عرشه على يد رجال الدين ، ثم حاول أن يرده إلى عرشه بقوة السيف (سنة ١٢٤٦م) ؛ ولكن حال دون تحقيق مشروعه قرار الحرمان البابوى ، ووفاة الملك المخلوع عقب ذلك ، وكان يقيم فى ظل رعايته فى طليطلة . كذلك يستمد جايم ملك أراجون شهرته بالأخص من فتوحاته ؛ وقد اشتهر أيضاً بأنه مشرع ومقنن ؛ ولكنه لم يكتسب هذه الصفة إلا فى النصف الأخير من حكمه وهى فترة تتصل بعصر آخر لا نعنى به هنا . وأبدى جايم فى مسألة وراثة العرش كثيراً من الضعف والتردد ، وكاد يقضى من جرائها على جميع ما أداه من خير لمملكته ؛ ذلك أنه طلق زوجه الينور بحجة القرابة حينما أصبحت لا تروق له ؛ ومع ذلك فقد اختار ولده الفونسو الذى أعقبه منها وليا لعهد المملكة كلها ، وذلك على يد المجلس النيابى الذى عقده فى طركونه سنة ١٢٣٣م .

وكان هذا التصرف من جانب جايم مناقضاً للمعاهدة التى عقدها مع سانشو السابع ملك نافارا ؛ وكان هذا الملك — الذى لم يقم منذ موقعة العقاب بأى عمل حربى يذكر — يعيش مع جاره فى سلام دائم ، ممتعما بجباله ، بيد أنه استيقظ من جموده ، منذ ضم فرديناند الثالث عرش قشتالة وليون فى مملكة واحدة ؛ وعقد مع ملك أراجون فى الاجتماع الذى تم بينهما فى تطيله (سنة ١٢٣١م) معاهدة تحالف وثيق ضد قشتالة ، نص فيها على أن يتبنى كل من الملكين زميله ، وأن يخلفه فى عرشه ، وذلك بالرغم من أن جايم كان له ولد ، وكان سانشو قد اختار من قبل ولد أخته الكونت تيوبولد أمير شمبانيا ليخلفه فى عرش نافارا .

فلما أعلن جايم فى العام التالى ولده الفونسو وليا لعهده ليخلفه فى جميع مملكته ، قضى بذلك على معاهدته مع ملك نافارا . بيد أنه تقدم نحو عرش نافارا بطلبات مجحفة ، حينما توفى سانشو السابع فى السابع من أبريل سنة ١٢٣٤م ، فى الثمانين من عمره ؛ واختار نواب الطبقات بالإجماع ابن أخته الكونت تيوبولد أمير شمبانيا ملكا شرعيا لنافارا . وكان عدول ملك أراجون

عن دعواه الباطلة ضد نافارا ، يرجع بالأخص إلى اشتغاله بالغزو فى أراضى المسلمين أكثر مما يرجع إلى اعتراضات رجال الدين والبابا جريجورى التاسع . وهكذا بقى تيوبولد حتى وفاته ملكا لمملكته بلا منازع ، وخلفه فى العرش عقبه . أما تاريخ هذه الأسرة الجديدة التى تولت عرش نافارا ، والتى تدين لمؤسسها بتنظيم الدولة وتزويدها بكثير من القوانين الحكيمة ، فيدخل فى تاريخ العصر التالى .

وكان تصرف فرديناند إزاء چايم ملك أراجون مليئاً بالشهامة . ذلك أن چايم طلق زوجه الأميرة الينور القشتالية بحجة القرابة ، واختار الفونسو ولده (سنة ١٢٣٢م) وليا لعهده ، ولكنه عاد فانتزع منه بعض أجزاء المملكة ليعطيها لأبنائه من زواجه الثانى ؛ ومع ذلك فقد بذل فرديناند كل ما فى وسعه لكى يهدئ بوساطته ما ترتب على تصرفات چايم التعسفية من الاضطرابات فى أراجون ؛ ولما تزوج چايم فى سنة ١٢٣٥م بالأميرة يولانتا ابنة اندرياس الثانى ملك المجر ، ورزق منها بأولاد جدد ، قرر على يد المجلس النيابى الذى عقد فى دروقه سنة ١٢٤٣ م ، أن يعطى ولده من زواجه الأول الفونسو ، أراجون وحدها ، وأن يعطى ولده من زواجه الثانى بيدرو ولاية قطلونية . وقد أثار هذا التصرف من جانب چايم غضب ولى العهد وجميع الأشراف ؛ وكادت أن تترتب عليه حرب دموية بين الوالد والابن ، لولا أن وفق فرديناند بتدخله إلى اجتنابها ؛ ذلك أنه أرسل ولده البكر الفونسو ، إلى ملك أراجون ، فعقد مؤتمراً فى المسيرة (سنة ١٢٤٤ م) ، واستطاع أن يسوى النزاع القائم بين قشتالة وأراجون على حق الفتوح فى ولاية مرسية ، وأن يسوى فى نفس الوقت ما شجر من خلاف بين الأحزاب الأرجونية . كذلك عقد الفونسو ولى عهد قشتالة خطبته على يولانتا ابنة چايم توثيقاً لعلائق الصداقة بين المملكتين المتجاورتين ، واشترط أن تعطى الأماكن المختلف عليها بين قشتالة وأراجون كمهر لها .

وما كاد النظام يستتب فى أراجون حتى وجه چايم كل عنايته لتزويد المملكة بالقوانين الكفيلة بتقدم الشعب ورفاهته ؛ فأعد فى أوائل سنة ١٢٤٧ م على يد المجلس النيابى المنعقد فى وشقة تشريعاً جديداً قام بوضعه جماعة من علماء القانون والعرف ؛ وكان واضحاً أن هذا التشريع الجديد يرمى إلى الحد من امتيازات الأشراف ، والتوسع فى حقوق الطبقة الوسطى . وجمعت قوانين المملكة المختلفة فى هذا التشريع وشرح منها ما كان غامضاً ، ونقح منها ما كان فى حاجة إلى التنقيح ؛ ونص على أنه فى الأحوال الغامضة يُرجع إلى رأى ذوى النزاهة والمعرفة الذين خبروا هذه الشؤون ؛ وأضيفت إلى التشريع أيضاً مجموعة الأوامر القديمة المتعلقة بالحقوق الشخصية ، وإجراءات المرافعات ، والنظم الإدارية . ولم تبحث الأصول الدستورية ، وقصد بذلك على ما يلوح أن تمحى الامتيازات التى يتمتع بها الأمراء التابعون بمضى الزمن ، على أن چايم لم يخطر فى باله أن الحقوق الملكية التى لم تسجل بوضوح ستغدو هى ذاتها موضعاً لاعتداء الأمراء ، وهو ما وقع بالفعل فيما بعد .

وكان ثمة فكرة مشئومة تلاحق الملك چايم وهى تقسيم المملكة بين أبنائه . وما كاد ينتهى من تزويد أراجون بالقوانين الصالحة ، وهى خير قوانين عرفت يومئذ فى أوربا ، حتى أخذت تغلب عليه تحريضات زوجه البارعة الطموحة بولانتا . وكانت الملكة تريد أن تمنح جميع أبنائها مناطق من أراضى المملكة ، فاستطاعت أن تحمل زوجها على أن يضع لها تقسيما جديداً (سنة ١٢٤٨ م) ؛ وبمقتضى هذا التقسيم خص ألفونسو ، ولد الملك من زواجه الأول : بولاية أراجون فقط ، ومنح بيدرو أكبر أبناء يولانتا ولاية قطالونية وجزيرة ميورقة وباقى الجزر الشرقية ، وحصل أخوه چايم على ولاية بلنسية ، وفرناندو على إمارة روسيون وكونفلان ، وشرطانية ومونبلييه ، وعدة أماكن أخرى شمالى البرنيه ؛ أما أصغرهم سانشو فقد التحق برجال الدين ، ولم يحصل على شىء ، بيد أنه رقى رغم حداثته إلى أرفع المناصب الدينية .

وما لبث هذا التقسيم أن أثار فى أراجون حرباً أهلية أخرى ، وثار ألفونسو أكبر الأبناء من جديد ، وتحالف معه الأنفانت البرتغالى بيدرو صاحب بلنسية الغنى بموارده ، وكان قد تنازل عن ميورقه لقاء بلنسية . وقد أرغم الأميران مدى حين على مغادرة المملكة ، بيد أنهما انضما فى معظم أنصارهما — وهم أشجع فرسان أراجون وبلنسية — إلى الملك فرديناند الثالث ، وقدما إليه خدمات جلى فى محاصرة إشبيلية وافتتاحها ؛ ولهذا كان من الواضح لجايم أن ابتعادهما عن المملكة لم يضع للحرب حداً ، ولكنه أرجأها فقط . ورأى جايم لكى يحول دون تفاقم الاضطراب فى المملكة ودون تدخل قشتالة فى شؤونها الداخلية أن يدعو نواب الطبقات إلى الاجتماع فى القنيش (سنة ١٢٥٠ م) ؛ واختار النواب عدة محكمين للفصل فى منازعات الأحزاب والعمل على التوفيق بينها ؛ ويرجع الفضل بالأخص إلى نصح فرديناند فى أن ولى العهد ألفونسو ، والأمير البرتغالى — وكانا يقيمان يومئذ فى إشبيلية — انتهيا بالخضوع إلى هيئة المحكمين . وكان ملك قشتالة يرجو مخلصاً أن يعود السلام الداخلى إلى أراجون ، وعلى هذا فقد اضطر ولى العهد ألفونسو أن يخضع إلى القرار الذى أصدرته هيئة المحكمين التى ندبها مجلس النواب فى برشلونه فى ٢٦ مارس سنة ١٢٥١ ، وإن لم يكن هذا القرار فى صالحه ؛ وكان القرار يقضى بأن يختص ألفونسو بأراجون وحدها والفتوح الجديدة فى ولاية بلنسية ، ويؤيد منح ولاية قطلونية للولد الثانى بيدرو ، وأن يعطى الولد الثالث جايم جزيرتى ميورقة ومنورقة ومونبلييه ، والولد الرابع فرديناند ولاية روسيون وشرطانيه وكونفلان . وهكذا حمل جايم بحبه الأعمى لأولاده من زواجه الثانى على أن يمزق مملكة أراجون ، فى الوقت الذى عظمت فيه قوتها بافتتاح بلنسية ، وفى الوقت الذى استطاعت فيه قشتالة باتحادها مع ليون وفتوحها فى جنوبى اسبانيا أن تقضى على التوازن بين الدول الاسبانية ؛ بيد أن حكم جايم الطويل الحازم ، وموت ولى العهد ألفونسو قبل أبيه حالا دون انقسام وحدات المملكة الرئيسية وهى أراجون وقطلونية وبلنسية . أما فرديناند ملك قشتالة فقد استطاع

بالعكس أن يوطد وحدة الأراضى التى ورثها ، والتى افتتحها ، وأن يغنم بذلك عرفان الأمة الاسبانية التى اعتبرته بحق مؤسس المملكة الاسبانية .

ولما شعر فرديناند بدنو أجله ، استدعى ولده وولى عهده ألفونسو ، وهو الذى اختير منذ مولده فى سنة ١٢٢٢ م على يد مجلس برغش لولاية العهد ، وأوصاه بحضور الأشراف أن يعنى بأمر إخوته الخمسة وأن يكون لهم بمثابة الأب ، وأن يعامل الملكة — وهى چان دى بونتيه التى تزوجها فرديناند فى سنة ١٢٣٨ م بعد وفاة زوجه الأولى بياتريس — بمنتهى الرفق والتبجيل ، وأن يترك الأمراء التابعين حقوقهم وامتيازاتهم ، وألا يفرض شيئاً من الضرائب إلا إذا قضت بذلك الضرورة القاهرة ، وأن يسهر على تحقيق العدالة بين النـاس دون تفريق بين أحد منهم ، وأن يحكم المملكة فى خشية من الله . وفى ٣٠ مايو سنة ١٢٥٢ م توفى فرديناند مأسوفاً عليه من الجميع بعد أن حكم قشتالة خمسة وثلاثين عاما ، وحكم ليون اثنتين وعشرين عاما . ودفن فى إشبيليه آخر فتوحه ، وكان قد جعلها قاعدة لملكته ؛ وأسبغ عليه معاصروه — نظراً لورعه وتقواه — لقب « المقدس » ، ورويت عن قبره أساطير عديدة ؛ وخلع عليه البابا كليمنضوس العاشر لقب القداسة فى سنة ١٦٧٧ ، تحقيقاً لرغبة الملك كارلوس الثانى .

* * *

ومنذ تولت الأسرة البرجونية عرش قشتالة وليون ، وقعت فى نظم الحكم فى هاتين الدولتين تغييرات عديدة وإن تكن غير جوهرية . وكان أثر النظم والتقاليد الفرنسية قد أخذ يبدو مذ تبوأت الأسرة النافارية عرش قشتالة ، ولكن زاد هذا الأثر ظهوراً ، مذ وليت الأسرة البرجونية المتفرعة من أسرة كابيه الملكية ، عرش المملكة الاسبانية . فزادت سلطة الملك بعد أن كانت محدودة جدا ، وألغى مبدأ حق الانتخاب ؛ وكان حصول الملوك على حق اختيار أولياء العهد راجعاً بالأخص إلى أن الفتوح التى يقومون بها فى الحروب الموفقة ، تعتبر ملكا خالصاً لهم يتصرفون فيه كما شاءوا ، وكان الملك يحصل فى هذه التصرفات على موافقة

الـكبراء من الأشراف والقواد والأسافقة ، وهم الذين حققت هذه الفتوح على أيديهم ، ولـكن هذه الموافقة لم تكن فرضاً لازماً ، وإنما كانت تؤخذ فقط لتسهيل إجراءات التصرف ؛ ومن ثم فقد تبوأ معظم ملوك قشتالة وليون العرش بطريق الوصايا الملـكية من أسلافهم ، وهى وصايا كان يصادق عليها دائماً كبراء المملـكة ؛ وكان لـكل ملك أن يقسم ولايات المملـكة بين أبنائه . ولـكن مملـكة تقوم على مبدأ الانتخاب تأبى مثل هذا التقسيم . وكان فرديناند الثالث ، الذى تولى عرش ليون بالرغم من إرادة أبيه وحرمانه إياه فى وصيته ، أول من وضع لخير المملـكة قانوناً يحرم تقسيم مملـكة قشـتالة وليون المتحدة (وذلك فى سنة ١٢٣٠ على ما يظهر) ولـكن لم ينص فيه صراحة — فى حالة ما إذا لم يوجد عقب مباشر من الذكور — ماذا يتبع فى توريث الفروع أو إلى أى حد يفضـل فرع الذكور ، على الأعقاب من الإناث . ومع أن فرديناند الثالث كان يسيطر على نحو ثلثى شبه الجزيرة ، وقد دفع أطراف مملـكة قشتالة إلى حدود لم يوفق إليها أحد من أسلافه ، فإنه لم يفعل ما فعله ملوك قشتالة السابقين من ادعاء السيادة على باقى الممالك النصرانية ولم يتخذ كبعض أسلافه لقب القيصر .

وكانت الحقوق الملـكية ونظم البلاط فى هذا العصر باقية على النحو الذى شرحناه من قبل[1] ؛ فالوزير الأول يسمى « محافظ القصر » Majordomus ويليه وزير الحرب أو حامل السلاح Armiger ؛ وكان وزير العدل يسمى Merinus Major ؛ ويتولى توقيع المراسيم والتصرفات الملـكية السجل الملـكى والمستشار الملـكى . وحدث أثناء عهد الوصاية على الفونسو النبيل ، وهنرى الأول ، أن استطاع الأشراف أن يغتصبوا معظم سلطات الحـكم ؛ وكان سن الرشد قد عين عنـد بلوغ الملك الرابعة عشرة ؛ وقد بلغت غطرسة الأشراف يومئذ حداً عظيماً بحيث كان من المألوف أن يرفضوا طاعة الملك ، بل لقد زعموا لأنفسهم يومئذ حقاً خطراً على كيان المملـكة هو أن فى وسعهم أن يرفضوا

(١) راجع ص ١٣٢ وما بعدها من الجزء الأول من هذا الـكتاب .

الولاء للملك وأن يختاروا أميراً غيره ؛ وقد استطاع الفونسو النبيل ، وكذلك فرديناند الثالث فى أعوام حكمه الأخيرة أن يحطا سلطان الأشراف — وقد كانوا يعفون من الضرائب ويملكون الضياع الواسعة والحصون والقلاع — وذلك بالأخص بمعاونة رجال الدين الأقوياء الأثرياء ، ورفع الطبقات الأخرى من الناحية الاجتماعية ؛ ومما يذكر فى ذلك أن الفونسو النبيل قد نزع من الأشراف هيبتهم ، واضطهدهم ، وسلح المدن والفلاحين لمحاربتهم ؛ وعاون الكفاح المستمر ضد المسلمين فى المدن ، ولاسيما فى أطراف المملكة الجنوبية على إنهاض الروح العسكرية ؛ وكانت هذه المدن كلها تقريباً تحكم نفسها طبقاً لقوانينها وتقاليدها الخاصة fueros ، وهى التى حصلت عليها أو انتزعتها من الملك ؛ وكانت تنزل إلى ميدان الحرب بأعلامها وقوادها مجهزة أحسن تجهيز ، وكثيراً ما تحرز النصر الباهر على العدو ، وتعود جيوشها مثقلة بالغنائم ؛ وظهرت بالأخص فى هذا الميدان عدة مدن من قشتالة الجديدة واسترمادوره مثل آبله ، وصوريا ، وسقوبية ، ومدينة ردريك ، وشلمنقة وغيرها . وفى أواخر القرن الثانى عشر صادق على مرسوم أصدره الفونسو النبيل منظما لوراثة العرش زعماء خمسين مدينة منها اثنتا عشرة تقع شمال نهر دوره ، وتقع الباقية فى جنوبه ، وتقع فى المنحدر الجنوبى لوادى الرملة منها أربع عشرة ، وتقع فى المنحدر الشمالى الشرقى أربع وعشرون . ولما كان فرديناند الثالث قد افتتح فى القرن الثالث عشر عدة مدن كبيرة مثل بياسة وأبدة وجيان وقرطبة وإشبيلية وغيرها وشحنها بالسكان النصارى ، فقد كانت الطبقة الثالثة يومئذ غنية بعددها ؛ وكان نواب الطبقة الثالثة يمثلون عندئذ فى المجالس النيابية ؛ ومن الخطأ أن يقال إن نواب الطبقة الثالثة مثلوا فى الكورتيس (البرلمان) لأول مرة فى عهد الفونسو الحادى عشر فى سنة ١٣٢٥م ؛ وكانت المدن التى تمتعت فيما بعد ، فى سنة ١٣٤٩ ، فى مملكة قشتاله وليون المتحدة بحق إرسال نوابها إلى البرلمان ثمانى عشرة فقط .

وكان اجتماع مجلس البرلمان (الكورتيس) خلال القرنين الثانى عشر والثالث

عشر عن الشؤون الكنسية يبدو شيئاً فشيئاً ، وغدت الشؤون الكنسية تبحث فى مجالس خاصة (synod) ؛ وكان الأساقفة يمثلون فى البرلمان كسابق عهدهم ، ولكن — بالأخص — باعتبارهم من الكبراء والأشراف ؛ وكان الكورتيس يدعى فى هذه العصور بالأخص فى أحوال ثلاث :

أولاً — حين صدور المراسيم الملكية الخاصة بوراثة العرش والوصاية ، وإصدار القوانين ، أو إصدار النظم المتعلقة بادارة شؤون الدولة ، مما يجب أن يحوز مصادقة الأشراف .

ثانياً — عند إعلان الحرب على المسلمين ، وذلك المصادقة على توزيع نفقات الحرب ، وتقرير عدد الجند الذين يجب حشدهم .

ثالثاً — عند فرض الضرائب وتقريرها ؛ ولما كانت هذه المسألة تهم المدن بنوع خاص ، فقد جرت العادة شيئاً فشيئاً أن يدعى مأمورو الملك وزعماء المدن إلى مجالس الكورتيس ؛ ولم يكن لهؤلاء حق التصويت فى هذا الشأن ، ولكن كان لهم أن يبدوا رأيهم ، وأن يبدوا اعتراضاتهم فى الأحوال التى يرون فيها فداحة الضرائب . وكان يوجد ثمة إلى جانب الضرائب العادية فروض وخدمات أخرى ، مثل تقديم المؤن والأقوات للجيش وأعمال التحصينات والحراسة فى المدن والأماكن القريبة من حدود الأعداء .

هذا ، ولما كان لكل مدينة وكل ضيعة وكل دير تقريباً قانون خاص تجرى العدالة بمقتضاه ، فقد كان من الممكن يومئذ نظراً لتجنى الأشراف وسيادة حق القوة ، أن يقع التصادم بين مختلف القوانين ؛ بيد أن مثل هذا التصادم كان أقل مما نتصور . فقد كانت كل جهة تتمسك بقانونها دون أن تعبأ بمعارضة الآخرين . وكان السكان الذين يستقرون فى المدن المفتوحة حديثاً يحصلون على قانون جديد ، يقتبسونه عادة من مدينة سبقت لهم السكنى فيها . بيد أنه كان يجب الحصول على مصادقة الملك . وقد رأى فرديناند الثالث — لكى يحقق نوعاً من المساواة فى التقنين فى أراضى مملكته — أن يصدر تشريعاً عاما يستند بقدر الاستطاعة إلى

القانون القوطى وإلى القوانين الخاصة المختلفة . بيد أن هذا المشروع لم يتحقق ، وأصدر ولده وخلفه ألفونسو العاشر تشريعاً جديداً ، ولكن على أسس أخرى غير التى رآها أبوه .

كذلك وضع فرديناند الثالث الأسس الأولى لمجلس قشتالة الملكى ، وهو عبارة عن محكمة استئناف عليا لجميع المملكة . وكانت هذه المحكمة تتألف من عشرة من كبار المشترعين من رجال الدين والمدنيين ؛ وكانت هى الملاذ الأخير فى المنازعات ، وفى وسعها أن تنقح أحكام المحاكم الدنيا أو تعيد النظر فيها أو تنقضها ؛ بيد أن المستأنف كان ملزماً بأن يودع مبلغاً كبيراً قدره ألف وخمسمائة دبلون (عملة اسبانية) ، يضيع عليه إذا لم يحكم لصالحه .

وكما أن فرديناند الثالث ، لم يستطع أن يبسط سيادة قشتالة على باقى الممالك النصرانية ، فكذلك لم يحاول مطران طليطلة أن يجدد السيادة التى كانت لكنيسته على باقى الكنائس الاسبانية ؛ وقد كان مطرانا شنت ياقب وطركونه يعارضان فى ذلك أشد المعارضة . وظهرت هذه المعارضة بشكل واضح منذ عهد المطران ردريك الطليطلى حيث احتج زملاؤه على طوافه فى دوائرهم بهيئة رسمية وإصدار البراءات وغيرها من أعمال وظيفته ؛ وعقد يومئذ مجتمع دينى (سنه ١٢٤٠ م) تقرر فيه أن مطران طليطلة يعرّض الأماكن التى يمر بها على هذا النحو إلى الحرمان . ولم يرض البابا عن هذا القرار ، ولكن المطارنة الأسبان أصروا على رفض سيادة مطران طليطلة عليهم . ولم يغيروا موقفهم حتى عند ما تولى سانشو ولد فرديناند الثالث منصب المطران فى سنة ١٢٥١ م .

ونلاحظ فيما يتعلق بالشؤون الكنسية أن هيئة الأساقفة ورجال الدين قد عانت كثيراً من جراء الحروب المستمرة ضد المسلمين ، فكثيراً ما تولى الأساقفة القيادة ، وكثيراً ما حرضوا على أعمال القسوة ضد المسلمين ؛ وترتب على ذلك أن شابت الوحشية طباع الشعب ورجال الدين . ثم تلا ذلك ظروف محزنة جنح فيها الملوك — بالرغم من معارضة الكنيسة — إلى الزواج من أقاربهم ؛

وجلبوا بذلك قرار الحرمان والتحريم على أنفسهم وعلى الشعب ، واضطهدوا رجال الدين الذين أطاعوا البابا ، وأبدى فريق من الشعب احتقاره للآخرين ؛ وغاضت العواطف الدينية حسب اعتراف الأساقفة أنفسهم شيئاً فشيئاً ؛ بيد أنها عادت فقويت من جديد فى ظل حكم فرديناند المستنير . وحذا هذا الملك الورع ، الذى اضطر أيضاً إلى حماية سلطته من رجال الدين ، حذو الفونسو النبيل ، فى إنشاء الأسقفيات والكنائس والأديار فى المدن التى فتحت حديثاً ؛ وتمسك الملوك بحقهم القديم فى تعيين الأساقفة ، وشدد فى هذا التمسك الفونسو النبيل وفرديناند المقدس ؛ وشدد الكرسى الرسولى من جانبه فى إنكار هذا الحق على الملوك . كذلك كان على رجال الدين أن يقدموا الجند إلى الجيش أسوة بالأشراف ؛ بل كان على الأساقفة أن يؤدوا قسماً من أعشار الكنائس كضريبة حرب للمعاونة فى الكفاح ضد المسلمين . بيد أنهم لم يكونوا يؤدونه إلا بموافقة البابا . وفيما عدا ذلك كان رجال الدين يتمتعون بالإعفاء من الضرائب منذ أيام الفونسو النبيل ، ولم يتمتعوا بهذا الامتياز من قبل . كذلك تقرر فى عهد هذا الملك ألا يضع الملك يده على تركات الأحبار وألا يستغلها بصورة مؤقتة ، بل تترك بجملتها إلى خلفائهم ، وكان على الأحبار مقابل ذلك أن يصلوا من أجل صحة الملك ورفاهته ؛ وكان فرديناند الثالث يشجع العمل على تحسين أخلاق الكهنة ؛ واستطاع المندوب البابوى ، الذى كثيراً ما تولى عقد الاجتماعات الكنسية ، وجماعات الرهبان الجديدة من الدومنكيين والفرنسيسكانيين ، الذين ذاعت هيئاتهم فى اسبانيا منذ تأسيسها فى سنة ١٢١٨ ، بما أبدوا من ضروب الاعتدال والورع والتقشف ، أن يكونوا قدوة للكهنة الذين طغت عليهم العواطف الدنيوية وأن يردوهم إلى حظيرة الدين . بيد أنه مما لا يمكن إنكاره أن التعصب الدينى ، وشهوة الكهنة إلى السلطان ، واعتناق الخرافات الدينية ، قد أخذت يومئذ تنتشر فى اسبانيا . .

وهنا أخذت الحرب ضد المسلمين تزداد عنفاً وقسوة ، وأخذ اليهود قسراً إلى التنصير بالرغم من اعتراض البابا على ذلك ، وأرغموا على أن يلبسوا من الثياب

ما يعززهم ، ومنعوا من تحصيل أعشار الكنائس ؛ وعوقب الذين ينتمون إلى الألبيين[1] ، أو يعتنقون مبادئ غير الكثلكة بالموت حرقاً ؛ وكان الملك فرديناند الثالث يمقت الملاحدة أشد المقت ، حتى أنه تولى بنفسه في بالانسيا (سنة ١٢٣٦ م) إضرام النار في محرقة أعدت لإحراق ملحد . ولم يخل في عصر من العصور عن ظهور المعجزات مثلما أذيع عنها في النصف الأول من القرن الثالث عشر ؛ فحيثما أحرز النصارى في الحرب نصراً باهراً ظهر القديس ياقب ، أو الفارس القديس جورج ، أو السيدة العذراء في المعركة ، ومعها مدد غير منتظر لأولئك الذين أشرفوا على الهلاك ! وقيل إن راهباً من ليون يدعى مارتن معروفاً بغبائه وجهله ، نزل عليه القديس ازيدور ، وأطعمه الكتاب المقدس ، فملئ بذلك علماً وحكمة ، واستطاع أن يؤلف كتباً عديدة في أعوص المسائل الدينية ! ولما ذاعت التعاليم الإلحادية التي يرجع بعضها إلى مبادئ الألبيين ، أصدر المجمع الديني المنعقد في طركونه سنة ١٢٣٣ م قراراً بتحريم قراءة العهدين القديم والجديد على المدنيين حتى في غير الاجتماعات العامة . وكذلك ذاع يومئذ اكتشاف آثار القديسين ورفاتهم ، ووضعها في الكنائس في المدن الكبيرة ؛ وعرفت اسبانيا في ذلك الوقت أيضاً قديسين معاصرين مثل القديس دومنيك مؤسس الهيئة المعروفة باسمه ، وقد أعلن قديساً في سنة ١٢٣٤ م

وكان من جراء الحروب المستمرة ضد المسلمين أن أسبغت حتماً على الأمة الاسبانية لوناً شديداً من الخشونة والقسوة ، ولم يحل دون تحولها إلى نوع من الهمجية المطلقة سوى شرف الفروسة والعاطفة الدينية ، بيد أننا لا نجد أثر هاتين الخلتين الشهيرتين دائماً في الشعب الاسباني ؛ ففي أثناء حروب أسرتي كاسترو ولارا في قشتالة ، والحروب الأهلية التي وقعت في عهد هنري الأول ، وأثناء حداثة الملك جايم ، بدا كأن الصفات الرفيعة قد غاضت في نفوس الفرسان ولم يبق مكانها سوى الرذائل من العنف والاضطهاد والعنت والتمرد تسود هذه

(١) سبق أن أشرنا إلى مذهب الألبيين في هامش ص ١١٠ من هذا الجزء

الأراضي التمسة ، حتى لقد كان رجال الدين والنساء فرائس لهذا الاعتداء . ولما كان رجال الدين قد أثروا من جراء الهبات المتواصلة والإعفاء من كل الضرائب — بل ومن أداء ضريبة الحرب ضد المسلمين أحياناً — فكثيراً ما كان الفرسان والأشراف يحقدون عليهم ، وينتزعون منهم بالعنف ما يرونه زائداً عن حاجتهم . وقد قتل مطرانان فى طركونه بيد اثنين من أكابر أشراف المملكة ، وكثيراً ما وقع النهب والقتل والحرق دون خشية من الله ؛ ولم يبد الناس من الطاعة للملك إلا بقدر ما رأوه ضروريا ؛ وكثيراً ما كان الملوك أنفسهم يقدمون الأمثلة السيئة من أعمال العنف ، مثل چايم حينما أمر بقطع لسان أسقف جيرونه ، ولولم يعمد الفونسو النبيل فى أواخر عهده وكذلك فرديناند الثالث إلى كبح جماح الفرسان بحزم وقوة ، لانهارت نظم الدولة كلها فى قشتالة . ومن المدهش حقا أن نرى رجال الدين فى هذا العصر الذى ساد فيه قانون القوة ، يقنعون الفونسو النبيل بإلغاء « حق الإنقاذ »[١] ، وسن عقوبات شديدة لمن يرتكب النهب من السفن الجانحة .

وليس من المستغرب أن تزدهر الفنون والعلوم فى مثل هذه العصور التى سادها الاضطراب والفوضى ، فقد دلت التجربة فى كثير من البلدان على أنه كثيراً ما تزدهر العلوم فى ظل قعقعة السلاح . وفى هذا العصر بالذات أسست الجامعات الأولى التى عرفتها اسبانيا النصرانية فى بالانسيا وشلمنقة . على أن ازدهار العلوم والفنون فى قشتالة وأراجون يرجع بالأخص إلى العصر التالى ولا سيما فى عهدى الفونسو العاشر والفونسو الحادى عشر .

ولا تقدم إلينا المصادر فيما يتعلق بأراجون التى يحفل تاريخها الدستورى بكثير من المسائل الهامة ، قبل عهد چايم سوى قليل من الوثائق المتناثرة ، كذلك من الواضح أن هذا الملك وخلفاءه قد سنوا كثيراً من النظم الدستورية التى لم

(١) المقصود هنا حق الاستيلاء على تعويض مقابل مساعدة السفينة على النجاة من الغرق .

نعثر على أصولها فى عصور سابقة . وقد تناولنا فيما تقدم كل ما يتعلق بتاريخ أراجون الداخلى من الشؤون الهامة فى القرون الأولى من العصور الوسطى ، وذلك عند الكلام على حكم الملك بيدرو الثانى ؛ أما غير ذلك من الشؤون فيرجع إلى عصر لاحق .

* * *

وقد نستعرض فى لمحة سريعة تلك العصور التى قامت فيها السيادة النصرانية على شبه الجزيرة الاسبانية ، ونتساءل بعد تأمل أهم حوادث هذه السيرة ، أليس من المسلم به أنها عبارة عن صراع دموى حافل بالتقلبات شهره الاسبان ضد المسلمين فى سبيل امتلاك شبه الجزيرة ، وهى ملكية رأى أبناء القوط دائماً أنها من حقوقهم الخالدة . وقد استطاع فرديناند القدس وجايم الفاتح لأول مرة أن يحطا تفوق الإسلام نهائيا ، وأن يحققا للاسبان سيادة الأراضى الاسبانية بالرغم من أنها بقيت مدى حين مسرحاً لهذا الصراع ، وبقى المسلمون فى مملكة غرناطة فى رقعة من الأرض تمتد بين مملكتى قشتالة وأراجون وتشرف على المضيق .

إن السيف يفتتح الأراضى ، ثم ينظمها القانون إلى دول ؛ وقد بقى الفرسان ورجال الدين هما الدعامتان اللتان تمدان الشعب الاسبانى بالقوة اللازمة لسحق الصرح العربى المغربى . ولما خف عبء الصراع الدائم ، ولم يبق المرء عاما بعد عام يعيش فى المعسكر ويخوض ميدان الحرب ، زادت عناية الاسبان بالزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والفنون . ولم يكن من الميسور قبل أن تسقط بلنسية وقرطبة وإشبيلية فى يد النصارى أن تزدهر الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم بين النصارى كما ازدهرت بين جيرانهم المسلمين . ذلك لأن النصارى كانوا يسيطرون فقط على القسم الشمالى المجدب من شبه الجزيرة ، ولأن الأيدى العاملة كانت تؤخذ دائماً للحرب ، ولأن الدول النصرانية فيما عدا قطلونية كانت منقطعة عن البحر الأبيض المتوسط ، ولأن الحرب وحدها كانت سبيل الشرف والثراء والصيت . وكانت النظم التأسيسية ترمى كلها إلى توزيع الحقوق ، حينما

تفرض أعباء الحرب ، ولم يكن يستثنى من ذلك رجال الدين . فلما توطدت حياة اسبانيا فى شبه الجزيرة بعد صراع دام خمسة قرون أمكن أن يعنى التشريع بحقوق الأفراد بعد الجهود التى بذلت للعناية برفاهة الدولة ورخائها ؛ ولم تكن الحرب أو الضرورة القاهرة عندئذ باعث النظم التأسيسية ؛ ولكن كان التوسع الحر فى الحقوق هو الذى يوجه التشريع ، وكان التشريع ينظم أسس الدولة .

الفصل العاشر

نظم الدولة وفنون الحرب وأحوال الحضارة

فى دولتى المرابطين والموحدين

كانت دولة المرابطين تشبه فى قيامها ونموها واضمحلالها خليفتها ، دولة الموحدين شبهاً عجيباً : كلتاهما قد وضع أسسها داعية دينى ، وقاد الجند الذين غمرتهم الحماسة الدينية قادة عظام موهوبون من نصر إلى نصر ، وأنشأوا من هذه الفتوح دولة زودوها بنظم ، وأسرة ملوكية وراثية . بيد أنه ما كادت العوامل التى حركت هذه الشعوب — وخلقت ونظمت كل شىء — يغيض معينها ، وما كادت حماسة الشعوب تخبو ، وتفتر همم السلطان الحربية ، حتى انهارت هاتان الدولتان العسكريتان بمثل السرعة التى قامتا بها .

وكان من أشد العوامل التى ساعدت على بسط سيادة هاتين الدولتين فى شمال إفريقية ، رغبة البربر والمغاربة الذين فرض العرب عليهم سلطانهم ، فى أن يحطموا نير السيادة الأجنبية ، وأن يلتفوا حول الأسر القومية ؛ ولكن الأمر كان على عكس ذلك فى اسبانيا المسلمة حيث لم تكن كتلة الشعب من المغاربة ، بل كانت عربية (مصرية أسيوية) ، فقد كانت الدولتان المغربيتان ، تعتبران بالرغم من كونهما قد استدعيتا لمحاربة النصارى ، غاصبتين ليس غير ؛ وكان الزعماء والأسر الملوكية بالأخص ، وهم الذين جنت سيادة الإفريقيين على حقوقهم ، يبغضونهم ويحقدون عليهم ؛ وحتى بعد أن فنى معظم الأسر العربية العريقة فى

الأندلس وفى شرق اسبانيا ، لم يكن من الميسور إخضاع الشعب بغير القوة القاهرة . ومع أن الحروب المستمرة ضد النصارى الأسبان كانت تحتم الاحتفاظ فى شبه الجزيرة بقوى ضخمة ، فان اسبانيا المسلمة كانت مع ذلك ، فى ظل دولة المرابطين ، وكذلك فى ظل دولة الموحدين ، أغنى ولاية فى الدولة المغربية ؛ كما أنها كانت فى نفس الوقت أشد أجزائها تعرضاً لعسف الحكام العسكريين ؛ وكان من الطبيعى أن يترتب على غزو هذه القبائل المغربية الخشنة ، انهيار الثراء العظيم والنماء السابقة اللذين عرفتهما الأندلس من قبل فى عهد الدولة الأموية وعهد ملوك الطوائف ، وأن تفتر العناية بالعلوم والفنون ؛ بيد أنه من المدهش أن نرى مسلمى الأندلس فى تلك العصور المضطربة التى ساد فيها الخراب والعيث ، ينافسون إخوانهم المسلمين فى المشرق فى جميع نواحى العلوم والحضارة .

١ — نظم الدولة وفنون الحرب عند المرابطين

كانت نظم الدولة التى قامت عليها مملكة المرابطين من صنع يوسف بن تاشفين ، فهو الذى أعطى المملكة حدودها ودعامتها الأساسية . واستطاع بعد أن أسس العاصمة مراكش ، وافتتح أقطار المغرب والأندلس أن يتخذ — باعتباره زعيم المرابطين فى الشؤون الدينية والدنيوية — ألقاب الخلافة وأمير المؤمنين دون أن يكون من فروع الدوحة النبوية ، تشبهاً فى ذلك بأعظم أمراء الإسلام فى عصره ، خلفاء بغداد العباسيين ، وخلفاء القاهرة الفاطميين ، وأن يجعل الملك متوارثاً فى أسرته ؛ وكانت تقام صلاة الجمعة فى المساجد باسم هذا السلطان المطاق ، وتضرب السكة باسمه فى جميع أنحاء المملكة . وكان لون المرابطين السواد على مثل الدولة العباسية ؛ يحملون الأعلام السود ، ويرتدون المعاطف السوداء .

وكان كل سلطان يختار أثناء حياته ولى عهده بنفسه ، وكان يختار عادة من بين أبنائه أنجبهم وأكفأهم للاضطلاع بالحكم ؛ فقد اختار يوسف بن تاشفين مثلا لولاية عهده أصغر أبنائه . وكان من أهم عوامل الخلاف على وراثة العرش فيما

بعد ، أنه لم يصدر قانون صريح ينظم وراثة العرش ، فى حالة ما إذا فات أمير المؤمنين القائم أن يختار خلفه . وكان تعيين ولى العهد يجرى وفقاً لرسوم فخمة ، فيعقد مجلس من زعماء القبائل والولاة والعلماء والفقهاء ، وتعرض عليه رغبة السلطان ، ويصرح المجتمعون بأنهم يقبلون ولى العهد المختار سلطانهم المستقبل ويبايعونه بالطاعة إذا شاء ذلك أميرهم ؛ وللأمير إذا شاء أن يقيل ولى عهده وأن يختار بدلاً منه ؛ ويجب على الوزير أن يحرر وثيقة بوراثة العرش ، تودع فى المحفوظات الملكية .

ومتى تولى سلطان المرابطين الحكم بايعه بالطاعة أولاً أفراد أسرته ، ثم الأمراء المرابطون ، وأقسموا له يمين الإخلاص والطاعة ، ثم يتلوهم زعماء القبائل وعمال الحكومة ؛ ويخطر الشعب بمرسوم يتلى فى المساجد ، ويستبدل اسم الملك الراحل فى خطبة الجمعة باسم الملك الجديد .

ويُعهد بحكم الأقاليم إلى الأمراء المرابطين الذين لم يولوا الملك ؛ وكانت الأندلس أهم هذه الأقاليم ، ويعهد بولايتها عادة إلى الأمير الذى يعين لولاية العهد ، ويلقب عندئذ بلقب خاص به وهو « النائب » ؛ ويتخذ مركز الحكم على الأغلب فى غرناطة أو إشبيلية أو قرطبة ؛ ويلى الأندلس فى الأهمية ولاية فاس ، وهى عاصمة المملكة الثانية ، وفيها حاول الأمراء المرابطون من آل تاشفين أكثر من مرة أن ينشئوا مملكة مستقلة .

ويعاون أمير المؤمنين فى القيام بأعباء الحكم مجلس للدولة مؤلف من الوزراء ؛ وينتقل هذا المجلس معه أثناء الحرب ؛ ويوزع الوزراء فروع الإدارة والحكم بين أنفسهم ؛ ويتولى رياسة المجلس كبير الوزراء أو الوزير الأول ؛ ويتولى الوزير الكاتب إعداد جميع الوثائق الرسمية الهامة .

ويقوم نظام الدولة كله على أسس عسكرية ؛ وأمير المؤمنين هو قائد الجيش الأعلى ؛ وولاته هم فى الوقت نفسه من قواد الجيش يتزعمون منه أقساما معينة ، بل كان قضاة الدين أنفسهم أيضاً من القواد العسكريين ؛ وكان معظم الموظفين فى

البلاط وفى الولايات ينتمون إلى قبيلتى لمتونة وكدالة الحربيتين ، وهما اللتان يرجع إليهما أصل المرابطين أنفسهم . هـذا وقد عمل يوسف بن تاشفين على الاحتفاظ بعظم طرائقهم فى تنظيم فنون الحرب . وكان اللمتونيون شعباً وافر البراعة شديد المراس فى الحرب لايفرون أمام عدو مهما تفوق عليهم فى العدد ؛ وكانوا يرتبون صفوفهم فى المعركة ببراعة ؛ ومع أن قوتهم الأصلية كانت تقوم على الفرسان ، فإنهم كانوا يقدمون فى الصف الأول أشجع جندهم من المشاة ، يتقلدون الحراب الطويلة ، ويغرسونها فى الأرض .

وقد أكمل يوسف بن تاشفين تنظيم اللمتونيين وأعدهم للحرب أعظم إعداد ؛ وكانت دعامة جيشه قوة من الفرسان حسنة الدربة مزودة بأفضل سلاح ، وصل عددها فى عهده إلى مائة ألف مقاتل ؛ وكانت كل فرقة تحمل علمها الخاص من مختلف الألوان ، وعليه رسوم ونقوش خاصة ، ولهـا زعيمها الخاص ، ويخرج الجيش إلى الحرب تحت قرع الطبول وصوت الأبواق ، وقد رتبت الصفوف حسب القبائل .

وكان ترتيب المعركة عند المرابطين يقوم على نظام خماسى . ويتقدم الجيشَ ، الجندُ المشاة ، ووحدات الفرسان الخفيفة ، وحملة القسى ، وحملة النبال ، ويرتبون فى الجناحين ؛ ويتكون القلب من وحدات الفرسان المرابطية الثقيلة ، وهى التى كان لهـا على الأغلب القول الحسم فى المعارك ؛ وكانت القوى الخلفية أو القوى الاحتياطية ، يقودها الخليفة بنفسه إذا كان مصاحباً للجيش ، وتتألف من صفوة جنود الجيش ، وقوى الحرس المختلفة . وكان لـكل قسم من القوى المقاتلة قائده الخاص ؛ ويجتمع القادة جميعاً فى مجلس الحرب الذى يعقد قبيل المعركة ويتلقون الأوامر والتعليمات من القائد الأعلى ؛ وكان الجند ينظمون وفقا للأقاليم والمدن ، فيؤلف الأندلسيون مثلا قسما خاصا من الجيش ، يحمـل أعلام إشبيلية وقرطبة وجيان ومالقة وغرناطة وغيرها . ولـكن قوى الحرس الخاص كانت تؤلف من أشجع الجند من مختلف الولايات ، ويشترط فى قبولهم أن يكونوا من ذوى القوام

الحسن ، والشجاعة الفائقة ، والقوة والبراعة . وجمع يوسف بن تاشفين بواسطة تجار الرقيق فى إقليم غانة عدداً كبيراً من العبيد ، واختار منهم أمهرهم وزودهم بالسلاح والخيل ، ودربهم على جميع فنون القتال ، وأنشأ منهم حرسه الخاص الأسود من ألفى رجل . وأنشأ على مثل هذا النمط حرساً خاصا من الأندلسيين ، يتألف من فتيان من النصارى المعاهدين الذين يحتم عليهم اعتناق الإسلام ؛ وكان يوسف يحبوهم بعطفه وصلاته ، وينعم على من امتاز منهم بالإخلاص والشجاعة بمختلف الهبات من الخيل والثياب والسلاح والعبيد . وكان علىّ بن يوسف أول أمير مرابطى اختار حرسه الخاص من بين النصارى ، وهو تصرف كان له وقع سيء بين المسلمين المحافظين .

وكان الجند عند السير ينظمون كما لو كانوا على وشك خوض المعركة ؛ وكانت الأقوات والخيام تحمل وراء الجيش على ظهور الدواب ؛ ويتبعها الرعاة وهم يقودون قطعان الماشية من كل صنف ؛ ومتى حط الجيش رحاله ، أقيم معسكر فى منتهى الانتظام . وكان يوسف بن تاشفين لا يقتصر فى استعمال الجمال على حمل الأثقال ، ولكنه كان فى حروبه بالأندلس ضد النصارى يستعملها بالأخص مكان الخيل لكى يستعين بمنظرها الغريب على بث الروع فى نفوس الأعداء ، ويقال إن هذه الخطة نجحت فى موقعة بطليوس ؛ ومما يلفت النظر أنه لم يرو قط أنهم استعملوا الفيلة فى الحرب مثلما كان يفعل القرطاجنيون القدماء .

وكان المرابطون فى أيامهم الأولى ، حينما قامت دولتهم وازدهرت ، يقاتلون فى الحروب تحت قيادة يوسف بمنتهى الإقدام والشجاعة ، ويطلبون الموت شهداء فى سبيل الإسلام اجتناء لنعيم جنة الخلد ؛ ومن ثم كانت هجماتهم من العنف بحيث لم يقو أحد على ردهم ؛ وكان هذا الشغف بالكفاح يبدو بنوع خاص فى الجهاد ضد النصارى الأسبان ؛ وكانت الصلاة تقام قبل بدء المعركة ، ومتى تمت هزيمة العدو ، أقيمت أهرام من رؤوس القتلى النصارى ، وأذن المؤذنون عليها للصلاة كأنها مآذن ؛ وأذيعت أنباء النصر بين الشعب من منابر المساجد

وقرئ منها للناس بيان أمير المؤمنين عن الموقعة .

وكان الخليفة يختص من الغنائم بالخمس وفقاً لأحكام الإسلام ، ويوزع الباقى بين الجند .

والظاهر أن المرابطين بالرغم من بسالتهم فى المعارك ، وبالرغم من أنهم كانوا يعرفون آلات الحصار وطرائق رميها ، لم يكونوا على براعة كافية بفنون الحصار ؛ ويرجع السبب فى ذلك إلى أن دعامة قوتهم كانت ترتكز إلى الفرسان ، وهم أقل براعة فى فنون الحصار . على أنهم كانوا يجيدون الامتناع بالقلاع ، ويجيدون تحصينها ، وقد دللوا فى مواطن كثيرة على أنهم يحسنون الدفاع عن الأماكن الحصينة .

وكان الأسطول يتألف من سفن النقل أكثر مما يتألف من سفن القتال ، وذلك لأن الغرض الأساسى من إنشائه ، هو حفظ المواصلات بين المغرب والأندلس ونقل الجند ؛ وقد استخدم الأسطول فى فتح بلنسية والجزائر الشرقية (البليار) ولكن لم تنشب أية موقعة بحرية .

وكانت اسبانيا المسلمة فيما يتعلق بالحكم والإدارة فى ظل المرابطين ، كأنها عبارة عن معسكر ضخم ، وذلك نظراً لاضطرام الحرب ضد النصارى بلا انقطاع ، ولأن المرابطين كانوا يرتابون فى ولاء الأندلسيين ؛ وهكذا كانت الأندلس تعامل دائماً كولاية على وشك الخروج والثورة ، ويحتلها باستمرار سبعة عشر ألف فارس من المرابطين ، يقيمون فى المدن والقلاع الهامة ؛ منها فى إشبيلية حامية من سبعة آلاف ، وفى غرناطة حامية من ثلاثة آلاف ، وفى قرطبة حامية من ألف ؛ وكان كل فارس يتقاضى مرتباً شهريا قدره خمسة دنانير مرابطية ، هذا عدا الطعام المجانى ؛ وكان قواد هذه الحاميات وكذلك الولاة وقضاة المدن ، ومعظم الموظفين من المغاربة ، ولاسيما من اللمتونيين ؛ أما المسلمون من الأصول العربية والمصرية والسورية والفارسية فقد أهملوا وأغضى عنهم ؛ وعلى هذا فقد كان من الطبيعى ألا يرى مسلمو الأندلس فى المرابطين سوى طغاة ظالمين . وفى عهد يوسف بن

تاشفين كان من المتعذر أن تبدو المساوئ التي كان من المحتوم أن تترتب على نظامه وصنوف الظلم والإرهاق التي يرتكبها الولاة ، لأنه كان من وقت إلى آخر يطوف بنفسه أرجاء مملكته الشاسعة ، ويتحرى أحوال المدن وحكوماتها ، ويستمع إلى الظلامات ، ويتخذ ما يجب لإقامة العدل وحفظ الأمن ؛ ولكن المساوئ غلبت في عهد الملوك الضعفاء بسرعة ولاسيما في الأندلس ؛ وكان الأندلسيون أكثر احتمالا لخشونة الجند والقادة ، لأنهم كانوا على الأقل رجالا تغلب عليهم البساطة والصراحة ، بعيدين عن الخداع والجشع ؛ ولكنهم لم يحتملوا القضاة والعلماء الذين اختصوا بالفصل في شؤونهم ؛ ذلك لأنهم بدلا من أن يولوهم العدل والحماية كانوا يغلبون في معاملتهم الظلم والاضطهاد والخديعة والجشع وكل صنوف الشر والإرهاق ؛ وكان الموكلون بتحصيل الضرائب عادة من اليهود ، يجمعون المكوس من المسلمين والنصارى المعاهدين ، طبقا لعدد الأنفس ، وكانوا بذلك أداة في يد الموظفين يوجهونهم وفق أهوائهم وجشعهم ؛ ثم انتهى الأمر بأن حذا الجند حذو الموظفين وأخذوا يعتدون في المدن على حريات الأفراد وأموالهم ، وهكذا جنح الشعب إلى الثورة ، وانتهى المرابطون بأن فقدوا الأندلس سراعا حينما غزاها الموحدون .

وكان لايزال يقطن جنوبي اسبانيا في أوائل القرن الثاني عشر ، كثير من النصارى المعاهدين Mozarabes [1] ، وكانوا يتمتعون بحرية الشعائر ، ويحتفظون ببعض القوانين القوطية ولهم أساقفتهم وقضاتهم ؛ ولكن حدث أن ثار النصارى المعاهدون ليرفعوا عنهم النير الأجنبي ، وليساعدوا ألفونسو الأول ملك أراجون في حملته ضد غرناطة ومالقة ، فترتب على ذلك أن عمل خليفة المرابطين على تشريد معظم السكان النصارى ونقلهم من الأندلس إلى إفريقية [2] ؛ فهلك معظمهم من الحرمان وتغير الطقس ، ودخل بعضهم في جيش الخليفة ، وحارب معه ، وألقى

(١) راجع الهامش في ج ١ ص ١٥٣ .
(٢) راجع تفصيل ذلك في الجزء الأول ص ١٥٤ — ١٥٦ .

أمير المؤمنين على ابن تاشفين أن النصارى يستطيعون أن يؤدوا كثيراً من الخدمات ، فعين فى بلاطه فرساناً من النصارى ، وأنشأ منهم فرقة خاصة فى الجيش ، أسدت إليه خدمات طيبة فى حربه ضد الموحدين ؛ وعهد إلى النصارى بتحصيل الضرائب فى المغرب ، على نحو ما كان يحدث فى الأندلس من قيام اليهود بهذا العمل .

ولم يتمتع اليهود — وكان عددهم كبيراً فى المغرب والأندلس — بنوع من التسامح إلا فى عهد خلفاء يوسف بن تاشفين . وقد كان يوسف شديد العداء لليهود ، وكان يريد أن يرغمهم على اعتناق الإسلام ، لأنهم فى زعمه ، وكما ورد فى بعض الكتب القديمة ، تعهدوا أيام النبى باعتناق الإسلام ، إذا لم يظهر مسيحهم المنتظر بعد خمسمائة عام . ولم يستطع اليهود اتقاء الاضطهاد إلا بعد أن بذلوا مبالغ طائلة من المال ، واشتروا بذلك سلامتهم وحرية شعائرهم .

ولم يبد سلاطين المرابطين كبير عناية بأمر العلوم والفنون والشعر ، وتقدم المعارف ؛ وقد اضطهدوا كل ما عنيت الدول العربية بتشجيعه من قبل ؛ وطاردوا العلوم الفلسفية والكلامية التى تنكرها التعاليم المرابطية ، وحظروا قراءة الكتب التى تحتويها وأحرقوها علناً ؛ وكذلك حرمت وأحرقت جميع الكتب التى تتضمن قصص الفروسة والقصص العادى ، ولم يحذ الأمراء المرابطون حذو أسلافهم العرب إلا فى فن العمارة ؛ فقد أنشأ يوسف بن تاشفين بالأخص كثيراً من المساجد والثكنات والقياسر ، والمساكن ، واختط الشوارع والأسواق ، ولم يدخر وسعاً فى العمل على ترقية جميع المنشآت الضرورية والنافعة .

٢ — نظم الدولة وفنون الحرب عند الموحدين

كانت نظم الدولة عند الموحدين ترجع إلى أسس دينية ؛ وكانت أقل طغياناً من نظم المرابطين ، وكان الموحدون أقل عداء للتربيـة والعلوم ؛ ومع ذلك فقد كانت نظمهم كلها ترمى إلى تأسيس دولة عسكرية ؛ ومن ثم فقد كانت دولتهم تشبه دولة المرابطين من وجوه كثيرة ، سواء فى قيامها أو نموها ثم سقوطها .

وكانت دولة الموحدين ترمى إلى إحياء مجد الإسلام الذابل فى شمال إفريقية ، وإن لم يكن ذلك على يد أسرة عربيـة ، بل على يد أسرة من أهل البلاد . وقد وضع أسس هذه الدولة داعية دينى ، زعم أنه المهدى محيى مجد الإسلام فى المغرب وإمام الدولة الجديدة .

وقد لقيت نظم الدولة التى وضعها المهدى تغييرات جوهرية على يد مؤسس الدولة الموحدية ، ووارث سلطان المهدى ، ونعنى عبد المؤمن بن على ، وهو من أعظم القادة والساسة فى العصور الوسطى ؛ وقد كان شأنه فى تأسيس أسرته أعظم من شأن يوسف بن تاشفين بالنسبة للأسرة المرابطية . ويسمى بعض المؤرخين العرب سلاطين الموحدين بنى عبد المؤمن ، نسبة إلى مؤسس الأسرة . وكان عبـد المؤمن أحد العشرة الذين اختارهم الإمام المهدى ليكونوا وزراءه ووضع فيهم أعظم الثقة ؛ وقد زود منذ فتوته بأعظم سلطة ، واستطاع بعد موت سيده ، بدهائه وعظيم هيبته وبراعته الحربية التى دلل عليها من قبل ، أن يستخلص السلطان لنفسه ؛ وبعد أن قضى على دولة المرابطين ، تبوأ عرش مراكش ، ونادى بنفسه خليفة الموحدين وأمير المؤمنين ، ووضع المملكة الجديدة التى شملت حدود الدولة الراحلة ، نظما اشتقت من نظم الموحدين وتعاليم المهدى وصبغها بنظمه العسكرية الخاصة ؛ ودعى فى الخطبة فى المساجد التى طهرت من جديد لخليفة الموحدين كما كان يدعى لخليفة المرابطين من قبل ؛ بل لقد أمر عبد المؤمن بهدم مساجد مراكش وبنائها من جديد ؛ وضرب الموحدون سكة جديدة مربعة مكان السكة المرابطية المستديرة ، ونقش عليها إلى جانب اسم الخليفة القائم والعبارات الإسلامية المعتادة اسم المهدى أيضاً ، وهو مما يؤكد أصل الدولة الدينى ؛ كذلك ذكر اسم المهدى فى الصلاة ، وكان يحج إلى قبره فى تينمال ، كما يحج إلى قبر النبى . (كذا)

وكان لون الموحدين السياسى البياض ؛ ويرتدى الموحدون المعاطف البيضاء فى الحفلات الرسمية ؛ وكانوا يستعملون إلى جانب البياض ، اللون الأخضر ، بيد

أنهم كانوا يقصرون استعماله ، فيما يظهر ، على بعض المناسبات الخاصة ، ولا سيما عند إعلان الجهاد ضد النصارى .

وكذلك لم يكن عند الموحدين قانون ثابت لوراثة العرش ؛ وكان السلطان يختار بنفسه ولي عهده من ولده وفقاً لمشيئته ، وذلك بغض النظر عن حقوق الولد البكر ؛ ولما انقطع تسلسل الوراثة من الأب إلى الابن ، عجلت المنازعات على العرش بانهيار المملكة ؛ وكان بوسع أمير المؤمنين أن يحصل لولي العهد الذي اختاره على مبايعة بالطاعة من مجلس الدولة والزعماء ، بل كان يشركه أحياناً في الحكم معه كشريك في الملك ، وفي تلك الحالة يذكر اسمه في الخطبة إلى جانب اسم أمير المؤمنين ؛ وكانت مدينة تينمال التي دفن بها المهدي ، أيضاً مدفناً لملوك الموحدين .

وعند ما يتولى السلطان الملك ، يبايعه بالطاعة أولا الحاضرون من أمراء بني عبد المؤمن ، ثم الوزراء ، ومجلسا الدولة ، والزعماء ، ثم الشعب أخيراً ؛ ويذاع نبأ جلوسه في جميع أنحاء المملكة ؛ ويتخذ كل سلطان شعاراً خاصاً لتوقيعه وأعلامه الملكية .

وكان الأمراء الموحدون ينعتون أنفسهم بلقب السيادة فيتقدم اسمهم دائماً لقب « السيد » ؛ وتوزع بينهم ولايات المملكة ؛ وكان ذلك من أهم الأسباب التي عجلت باضمحلال دولة الموحدين إذ ثارت المنازعات على العرش ، ولم يكن يعوز الأمير الطموح أن يعمل لاستقلاله عن العرش ، بل أن يدعي الخلافة لنفسه .

وكان يعاون أمير المؤمنين في تصريف شؤون الحكم عشرة وزراء كان كبيرهم يتخذ لقب الحاجب كما كانت الحال أيام الأمويين ؛ وكثيراً ما كان السلطان يعين أولاده في سلك الوزارة ؛ وكان الحاجب يقوم بتبليغ المراسيم والأوامر التي يصدرها الخليفة شفويا ؛ وإذا اقتضى الأمر اصدار مراسيم مكتوبة ، وقعها

الحاجب كما يوقعها الوزير الكاتب[1] ، وكان يتولى الإشراف على القضاء ثلاثة من الوزراء يسمون قضاة فى نفس الوقت ؛ وثلاثة فقهاء يقومون بالنظر فى كل ما يتعلق بالدين والتعليم والمعارف ؛ ويتولى الشؤون المالية وزير يسمى والى الخزانة ؛ وهؤلاء الوزراء جميعاً لم يكن عملهم قاصراً على أعباء الحكم وشؤون الدولة ، بل كانوا أيضاً موظفين فى البلاط ، عليهم أن يعنوا بكل ما يتعلق بشخص الخليفة ، باعتبارهم خدامه الأوائل ، وعلى ذلك فقد كان من بينهم الطبيب الخاص ، والنديم ، والقارئ ، والأمين .

وكان ثمة إلى جانب هؤلاء الوزراء العشرة مجلسان يعاونان أمير المؤمنين فى تصريف الشؤون ؛ ولم يكن فى اجتماع هذين المجلسين ما يحد من إرادة أمير المؤمنين أو سلطانه ، وإنما كان القصد من إنشائهما أن يجد أمير المؤمنين فى معاونتهما وسيلة لتخفيف أعباء المهام عن كاهله ؛ وكان أمير المؤمنين يعهد بالبحث والفصل فى الأعمال التى ليست لها أهمية خاصة إلى مجلس الخمسين ، وبالأعمال الأقل أهمية إلى مجلس السبعين . ثم حدث أثناء حكم المستنصر ، وقت أن كان قاصراً تحت الوصاية ، أن اغتصب أعمامه وأبناء أعمامه السلطة فى الأقاليم ، وانتزع مجلسا الدولة أيضاً لأنفسهما كثيراً من السلطة ، حتى أصبحا يقرران أمر وراثة العرش ، ويعينان أو يعزلان ، وفق مشيئتهما ، خليفة بعد خليفة . ولكن الخليفة المأمون عول على أن يسترد سلطان العرش المطلق ؛ ولما أصدر أعضاء المجلسين قراراً بعزله أمر بهم فأعدموا ؛ وغير فى نظام المجلسين وأنشأهما من جديد حرصاً على المظاهر ؛ وقصر عملهما على معاونة وزير العدل ، والفصل فى المنازعات بين الأشخاص العاديين ، وحظر عليهما التدخل فى أى شأن من شؤون الدولة . وأراد المأمون أيضاً أن يحمل الشعب على احترام نظامه الجديد ، فذهب إلى حد الطعن فى نظام المهدى ، وفى شخص مؤسسه ، وأعلن أن المهدى محتال مخادع ، وكتب

---

(١) هو الوزير الذى يتولى كتابة الوثائق السلطانية وصياغتها ؛ ومنصبه يقابل منصب كاتب ديوان الإنشاء فى الدول المصرية .

كتابا فى المساوئ التى يرتكبها مجلسا الدولة ، ونوه بأهمية المبدأ القائل بأنه لا يصح أن يوجد إلى جانب الحكومة المطلقة أية سلطة أخرى أو قوانين أخرى غير شريعة الله (أى القرآن) وإرادة الأمير .

وكان عبد المؤمن قد قام قبل ذلك بإحداث بضعة تغييرات فى النظام الأساسى الذى وضعه المهدى ؛ وكان المهدى قد قسم الموحدين جميعاً إلى عشر طبقات ؛ وكانت هذه الطبقات العشر تأتى قبل باقى الشعوب الخاضعة لسلطان الموحدين ؛ وكانت الطبقة الأولى وفقاً لهذا النظام تتألف من الوزراء العشرة ، وتتألف الثانية من مجلس الخمسين ، والثالثة من مجلس السبعين ، والرابعة من العلماء ، والخامسة من الحفاظ والمحدثين ، والسادسة من أقرباء المهدى ، والسابعة من أبناء قبيلة هرغة وهى قبيلة المهدى ، والثامنة من أهل تينمال ، والتاسعة من أهل جرميوت ، والعاشرة من باقى جند الموحدين ؛ وكان لكل طبقة من هذه الطبقات مكان خاص للاجتماع فى السلم ووقت الحرب ، وعند السير ، وحين إقامة المعسكرات .

ولما تولى عبد المؤمن الحكم ، ألغى نظام الطبقات العشر ولم يبق منه سوى مجلسى الخمسين والسبعين . أما النظم العسكرية فتركها برمتها على ما كانت عليه وقت المهدى ، ولم يحدث فيها سوى تحسينات يسيرة بوصفه قائد الجيش الأعلى ؛ وكانت دعامة جيش الموحدين ، على نقيض جيش المرابطين ، ترتكز إلى قوة المشاة ؛ وكان تقسيم الجيش كله ، يجرى حسب الطريقة الجرمانية القديمة ، على نظام العشريات ؛ ولكل وحدة قائدها الخاص ؛ وكانت الصفوف تكتسب على هذا النحو براعة فى حركاتها وتحولاتها ، إذ كان الجند والقادة على جانب عظيم من المران ؛ وكان المشاة من جند الموحدين يحشدون بالأخص من القبائل البربرية ، ويحملون حراباً طولها اثنتا عشرة قدماً ، وتسمى « الأمراس » ، يلقونها فى وجوه أعدائهم بمنتهى العنف .

وكان إنشاء جيش الموحدين يقوم على عناصر مختلفة من الجند ؛ وكانت نواة الجيش تتألف من الجند النظاميين والحرس ، وهم نخبة بارعة فى جميع ضروب

القتال ؛ وكان الحرس يتألف من العبيد ومن رجال القبائل ؛ وفى أواخر أيام دولة الموحدين أنشئ أيضاً حرس من الأندلسيين ، وحرس من الأسبان . أما باقى الجند النظاميين فكانوا من الذين يجب على القبائل المغربية أن تقدمهم إلى الخدمة العسكرية وفقاً لنظام خاص ، وكانوا يدربون على الفنون العسكرية زمناً طويلا ؛ وإلى جانب هذه الجنود النظامية التى كان يزودها الأمير بالسلاح ، وتمنى الدولة بالإنفاق عليها ، كانت القبائل عند ما تنشب الحرب تقدم نصيبها من المشاة والفرسان والسلاح والمؤن ؛ وعند ما تنشب حرب الجهاد ضد الأسبان النصارى كان يدعى المتطوعون إلى القتال فى سبيل الله ؛ وكانت هذه الجنود المختلفة تحارب فى المعركة ، تفرق بينها أعلامها المختلفة الألوان والأشكال ، ولكن بحيث يتخذ قوادها بالاتفاق مع القائد الأعلى نفس الأماكن التى خصصت لهم من أمير المؤمنين .

وكان كل ما يتعلق بالحرب ينظم تنظيما دقيقاً ؛ وكان النظام الصارم يسود أثناء السير وفى المعسكر ؛ ولما كنا قد تحدثنا فيما تقدم فى تاريخ عبد المؤمن عن نظام السير لدى الموحدين ونظام إقامة المعسكر ، فانا نكتفى بالإحالة عليه اتقاء التكرار[1] .

وكانت تتخذ قبل الإقدام على خوض المعركة عدة إجراءات ، فيعقد عادة مجلس حربى ، يبحث فيه أمير المؤمنين — أو القائد الأعلى فى غيبته — مع قواد الوحدات المختلفة خطة المعركة ، ويتقرر فيه متى وأين تقوم كل فرقة بالهجوم أو الارتداد ، أو الانتظار فى المؤخرة . وكان من أهم فنون الحرب لدى الموحدين ، خدع الحرب ، ولم يشتبكوا فى موقعة ما دون أن يدبروا فيها نوعاً من الكمين لأعدائهم ، كأن يتصنعوا الفرار ونحو ذلك ؛ وكانوا يستطلعون على يد عيونهم وقواتهم الخفيفة كل ما يتعلق بالعدو من عدده ومواقعه وأحواله ، ثم يرتبون خططهم على أساس هذه المعلومات .

(١) راجع ما كتبه المؤلف عن ذلك فى ص ٥٥ و٥٦ من هذا الجزء .

ومتى استقر الرأى على خوض المعركة ، فإن أمير المؤمنين بعد أن يستعرض الجند ، وبعد أن يتم ترتيبهم للقتال ، يضرب قبته الحمراء ، يخفق عليها علمه الأبيض ، ويستحضر فرسه المطهمة ، ثم يرتدى ثوب عبد المؤمن الحربى ، ويجلس فى خيمته على درعه ، وفى إحدى يديه سيفه المسلول ، وفى الأخرى المصحف ؛ وكانت هذه نذر اقتراب المعركة .

وكان نظام المعركة يقوم عند الموحدين عادة على فكرة التربيع[1] ؛ وكل قسم من الجيش يوضع تحت إمرة قائد خاص ، ويؤلف جانباً من الزوايا الأربع لترتيب المعركة ؛ وكانت قوة الجيش الرئيسية تتألف من المشاة النظاميين ، وتوضع فى الصفوف الأولى ، وتسلح بحراب طويلة جدا ، يتقلدها الجند بأيديهم وأرجلهم ؛ ويلى هؤلاء صفوف من الجند قد سلحوا بالسيوف وتقلدوا الدروع الكبيرة المستديرة ، ثم يليهم حملة النبال والقسى ؛ وكانت قوة الفرسان تحتل المكان الأوسط من المربع ، ويخصص لها أمكنة معينة فى جميع جوانب المربع وتفتح لها مخارج سريعة ، بحيث تستطيع صفوف الفرسان أن تنطلق منها كما تنطلق من القلعة المحصورة ، ثم تعود إلى أماكنها الداخلية ، دون أن تخل بنظام المشاة ؛ ويقوم بالهجوم الأول أولئك المتطوعون الذين وهبوا أنفسهم فى سبيل الله ، تحت قرع الطبول وصوت الأبواق والقرون ، رافعين أعلامهم الخضراء ، تؤيدهم القوات الخفيفة ؛ فإذا استطاع العدو أن يرد هؤلاء وأن يتقدم حتى مواقف الجنود الموحدية النظامية ، وقف حملة الحراب أمامه كالسد الحديدى الذى لا يخترق ، واستقبل حملة القسى والنبال المهاجمين بسيل من السهام والحجارة ؛ فاذا استطاع العدو أيضاً أن يخترق صفوف حملة الحراب ، وقف أمامه حملة السيوف والدروع متأهبين لرده ، وأمكن للفرسان أن يخفوا إلى معاونتهم من الأماكن الداخلية ؛ وحتى لو استطاع العدو أن يتغلب على القلب والجناحين ، ولاح له بعد احتلال الأماكن الداخلية أنه قد أحرز النصر ، ففى الإمكان أن

(١) راجع الحلل الموشية ص ٩٨ ؛ وقد أشير إلى هذا النظام فى الجزء الأول ص ٢٠٩ .

تستمر المقاومة ؛ وحينئذ تتقدم قوات الضلع الرابع من المربع ، وهى الاحتياطى المكون من صفوة الجند ، ولا سيما جند الحرس الخاص ، ويقودها للقتال أمير المؤمنين بنفسه ، وكثيراً ما كانت تحرز النصر بشجاعتها وخبرتها ؛ وكانت هذه القوات تمتنع أحياناً داخل دائرة من السلاسل الحديدية ، تبرز منها الحراب الطويلة ، فتثخن بذلك فى العدو قتلاً ؛ ولما كانت قوة الجيش الرئيسية لدى المرابطين والنصارى الأسبان تتألف من صفوف الفرسان الثقيلة ، فقد كانت هذه الطريقة فى ترتيب أوضاع المعركة ، تفيد أيما فائدة فى رد العدو الذى يتفوق فى قوى الفرسان .

وكان الموحدون يتفوقون كثيراً على المرابطين فى فن الحصار ، وكانت أمنع المدن تتحطم أمام آلات الحصار والقذف التى يستعملونها ؛ وكان عبد المؤمن بنوع خاص أستاذاً فى هذا الفن الحربى ؛ وكان يستعين بتأييد العناصر ، حينما عجزت شجاعة الجند وآلات الحصار ؛ ففى حصار فاس التى قاومت أسوارها المنيعة كل جهوده ، استعان على إسقاطها بمياه النهر ، وذلك بأن سلطها على المدينة بعد أن حجزها حيناً فى خزانات كبيرة ، ثم أطلقها فجأة فى مجارى صناعية على أسوار المدينة ؛ وأحرق وأسقط أبراج وهران بواسطة نار محرقة يؤيدها قصف الآلات ؛ وافتتح المهدية بوسائل مماثلة ، وحطم جدرانها التى بلغ من سمكها أن كان يسير عليها فارسان متجاوران ؛ واستطاع الموحدون أيضاً الاستيلاء عنوة على مراكش وذلك بالرغم من قلاعها المنيعة وسكانها الكثيرين ؛ واستولى الموحدون فى الأندلس على كثير من القلاع ، حسبما ذكرنا فى سياق تاريخهم ؛ وسقط فى أيديهم كثير من القلاع الواقعة فى أصعب المنحدرات والمفاوز الجبلية وذلك بفضل آلات حصارهم المنيفة التى كانت تقذف كتلاً هائلة من الحجارة ، وكرات ملتهبة من الحديد . وليس فى وسعنا أن نقول بطريق التحقيق أن هذه الآلات كانت مدافع ، وإن الموحدين كانوا قد عرفوا البارود يومئذ ؛ بيد أنه يحتمل أن تكون هذه هى الحقيقة . ذلك أنه لم يمض قليل على ذلك ، أعنى فى

أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، حتى شاع بين مسلمى إفريقية استعمال الآلات القاصفة التى تقذف الكرات الملتهبة ؛ ووصف هذه الآلات لايدع مجالا للشك فى أن هذه الكرات كانت تقذف بواسطة البارود .

كذلك كان للموحدين قوة بحرية لا بأس بها ؛ فضرورة الاتصال الدائم بين إفريقية واسبانيا ، ونقل مئات ألوف الجند إلى شبه الجزيرة كانتا تحتمان الاحتفاظ بأسطول نقل ؛ بيد أن أمراء الموحدين كانوا إلى جانب ذلك يحتفظون بأسطول حربى ؛ وقد افتتحوا الجزائر الشرقية وكثيراً من الثغور الواقعة على البحر بمعاونة أسطولهم ؛ وفى عهد يوسف أبى يعقوب ، نشبت عدة مواقع بحرية بين الموحدين والقطلونيين على مقربة من طرطوشة ، وأحرز أمير البحر الموحدى كثيراً من ضروب التفوق . وفى حصار المهدية التى كان يحتلها النورمانيون اصحاب صقلية ، قدم من صقلية أسطول نصرانى من مائتى سفينة ليحاول إنقاذ المدينة فهاجمه أمير البحر الموحدى عبد الله بن ميمون ، وكان لديه أسطول كبير من السفن الأندلسية والمغربية ، ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة بحرية كبيرة ، لم تغن فيها براعة النورمانيين فى البحر شيئاً ، وأحرز المسلمون عليهم نصراً باهراً ، وأحرقوا وأغرقوا جانباً من سفنهم واستولوا على جانب آخر منها .

وكان عبد المؤمن قد وضع حدود الولايات والمناطق المختلفة ، وفرض على كل منها الضرائب المناسبة لحالتها وثروتها ومحاصيلها ، وكذلك ما يجب أن تقدمه كل منها من الجند من مختلف الأصناف سواء فى حرب الجهاد المقدسة ضد النصارى أو فى مقاتلة أى عدو آخر من أعداء المملكة . وكان ينظر فى ذلك إلى عدد السكان وحالة السكان ؛ فمثلا كانت مراكش تقدم أربعمائة بحار وثغرها مائة وخمسون ، وتقدم كل من طنجة وسبتة . ومرسى عريف ووهران ومرسى حنين مائة بحار ، وتقدم الأندلس ثمانمائة ؛ وكانت قبيلة كومية وحدها وهى من بطون زناتة تقدم عشرين ألف فارس ، وذلك لشهرتها بتربية الخيل ؛ كذلك كان يحدد نصيب كل منطقة ودائرة من السلاح عدداً وصنفاً ، وعدد الخيل ودواب

الخيل والجمال ؛ وكانت تقام مصانع السلاح فى مختلف أنحاء المملكة ، وتصنع فيها السهام والسيوف والحراب والدروع وغيرها من أدوات الهجوم والدفاع .

وأنشئت المدارس الحربية لكى تحفظ الروح العسكرية بين الموحدين وتعاون على إخراج القادة الأكفاء والمحاربين البواسل ؛ وكان يجمع لها الفتيان بالألوف وبالأخص من قبيلة مصمودة ، ويراعى بينهم وحدة السن ، فيدرسون آثار المهدى وتعاليمه ويحفظونها عن ظهر قلب ، ثم يتدربون على استعمال جميع صنوف السلاح وفنون الركوب والسباحة ، ويدرسون كل مايتعلق بالحصار والبحر والقتال ؛ وكانوا يتبارون فى السباق ، ورمى الحراب ، والقتال بالقوس والدروع ، والركوب ، والسباحة ؛ وكانت تقام بجوار مراكش بركة ، وضعت فيها القوارب والأفلاك وسفن الحرب الصغيرة ، وفيها يتعلم الطلاب التجديف ، وقيادة السفن ، وكل ما تتطلبه الحرب البحرية من فنون ومهارة ؛ وكان هؤلاء الفتيان الذين يسمون بالحفاظ يعرضون من وقت إلى آخر أعمالهم وبراعتهم أمام أمير المؤمنين ؛ ويخص أولئك الذين يمتازون منهم بالبراعة والجرأة والعزم وحضور البديهة بجوائز الأمير وصلاته ، أو يتلقون منه ثناءه ومديحه فى عبارات مشجعة ؛ فكان ذلك يذكى همم الفتيان للحظوة برضى الأمير وعطفه ؛ وكان التعليم فى هذه المدارس الحربية على نفقة الحكومة ويمنح الطلاب الخيل والسلاح مجاناً ؛ وكان يتخرج فيها بين أولئك الحفاظ معظم القواد ، وحكام القلاع ، وكبار الضباط .

وهناك كثير من الدلائل تؤيد أن الجند النظاميين الموحدين كانوا يتقاضون مرتباً ؛ وذكر بعض المؤرخين المسلمين أن بعض الأمراء كانوا يهبون الجند كثيراً من المال لكى يكسبوهم إلى جانبهم .

وفيما يتعلق بإدارة المملكة التى أمر عبد المؤمن بمسحها جميعاً من حدود الصحراء إلى جبال سيارا مورنيا (جبل الشارات) فى اسبانيا ، ومن المحيط الأطلنطى إلى الحدود المصرية ، فقد رأى أمير المؤمنين عبد المؤمن نزولا على رغبة أشياخ القبائل ، أن يقسم إدارة الولايات بين أبنائه الأمراء (السادة) على أن تكون

هذه الإدارة وراثية فى عقبهم ؛ وكان يقوم بالعمل إلى جانب هؤلاء السادة نفر من الحكام (النواب) والوزراء يتوارث أبناؤهم وأقاربهم مناصبهم أيضاً ؛ وكانت هذه الولايات أو الإمارات تقسم إلى دوائر ، لكل دائرة حاكمها أو قاضيها الخاص ؛ فمثلا كانت ولاية بلنسية تشمل دوائر شاطبة ودانية ومرسية والجزائر الشرقية ؛ وكانت ولاية قرطبة تشمل دوائر بياسة وجيان وأبده وأندوجار وغيرها ؛ وولاية إشبيلية تشمل دوائر الغرب وشريش وشذونة وأستجة وقرمونة ومالقة ؛ وولاية غرناطة تشمل دوائر المرية ووادى آش والمنكب وغيرها . وكانت الضرائب تفرض على الولايات وفقاً لحالة السكان وتربة الأرض ، وكذلك وفقاً لخصبها وإنتاجها ونوع الإنتاج وثروتها من الدواب ؛ وكان من المتبع عند جلوس الخليفة الجديد أن تترك المكوس المتأخرة ، وأن يوزع بيت المال مبالغ كبيرة على الفقراء ؛ وكان المشرف على بيت المال والمدبر لأموال الدولة يلقب بوالى الخزانة . وكان الوزراء ورجال البلاط والحشم يتقاضون مرتباتهم من الخليفة ، وكذلك يتناول القضاة والفقهاء من الخزانة الموحدية جرايات منتظمة ، وكثيراً ما كانت تزاد هذه الجرايات فى عهد الأمراء الأجواد ، وكانت جميع المنشآت العامة مثل المساجد والحصون (القصبات) والقصور والأبراج وجسور الماء والشوارع والقناطر ، والمستشفيات والملاجئ ينفق عليها من خزانة الدولة ؛ وكذلك يتقاضى الأطباء والمرضون فى المستشفيات مرتباتهم منها ؛ وكان الدخل يتكون فى مملكة الموحدين ، فضلا عن الضرائب العامة ، من محصول الذهب والفضة المستخرج من مناجم إفريقية والأندلس ، ومن الغنائم التى تؤخذ فى الحرب ، حيث كان للخليفة وفقاً للشريعة الإسلامية أن يتقاضى منها الخمس . وقد كان هذا الدخل عظيما بلا ريب ؛ يدل على ذلك ما قام به الخليفة يوسف أبو يعقوب وولده المنصور فى المغرب والأندلس من الأبنية العظيمة من متحصل المناجم وغنائم الحرب . وكان المنصور سيئ الأداء بالنسبة للقائمين بشأن البناء ؛ وقد كان هؤلاء يضطلعون بنفقات البناء ، بيد أنهم قلما كانوا يصبرون على هذه النفقات نظراً لضخامتها ؛

ذلك لأن حقوقهم كانت تؤدى ببطء ، وقلما كانوا يجرأون على المطالبة بها ؛ فاذا وفقوا إلى تقديم مطالبهم برفق ولباقة وفى الوقت المناسب ، ألفوا قبولا من الخليفة وأداء سريعاً .

ولما أخذت مملكة الوحدين فى الاضمحلال عقب موقعة العقاب فى عهد حكومة المستنصر الضعيفة ، واستطاع الولاة (السادة) من أعضاء الأسرة الملكية أن ينشئوا لأنفسهم حكومات مستقلة ، عمدوا إلى تنظيم الإدارة والمناصب وإجراء العدالة وفقاً لأهوائهم ؛ فكان القاضى أو الوالى لايستطيع الاحتفاظ بمنصبه إلا إذا لم يتقدم آخر إلى إحراز هذا المنصب بدفع ثمن أكبر مما دفعه هو . ذلك أن المناصب كلها غدت سلعاً تباع وتشترى ، وعكف الوظفون الذين جروا على شراء مناصبهم بالمال الطائل ، بدلا من تحقيق العدالة والنظام بين الناس ، على امتصاص دمائهم بشراهة ؛ فكان هذا من العوامل التى عجلت بسقوط دولة الوحدين .

٣ — لمحة عن حضارة الأندلس

فى عهد المرابطين والموحدين

ظهر المرابطون من بين سكان الصحراء البدو الساذجين ، فكانوا أعداء لكل حضارة عربية ؛ ومن ثم كانت حكومتهم كريح الصحراء اللافح حين يهب على الغياض النضرة ، تعمل لتحطيم جميع العلوم والفنون والصنائع التى وصلت فى ظل السيادة العربية فى الأندلس إلى ذروة التقدم والازدهار ؛ وكان أولئك الحكام القساة يمقتون القبائل العربية وثقافتها ، ويعملون على سحق هذه الثقافة بكل ما وسعوا ؛ فكانوا يطاردون العلماء الذين ينحرفون عن معتقداتهم ويحرقون كتبهم ، ويعملون بالأخص على تحطيم الروح الشعرية الأندلسية التى كانت تجد متعتها فى قريض الفروسة والقصص المفرق . وكانت قراءة هذه الكتب تحظر ويعاقب قارئها بأشد العقوبات ، وتعدم أينما وجدت ؛ وكانت المعاهد والمدارس

والمكتبات تتناقص شيئاً فشيئاً ، وكان قيام البقية الباقية منها يرجع إلى أن سيادة المرابطين لم تطل بعد القضاء على الأسر الملكية فى الأندلس أكثر من نصف قرن ، وإلى أن الأواخر من ملوك المرابطين قد غمرهم سحر التمدن دون أن يشعروا فكفوا عن مطاردة الحضارة والثقافة العربيتين ، ومالوا إلى مصادقة الشعراء والعلماء ، ولاسيما أولئك الذين شادوا فى نظمهم ونثرهم بمديح حكومتهم وغزواتهم . على أن سيادة المرابطين كان لها من جهة أخرى أثر حسن فى تكييف روح الشعب الأندلسى ، فقد حلت فى ظلها مكان الفروسة الهائمة ، والملاهى الناعمة ، والدعابة المصطنعة ، والفتور النسوي : روح حربية قوية ، واعتدال متقشف ، وذكاء فطرى ، ورجولة متينة .

ولقى فن العمارة ، الذى يهواه أغلظ الطغاة لدى المرابطين قبولا وتشجيعاً ؛ بيد أنه لم يصل فى ظلهم إلى ما وصل إليه فى عهد أسلافهم ، أو عهد أخلافهم الموحدين ؛ وعنى ملوك المرابطين بالأخص بإنشاء المساجد العديدة ذات الأبراج العالية ، وإنشاء الأسوار القوية حول المدن ، والقلاع المنيعة (القصبات) ، والقصور الشاسعة ؛ وكانوا يراعون فى جميع منشآتهم العناصر الضرورية قبل عناصر الفخامة والجمال . وقد أنشأوا مع ذلك بعض أبنية من المرمر ذات حدائق غناء ، وفساق بديعة ؛ على أن هذه المنشآت الفخمة كانت دائماً قليلة نادرة بحيث عنى المؤرخون بذكرها عناية خاصة .

ولم يكن الموحدون أيضاً من حماة العلوم والحضارة ؛ وقد نشأوا أيضاً فى مهاد القبائل المنكرية الساذجة ؛ بيد أنهم لم يبدوا من الغلو فى مطاردة الثقافة مثل ما أبداه أسلافهم ؛ وقد أبطلوا مطاردة القبائل العربيـة ، وأباحوا دراسة تعاليم الفيلسوف الغزالى بعد أن حظرت فى عهد المرابطين ، وأباحوا قراءة كتبه وغيرها من الكتب المحظورة ، وأطلقوا حرية العلوم والفنون ؛ ولما وقفوا على أسرار الحضارة العربية التى أخذت تنهض من جديد ، غدوا من حماتها ، وعنوا بتشجيع بعض أصناف العلوم ونشرها ؛ وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة فى نفس

الوقت فى جميع أنحاء المملكة ، وغمرت الشعب موجة من الرخاء ؛ وهو من العناصر المشجعة للتقدم العقلى بين الشعوب ؛ وازدهرت الزراعة فى الأندلس بنوع خاص ، وعولجت بالأساليب الفنية ، وتقدمت زراعة الفاكهة ، وكانت تزرع فى ولايتى بلنسية وإشبيلية بالأخص مساحات كبيرة من قصب السكر ؛ وتنمو حول مدينة إشبيلية غابات كبيرة من الزيتون ، وبالقرب منها نحو مائة ألف معصرة لاستخراج الزيت ؛ وكانت الترع تخترق جميع أرجاء ولاية بلنسية وتروى أراضيها ؛ وكانت تقوم إلى جانب مصانع السلاح المديدة ، مصانع مختلفة أخرى ولاسيما مصانع الصناعات الجلدية فى قرطبة ، ومصانع الورق فى شاطبة ؛ وقد عرف ورق الكتان فى اسبانيا منذ القرن الثانى عشر ، وكتبت معاهدة صلح عقدت فى سنة ١١٧٨ م بين الفونسو الثانى ملك أراجون والفونسو ملك قشتالة على ورق من هذا النوع ؛ وكانت التجارة تزدهر أيما ازدهار فى ثغور المرية ، وبلنسية ، ودانية ، ومالقة ؛ وإشبيلية .

وكانت المعاهد والمدارس التى أسست فى مراكش وفاس ترمى بالأخص إلى تخريج الجند البارعين أكثر مما ترمى إلى تخريج العلماء ، بيد أن العناية فى هذه المؤسسات لم تكن تقتصر على تربية الأجسام وتدريبها على فنون الحرب وحمل السلاح ، بل كانت تشمل تثقيف العقول ، وتزويدها بالمعارف الضرورية ، وتعاليم المهدى الدينية ؛ ثم كانت تنشأ معاهد خاصة بالعلماء ، وتميز طوائفهم وفقاً لمختلف الدرجات والكفايات ، ويمنحون مختلف الهبات والصلات ؛ وفى ذلك كله ما يدل على أن الموحدين كانوا يعنون بنواح أخرى غير الحرب وأنهم كانوا يشجعون العلوم والفنون ؛ بيد أنه لا ينكر أن ملوك الموحدين كانوا يعنون قبل كل شىء بالعلوم والفنون الضرورية التى يمكن الانتفاع بها فى الحياة بسهولة ، أكثر من عنايتهم بالعلوم النظرية الخالصة ، فنراهم مثلا يشجعون الطب والأطباء ، ويرفعونهم أحياناً إلى مرتبة الوزارة ، وينشئون المستشفيات للمرضى وذوى العاهات والعمى والعرج والضعفاء ، وينشئون

الشوارع والقناطر ؛ وفى البقاع المنعزلة القليلة السكان ينشئون الفنادق وأحواض الماء والآبار لينتفع بها السابلة ، ويحصنون الحدود ، ويزودون المدن بالقلاع والمساجد والثكنات والمخازن وجسور الماء .

وابتنى عبد المؤمن من الأموال التى غنمها من المرابطين عدة أبنية فخمة فى مراكش ؛ وكان من بين المساجد والمعاهد التى أنشأها المسجد الجامع الذى يتبع القصر ، وهو من صنع المهندس الشهير « الأحوص » المالقى ، وقد أنشأه على أبدع طراز وفن ؛ وكان بهذا المسجد مخارج وأروقة بديعة الصنع ، وممرات سرية تمتد خفية إلى القصر ، بحيث يستطيع أمير المؤمنين أن يزور المسجد وأن يغادره دون أن يراه أحد . وكان منبر هذا المسجد قطعة فنية رائعة ، صنع من خشب الصندل الأحمر والأصفر ، وصنع كل ما فيه من إطارات ومزالج ومقاطيع ومسامير من الذهب والفضة صناعة فائقة ؛ وكانت المقصورة التى يجلس بها أمير المؤمنين أثناء صلاة الجمعة ذات تركيب عجيب ؛ فقد كانت حسب أقوال المؤرخين المسلمين تسع نحو ألف شخص ، وكانت تتحرك بواسطة عجلات ثبتت فى أسفلها ، ولها ستة أذرع أو جوانب تمتد بواسطة مفاصل متحركة ؛ وقد صنعت هذه العجلات والمفاصل بحيث لا يترتب عليها عند تحريكها أقل صوت ، بل تدور جميعاً فى أتم سكون ، ونظمت الحركات بطريقة هندسية دقيقة بحيث تتحرك جميعاً فى وقت واحد متى رفع الستار عن أحد البابين اللذين يدخل منهما أمير المؤمنين إلى المسجد عند صلاة الجمعة ؛ وكانت المقصورة تبرز من جانب ، ويبرز المنبر من الجانب الثانى ، وتلتف الجوانب فى نفس الوقت حول مجلس أمير المؤمنين ، كذلك نظم المنبر بحيث يفتح بابه متى صعد إليه الخطيب ، ويغلق من تلقاء نفسه متى اتخذ الخطيب مكانه ، وذلك كله دون أن يسمع أو يرى أثر لهذه الحركات ، كذلك نظمت أبواب المقصورة على هذا النمط ذاته .

وأنشأ عبد المؤمن فى ظاهر مراكش حديقة غناء تبلغ مساحتها ثلاثة أميال مربعة وغرس فيها أطيب الفواكه وأندر الغراس وأكثرها تنوعا ؛ وكان الماء

يجلب إليها من أغمات ، وقد صنعت فيها عدة فساقى بديعة ؛ وكان إيراد أشجار الزيتون يقدر وحده فى كل عام بثلاثين ألف دينار موحدى .

وأنشأ فى تونس ، فى أعلى مكان منها ، حصناً ذا أبراج جميلة ، مثلثة الزوايا ، وأقيمت بين المدينة والحصن عدة مدارس ومعاهد ؛ وأوصل الماء الحلو من رباط الفتح إلى سلا بواسطة قنطرة مائية ؛ وأراد أن يخلد ذكرى زعيم من زعماء القبائل افتداه بحياته فى مؤامرة دبرت لقتله ، فابتنى له مدفناً عظيما ، وأمر أن تأتى عشر أسر من كل قبيلة مغربية إلى هذا المكان وتبنى حوله مدينة جديدة سميت بالبطحاء وغدت مزاراً يحج الناس إليه من كل فج[١] . كذلك أتم عبد المؤمن تحصين جبل طارق ، وأشرف على إتمامها الأحوص المهندس الفنان .

وكان يوسف ولد عبد المؤمن أيضاً من عشاق البناء ؛ وفى عهده أنشئ فى مارتله برج شاهق العلو ؛ وعنى بالأخص أن ينشئ فى إشبيلية عدة أبنية عظيمة منها مسجد فخم وإلى جانبه عدة مدارس ومعاهد ، ومنها قنطرة من السفن على نهر الوادى الكبير ، ثبتت فيها السفن معا بالسلاسل ، ومخازن كبيرة ، وأسواق للفاكهة ، ورصيف بطول النهر ، ومراسى للتفريغ زودت بالدرج ؛ كذلك أنشأ قنطرة مائية تمد إشبيلية بماء الشرب ؛ وعنى عناية خاصة باستغلال مناجم الذهب والفضة فى إفريقية والأندلس ، وكان منها مناجم غنية جدا فى مدينة جيان .

وكان يعقوب المنصور ولد يوسف أشد منه شغفاً بالأبنية الفخمة ؛ وقد ذكر المؤرخون المسلمون بين المنشآت العديدة التى أمر بإقامتها عدة ؛ منها فى مراكش مساجد بأبراج عالية وقصور ذات حدائق غناء ، وحصن ذو أبراج عالية ، ومنها مدينتان جديدتان إحداها بجوار سلا ، وهى رباط الفتح ولها مسجد فخم ، والأخرى فى الأندلس على نهر الوادى الكبير وتسمى حصن الفرج ؛ وأتم المنصور مسجد إشبيلية الكبير ذا المنارة العالية ، وزود برجه بزر ضخم ؛ وكان هذا الزر من الضخامة بحيث اقتضى الأمر توسيع الباب الذى أدخل منه ؛ وكانت الأعواد

(١) راجع ص ٥٩ من هذا الجزء .

الحديدية التى تحمله تزن أربعين ربعاً ، وصنعها ورفعها إلى أعلى المنارة المعلم أبو الليث الصقلى ، وموهت تلك التفافيح بما قيمته مائة ألف دينار ؛ وسمى هذا البرج فيما بعد بالجيرالدا Giralda ، وكان يستعمل فى الوقت نفسه مرصداً لرصد النجوم[1] ؛ ورفع الزر الضخم إلى قمة المنارة بطريقة فنية استعملت فيها الآلات ، وذلك باشراف الرياضى والفلكى الشهير جبر الذى ينسب إليه اكتشاف الجبر خطأ ؛ وابتنى محمد ولد المنصور حول مدينة فاس أسواراً جديدة ، وكان عبد المؤمن قد هدم أسوارها وزودها بقلعة ضخمة ، وأنشأ فى كثير من المدن الأخرى تحصينات قوية ؛ وأنشأ فى مراكش مسجداً فخما فى مكان منعزل قليل السكان ، وأمر سكان الأحياء المجاورة أن يصلوا فيه وأن يغلقوا المساجد التى فى أحيائهم ، وزود الحى الذى يقطنه الأندلسيون بماء الشرب بواسطة قنطرة مائية ، وأنشأ المأمون قبل أن يعتلى العرش ، وقت أن كان والياً لإشبيلية فى ثغر مالقة قصراً عظيما سمى بالقصر السعيد .

أما فيما يتعلق بالعلوم ، وهى التى استؤنفت فى عهد الموحدين ، فقد كانت المعاهد المغربية فى مراكش وفاس وتونس ، والمعاهد الأندلسية فى إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية يومئذ تجمع العلوم والمعارف التى كانت ذائعة فى ذلك العصر ؛ وكان على رأس هذه المعاهد عمداء ، كان منهم بعض اليهود الذين أبدوا فى العلوم براعة خاصة فى ظل الموحدين فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ وكانت هذه المعاهد تقدم إلى الطلاب كتباً دراسية فى كل العلوم لتكون لهم مقدمة وتمهيداً، وكانت المحاضرات تفتتح وتختتم بالاحتفالات والخطب ؛ ويؤدى الطلبة بعد إتمام الدراسة امتحاناً فى مختلف العلوم ؛ وكانت هذه المعاهد كلها مزودة بالمكتبات ، ولا يزال يوجد إلى اليوم فى مكتبة الاسكوريال فهرس للكتب والمؤلفات التى كانت موجودة فى معاهد غرناطة فى أوائل القرن الثالث عشر .

وإذا استثنينا المؤلفات التى تعنى بالثقافة العربية أو الأندلسية المحضة والتى لم يكن لها تأثير فى سير الحركة العقلية الأوربية ، مثل كتب الدين والفقه واللغة

(١) راجع روض القرطاس ص ١٥١ . وكذلك الهامش فى ص ٨٨ من هذا الجزء

والبلاغة والشعر ، التى كتبت فى الأندلس فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، والتى عرفنا من بعضها أجزاء كاملة كما عرفنا محتويات البعض الآخر وذلك بالأخص من مؤلف العلامة الغزيرى[1] ، فانه يبقى علينا أن نتحدث عما أداه الأندلسيون والمغاربة فى عهد المرابطين والموحدين ، فى الفلسفة والرياضة والعلوم الطبيعية والتاريخ ؛ ولا بد لنا هنا أن نذكر الكتاب اليهود المعاصرين ، وهم الذين كتبوا عن آثارهم الدينية وعن اللغة العبرية ، كما كتبوا عن الفلسفة والعلوم الطبيعية والطب ، وذلك لأنهم وضعوا مؤلفاتهم باللغة العربية أو تلقوا دراستهم بالأخص فى المعاهد العربية أو تولوا التدريس فيها .

فمنذ القرن الحادى عشر وضع يهوذا شويج الفاسى قاموساً عبريا ، ومباحث قيمة عن الانشاء والترقيم فى اللغة العبرية ، لم يطبع منها شىء حتى وقتنا ، وفى القرن الثانى عشر ازدهرت المباحث العلمية اليهودية فى اسبانيا بنوع خاص ، وكتب الربّن يهوذا لاوى المتوفى سنة ١١٥٣ م عن الحقيقة والالهيات فى الدين اليهودى ، ووضع ابن عزرا الطليطلى المتوفى سنة ١١٦٧ م ، والمسمى بالحكيم الكبير ، شرحا لفظيا لنصوص كتب العهد القديم ، وكتب عدة مؤلفات فى النحو والفلسفة والفلك والطب ، ولم يطبع من كتبه الطبية سوى القليل ؛ واشتهر آل كمخى ، وهم يوسف الأب ، وكان موجوداً نحو سنة ١١٦٠ م ، وابناه موسى وداود اللذان عاشا فى أواخر القرن الثانى عشر ، بشروحهم للعهد القديم والأجرومية العبرية ، على أن أشهر مشاهير الكتاب والعلماء اليهود هو الرّاب موسى بن ميمون القرطبى المولود سنة ١١٣٩ م والمتوفى سنة ١٢٠٥ م ، وهو علامة ضليع تولى التدريس فى جامعة إشبيلية ، ثم عين طبيباً للسلطان صلاح الدين ، ثم عميداً لأحد معاهد الإسكندرية ، ثم عميداً لأحد معاهد القاهرة ،

---

(١) مؤلف الغزيرى Casiri المشار إليه هنا ، هو الفهرس الذى وضعه الغزيرى اللبنانى فى أواخر القرن الثامن عشر باللاتينية للكتب العربية الموجودة فى قصر الأسكوريال بعنوان « المكتبة العربية الاسبانية » Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis وصف فيه محتويات هذه الكتب وأتى على ملخصات الكثير منها .

وبها توفى ، وكتب ابن ميمون مؤلفات عديدة فى جميع العلوم تقريباً ، ولكن لم يطبع منها سوى القليل ؛ وهى تتناول بالأخص شرح الكتب الدينية اليهودية والطب والفلسفة ؛ وقد أرغمه القرار الذى أصدره عبد المؤمن — مهدداً اليهود بالموت ومصادرة الأملاك — على أن يعتنق الإسلام فى الظاهر ؛ بيد أنه سرعان ما انتهز الفرصة للسفر إلى مصر ، وهنالك اشتغل حينا بالمتاجرة فى الأحجار الكريمة .

وازدهرت الفلسفة بالأخص فى معاهد الأندلس ؛ وكانت العلوم الطبيعية والرياضية ترتبط بالفلسفة عادة ؛ ومنذ النصف الأول من القرن الحادى عشر نبغ أبو على الحسين بن سينا[١] المتوفى سنة ١٠٣٧ (٤٢٨ هـ) فى الفلسفة والطب .

وكتب أبو حامد محمد الغزالى الطوسى المتوفى سنة ١١١٩ م (٥١٣ هـ) عدداً عظيما من الكتب واشتهر بالأخص بكتابه «تهافت الفلاسفة» ، وأفتى جميع معاهد الأندلس والمغرب باشارة سلطان المرابطين بأن هذا الكتاب يحتوى على آراء إلحادية ، ومنعت قراءته وأحرقت نسخة أينما وجدت[٢] ؛ ولكن مؤسس دولة الموحدين (المهدى) أعاد مكانة أعظم فلاسفة الإسلام الدينيين فى المغرب إلى ما كانت عليه ، بل عادت أعظم مما كانت فى أى وقت ، وذلك بالرغم من أن كثيراً من علماء الأندلس كانوا يخالفون آراء الغزالى ؛ بيد أنه من الأسف أن مؤلفات هذا المفكر العظيم الذى تحتل كتبه وحدها حيزاً عظيما فى الآداب العربية لم ينشر منها سوى القليل[٣] .

وكان أبو جعفر بن الطفيل الأشبيلى المتوفى سنة ١١٧٦ م (٥٧١ هـ) أوفر

---

(١) يسمى الأفرنج ابن سينا Avicenna كما هو معروف وسوف نثبت الأسماء الأفرنجية لأولئك العلماء فى نهاية الكتاب مع مقابلها العربى .

(٢) هذا ما ذكره المؤلف ولكن الحقيقة أن كتاب الغزالى الذى منع وصودر بالأندلس والمغرب فى عهد المرابطين هو كتاب إحياء علوم الدين (راجع الحاشية فى ص ١٩٦ من الجزء الأول) .

(٣) كتب المؤلف ذلك منذ نحو قرن . أما اليوم فان عشرات من مؤلفات الغزالى قد طبعت غير مرة ، وهى ذائعة فى جميع أنحاء العالم الإسلامى .

حظا ، فقد طبعت رسالته الشهيرة « حي بن يقظان » بنصها العربي ، وطبعت ترجمتها اللاتينية والألمانية ، وحازت إعجاب المفكر العظيم لايبنتز[١] ؛ وهي قصة صبي ترك وحيداً في جزيرة منعزلة ، واستطاع بواسطة التأمل وحده أن يؤمن بوجود الخالق وأن يتعرف قوانين الطبيعة .

واشتهر أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد بالأخص من بين الفلاسفة الأندلسيين الذين استطاعوا بتراجمهم وشروحهم وتعليقاتهم أن يمهدوا لدراسة الفلسفة اليونانية ولاسيما فلسفة أرسطو بين المفكرين المسلمين ؛ وقد ولد بقرطبة وتوفى سنة ١١٩٨ م (٥٩٤ هـ) ؛ وكان كثير الكتابة متضلعاً في علوم كثيرة ؛ وقد تفوق بنوع خاص في الطب والفلسفة ؛ ومن مؤلفاته التي طبعت وذاعت شرحه القيم لفلسفة أرسطو ، وشرحه لجمهورية أفلاطون (وهو فيلسوف لا يميل إليه المفكرون المسلمون على العموم) ، ورده على كتاب الغزالي « تهافت الفلاسفة » بكتاب سماه « تهافت التهافت » . كذلك يحتل ابن رشد المقام الأول بين علماء الأندلس في علم الطب ، ولاسيما من أجل نظرياته الطبية التي يحاول أن ينوه فيها بالفروق القائمة بين تعاليم أرسطو وتعاليم جالينوس ، وأن يدافع عن نظريات الأول ضد نظريات الثاني[٢] .

وإلى جانب مشاهير الأطباء مثل أبي بكر بن زكريا الرازي ، وابن سينا وابن ميمون مؤلف « مختصرات جالينوس » وماسويه بن حمش الماردينى المتوفى سنة ١١٦٠ م مؤلف كتاب « الأدوية والمعالجة » ، يجب أن نذكر أبا القاسم خلف ابن عباس القرطبي المتوفى سنة ١١٢٢ م (٥١٦ هـ) ، وقد نبغ في الطب والجراحة والصيدلة نبوغا فائقاً ، واشتهر بكتبه القيمة عن الجراحة والآلات الجراحية ، وعلاج النقطة ، والأورام البسرطانية ، وأمراض النساء ، وتحضير الأدوية ؛ ولم يطبع بعد كتابه الجامع في علم الطب ؛ والظاهر أنه كان عارفا باستعمال حرق المخروط القطني على الجلد ؛ وكان يستعمل عملية استخراج الحصى من القضيب بنجاح .

(١) لايبنتز Leibnitz فيلسوف وعالم رياضي ألماني (١٦٤٦ — ١٧١٦) .

(٢) أوردنا ترجمة موجزة لابن رشد في هامش ص ٦٥ من هذا الجزء .

واشتهر أبو مروان عبد الملك بن زهر الأشبيلي المتوفى سنة ١١٦٨ م (٥٦٤ هـ) بالأخص بقوة الملاحظة الخاصة ، وهو أوفر الأطباء المسلمين علما وبراعة ؛ ويبدو ذلك بوضوح فى كتابه « التيسير فى المداواة والتدبير » ؛ وقد شغل مدى أعوام طويلة منصب الطبيب الخاص لسلطان الموحدين أبى يعقوب .

وأما فى العلوم الطبيعية ولاسيما فى التاريخ الطبيعى ، فقد نبغ بالأخص العلامة النباتى ضياء الدين عبد الله بن أحمد بن البيطار المالقى المتوفى سنة ١٢٤٨ م (٦٤٦ هـ) وقد تولى الوزارة فى أواخر حياته لحكومة دمشق ، وسما شأنه ؛ وساح فى جميع الأقطار المعروفة يومئذ فى أوربا وإفريقية وآسيا ، وضمن نتائج دراساته وبحوثه كتابه المعروف عن ممالك الطبيعة الثلاث ، وفيه يتحدث بالترتيب الأبجدى عن خواص النبات والسموم والحيوانات ؛ ولم يطبع من مؤلفه سوى جزء صغير .

وأما فى الكيمياء — وهى فى الواقع علم ندين به كله إلى العرب — فقد قام الأطباء والعلماء الطبيعيون الأندلسيون باكتشافات هامة ؛ بيد أنه من الصعب أن نعين الأوقات التى تمت فيها هذه الاكتشافات .

كذلك يدين العالم فى الرياضيات بكثير من الفضل للعلماء العرب والأندلسيين وقد كان علم الجبر أهم ما اكتشفوه فى هذا الميدان ؛ على أن هذا العلم لا يستق اسمه من اسم العلامة جبر الأشبيلى الذى عاش فى القرن الثانى عشر ، والذى كتب كتابا عن « الدوائر » ، ولكن يستقيه من كلمة « الجبر » العربية ، ومعناها جبر الأعداد الكسرية إلى مجموع واحد ؛ ويسمى العرب مانسميه نحن « بالجبر » « الجبر والمقابلة » ؛ والمعروف عن ثابت بن قرة أنه كان من أعظم علماء الجبر ؛ كذلك كان ابن رشد متفوقا فى الرياضيات ، وقد وضع مختصراً لكتاب « المجسطى » لبطليموس ؛ وطبقت الرياضة أيضاً فى دراسة الموسيقى ، وعرف الأندلسيون الأنغام المسجلة « النوتات » قبل أن يعرفها مكتشفها المزعوم جيدو دى أريتسو ويذيعها فى إيطاليا .

وكان الفلك من العلوم المحبوبة عند العرب ؛ وكان الملوك ، وكذلك الأمر

المغربيــة يشجعون دراسته تشجيعاً كبيراً ؛ وكان التنجيم يرتبط بهذا العلم أعظم ارتباط . وقد ابتنى سلطان الموحدين يعقوب المنصور فى سنة ١١٩٦ م (٥٩٢ هـ) فى مسجد إشبيلية الجامع برجا عالياً ليكون مرصداً ؛ ومن الواضح أنه أول مرصد بنى فى أوربا ؛ ووضع المنصور فى سنة ١١٥٧ م (٥٤٥ هـ) أزياجا فلـكية عن كسوف الشمس ، وكتب معاصره البتراجى Alpetragius المراكشى رسالة عن الأجرام ترجمت إلى اللاتينية وطبعت ، ولـكن أزياج المنصور لم تطبع .

أما كون البوصلة اختراعا عربيا فما لاشك فيه ، يدل على ذلك ما كان يستعمل من قبل من الألفاظ لوصف اتجاه الابرة الممغنطة مثل قولهم « الشارون » للدلالة على الشمال ، و « الأفرون » للدلالة على الجنوب ، وهى ألفاظ اشتقت من العربية ؛ ولم يقتصر العرب على استعمال هـذا الاختراع فى رحلاتهم البحرية منذ القرن الثانى عشر ، بل استعملوه أيضاً فى رحلاتهم الصحراوية ؛ كذلك كان يستعمل فى الحياة اليومية لتعيين اتجاه القبلة للصلاة ، ومعرفة مواقع الجهات الأربع .

كذلك وضع مسلمو المغرب فى تلك العصور مؤلفات قيمة فى علم الجغرافيا ، وأهم هذه المؤلفات هو الـكتاب الضخم الذى وضعه الشريف الادريسى ، أبو عبد الله بن محمد السبتى الذى عاش حوالى سـنة ١٠٩٩ إلى سنة ١١٧٥ م ، (٤٩٣ ـ ٥٧٠ هـ) . وقد وضع الإدريسى مؤلفه فى صقلية فى سنة ١١٥٣ م (٥٤٨ هـ) بعنوان « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » . بيد أنه لم يطبع منه سوى مختصر فقط[١] ، وعمل الإدريسى أيضاً لملك صقلية روجر (رجار) الثانى كرة أرضية جغرافية من الفضة ، وقد طبع كوندى من « نزهة المشتاق » الجزء الخاص باسبانيا ، ونشر منه العلامة الألمانى هارتمان قطعاً أخرى .

---

(١) طبع مختصر نزهة المشتاق المشار إليه فى سنة ١٥٩٧ م فى رومة فى مجلد واحد ؛ ويوجد بدار الـكتب نسخة فتوغرافية غير كاملة من نزهة المشتاق ؛ وقد طبعت منـه أجزاء مختلفة ؛ وتولى العلامة المستشرق دوزى نشر القسم الخاص بالأندلس والمغرب مع ترجمته الفرنسية .

وأما فيما يتعلق بالتاريخ ، فإن عصر المرابطين لم يكن مشجعاً على كتابته ، إذ كانت حكومتهم تُخضع المؤلفات التاريخية لرقابة صارمة ، وكانت تأمر باحراق جميع الكتب التي لا تروق لها . فلما جاءت حكومة الموحدين أبدت تسامحا فى البداية وألغت رقابة المؤلفات التاريخية ، وسمحت بالكتابة عن تاريخ الدولة ؛ ومع ذلك فقد كان لزاما على المؤرخين أن يكتبوا بمعاف عن الأسرة الوحدية ، وقد هدد خلفاء عبد المؤمن المؤرخين بالموت إذا كتبوا عن حكومتهم أموراً لا تسر . ومع ذلك فانا نجد فى بعض المؤلفات الأندلسية المعاصرة أقوالا تدل على أن مؤلفيها لم يخشوا من قول الحقيقة ، وكثيراً ما ترد بها مطاعن شديدة على سلاطين الموحدين ووزرائهم ؛ ولم يطبع إلى اليوم مؤلف منها بنصه الكامل ولكن الغزيرى أورد شذوراً منها ، وترجمت أقسام كبيرة وصغيرة منهـا فى مؤلفى دومبى Dombay وكوندى Condé ، وإليك أهم أولئك المؤرخين :

أبو مروان حيّان بن خلف بن حسين بن حيّان المتوفى سنة ١٠٨٦ م (٤٧٩ هـ) كتب تاريخاً للأندلس فى عشر مجلدات[١] ، ومؤلفا تاريخيا آخر فى ستين جزءاً ، وكتابه أهم المصادر بالنسبة لبداية عصر المرابطين ، ومن أهم المؤلفات التاريخية فى عصره ، ويغلب الصدق على روايته .

الحُـمَيدى ، وهو أبو عبد الله بن محمد بن أبى نصر المتوفى حوالى سنة ١١٠٠ م (٤٩٣ هـ) ، وقد كتب تراجم لمشاهير رجال الأندلس ، وهو قيم بالأخص فيما يتعلق بتراجم العلماء[٢] ، وأهم منه أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال القرطبى المتوفى سنة ١١٨٣ م (٥٧٨ هـ) ، ومؤلفاته مصدر فى منتهى الأهمية لتاريخ القرن

(١) هو كتاب المقتبس فى أخبار أهل الأندلس ؛ ولم يصلنا منه سوى قطع صغيرة ؛ وقد طبعت إحداها أخيراً بعناية بعض المستشرقين ؛ وأما الكتاب الثانى فهو كتاب «المبين» ؛ وقد ترجم له ابن خلكان (ج ١ ص ٢١٠) وذكر أن مولده فى سنة ٣٦٧ هـ ووفاته سنة ٤٦٩ هـ

(٢) كتاب الحميدى المشار إليه هو كتاب جذوة المقتبس فى تاريخ علماء الأندلس وترجمته فى ابن خلكان (ج ١ ص ٦١٤) .

الحادى عشر وقسم من القرن الثانى عشر[١] .

أبو على بن رشيد وابن ختم ، وقد عاشا فى أواسط القرن الثانى عشر وعاصرا المهدى ، وكتبا عن قيام دولة الموحدين وحياة المهدى ، وحملا عليه صراحة ؛ وقد اختصرهما أبو مروان الذى عاش فى القرن الثالث عشر .

ابن الأبار القضاعى البلنسى الذى عاش فى أواسط القرن الثالث عشر ، وقد انتفع فى تاريخه عن اسبانيا بكتب المؤلفين السابقين ؛ وهو بالنسبة لتاريخ بنى هود فى سرقسطة والمرابطين والموحدين مصدر فى غاية الأهمية ؛ وقد وصف لنا أحوال دولة الموحدين فى أواخر أيامها ، وكذلك فتوح النصارى فى الأندلس ، وصف معاصر وشاهد عيان[٢] .

ابن الخطيب (وهو لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد) ، وقد ولد بمدينة لوشة من أعمال غرناطة سنة ١٣١٣م (٧١٣هـ) وتوفى سنة ١٣٧٤م (٧٧٦هـ) ؛ ألف فضلا عما كتبه من المؤلفات التاريخية المديدة كتاباً عن تاريخ ملوك الاسبان ، وكتاباً آخر عن أعلام الاسبانيين وكلاهما قيم فى بابه ، وقد أورد الغزيرى منهما شذوراً فى معجمه[٣] . وكان من معاصريه ابن عبد الحليم الغرناطى ؛

(١) أشهر كتب ابن بشكوال كتاب الصلة الذى ذيل به على كتاب علماء الأندلس لابن الفرضى ، وقد تناول فيه أخبار علماء الأندلس وأعيانها حتى عصره ؛ وطبع فى مجلدين ضمن المكتبة الأندلسية .

(٢) كتب ابن الأبار المتوفى سنة ٦٥٩ هـ تكملة لكتاب الصلة لابن بشكوال ترجم فيها لأعيان أهل الأندلس وعلمائها وشعرائها ، وطبعت فى مجلدين ضمن المكتبة الأندلسية ؛ وله أيضاً كتاب الحلة السيراء فى تراجم بعض أعيان الأندلس منذ الفتح إلى عصره ؛ طبع بعناية المستشرق دوزى وهو قيم جداً بالنسبة لتاريخ الطوائف وتاريخ الأندلس فى القرن السادس الهجرى .

(٣) كان ابن الخطيب من أعظم وزراء الأندلس وكتابها وشعرائها فى القرن الثامن الهجرى ؛ وله ثبت حافل من المؤلفات التاريخية والأدبية ، منها كتاب « الاحاطة فى أخبار غرناطة » وهو أشهرها ، وتاريخ الدولة النصرية ؛ وريحانة الكتاب . والسحر والشعر . والكتيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة وغيرها . وله رسائل وقصائد لا تحصى . وقد أفرد له المقرى صاحب نفح الطيب من مؤلفه مجلدين كبيرين ألم فيهما بكثير من أخباره وآثاره .

وقد كان مؤرخاً ذا شأن لدولتى المرابطين والموحدين ، وقد ترجم مؤلفه التاريخى عن فاس ومراكش — وهو الذى اعتمد فى وضعه على المصادر العربية فى تاريخ إفريقية والأندلس وكذلك على المحفوظات الملكية — بنصه إلى الاسبانية بعناية كوندى ، وقد نقل فيه عن المؤرخين السابقين مثل ابن حيان وغيره ، أحياناً شذوراً برمتها وأحياناً بطريق التلخيص[1].

« تم الكتاب »

(١) كتاب ابن عبد الحليم الغرناطى المشار إليه هنا هو كتاب « الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس » وهو فى الواقع من تأليف أبى الحسن على بن عبد الله بن أبى زرع الفاسى ، ونسبته إلى ابن عبد الحليم الغرناطى ضعيفة ، وقد نشر هذا الكتاب بعناية المستشرق تورنبرج مع ترجمة لاتينية بمدينة أوبساله سنة ١٨٤٣ ؛ وقد انتفع به المؤلف انتفاعاً كبيراً .

ملحق

لفهرس الأعلام الجغرافية والتاريخية

نشرنا فى الجزء الأول من هـذا الـكتاب (ص ٢٦٩) فهرساً للأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية ومقابلها الأوربى ؛ وقد وردت بالجزء الثانى أعلام جغرافية وتاريخية جديدة لم ترد بالجزء الأول ، فرأينا أن نثبتها فى هذا الملحق على النحو الآتى :

أبو القاسم (خلف بن عباس القرطبى)	Abulcasis
القنطارة	Alcantra
القصر أو قصر أبى دانس	Alcàzar, Alcazar da sol
لقنت (وقد وردت محرفة فى ج ١)	Alicante
ابن باجه	Avempace. Avenpace
ابن زهر الأشبيلى	Avenzoar
ابن رشد	Averroes
ابن سينا	Avicenna
بريانه	Burriana
شنترين	Cintrin
وادى لـكه	Guadelete.
موسى بن ميمون	Maimonides
مكناسة الأندلس	Miqueneza, Miquenenza

حصن العقاب أو موقعة العقاب	Navas di Tolosa
أوسمه	Osma
الرازى (أبو بكر بن زكريا)	Rasis
سربطرة أو شربطرة	Salvatierra
نهر شقورة (وقد وردت محرفة فى ج ١)	Segura
ترجاله	Turgiello-Turillo
أورقلة	Urgel
شقر — جزيرة شقر	Xucar

فهرس الموضوعات

الجزء الثانى

الكتاب الرابع

سيادة الموحدين

والحكومات الخاسية النصرانية فى شبه الجزيرة الاسبانية

صفحة

الكتاب الخامس

اضمحلال سيادة الموحدين وازدياد تفوق قشتالة وأراجون

فى النصف الأول من القرن الثالث عشر

صفحة

الإشـــــراف اللغـــوى: حسام عبد العزيز
الإشـــــراف الفـــنـــى: حســـن كـــامـل
التصميم الأساسى للغلاف: أســامـة الـعـبـد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة